لحظات قبل الموت!

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾

محمد خير رمضان يوسف

دار ابن حزم

لحظات قبل الموت!

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ
ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾

محمد خير رمضان يوسف

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-234-9

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366

هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)

بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمدُ لله الحيِّ الذي لا يموت، والصلاةُ والسلامُ على مَنْ قال له ربُّه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، وعلى آله وأصحابه أهل التقى والصلاح، وبعد:

فإن لحظاتِ الاقترابِ من الموتِ ومعاناةَ سكراتِهِ هي أصعبُ المواقفِ التي تواجهُ الإنسان.

إنها ساعاتٌ رهيبة، لا تُشبهها أيّةُ مواقفَ أخرى في الحياة.

إنها ليستْ مجرّدَ لحظاتِ وداعٍ لا لقاءَ بعدها مع الأهلِ والأحبابِ في هذه الحياة.

إنَّ الأمرَ أجلُّ من هذا وأعظم.

إنه الخوفُ والهلعُ من «المجهول» الذي ينتظرُ الإنسان.

إنه القلقُ والفزعُ الذي ينتابُ كيانَ الإنسانِ كلَّه لما ينتظره في القبر، وعند الحشر، ويوم الحساب.

سيحاسبُ المرءُ على كلِّ كلمةٍ نطقَ بها، وعلى كلِّ فعلٍ قام به، صغيراً كان كالذرّ، أو كبيراً مثلَ الجبال.

هذا العقلُ الذي أودعَهُ الله في الإنسان، ليميِّزَ به طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرّ، وليعرفَ به سبيلَ الإيمانَ وجادةَ الحقّ، وليعمِّرَ به حضارةً ربّانيةً قائمةً على العلمِ والتقوى...

هل استخدمَ عقلَهُ لهذا، واستجابَ لنداءِ الوحي حتى لا يضلّ ولا يغوي، وأدّى الأمانة كما ينبغي؟.

أم أنه اتّبعَ هواه، فجانبَ الصراطَ المستقيم، وخدعَ الناس، واقتفى أثرَ الشيطان، وناصرَ أهلَ الظلم، فطغىٰ وتجبَّر، وعاثَ فساداً وقتل، واستسلمَ للذّةِ والشهوة، وآثرَ العلمنةَ والإلحادَ على نهجِ القرآنِ وسنةِ الأنبياء؟.

يتذكَّرُ كلَّ هذا في آخرِ لحظةٍ له من الحياة.. ولا مردَّ بعد ذلك إلى الدنيا ليعملَ غيرَ الذي عمل، ولا منجىٰ من الصدقِ مع الله، حيث سيكونُ حبيسَ عملهِ وأسيرَ شهادتهِ في الحياة.

إن على الإنسانِ دائماً أن يتذكَّرَ أنه سيصلُ إلى هذه المرحلة، مهما عُمِّر. والعاقلُ يحاسبُ نفسَهُ قبل أن يحاسب، والمسرفُ يسوِّف، مخدِّراً بذلك نعمةَ العقلِ فيه، حتى يجدَ نفسَهُ في الموقفِ الصعبِ وقد فاتَ الأوان، ولاتَ حين مندم.

أما الكافر، فنعوذُ بالله من حاله، فلا شيءَ له عند الله سوى العذابِ والخُلدِ في النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾، ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾. نسأل الله حسن الختام.

وهذه مجموعة من أقوالٍ ومواقفٍ وحكاياتِ مَنْ حضرهم الموت، فنطقوا بما هو عبرةٌ للآخرين، من خيرٍ وشرّ، ومن مهانةٍ إلى كِبْر، ومن سلامةٍ إلى مذلّة، ومن شوقٍ إلى خوف، بل ومن إيمانٍ وكفر، حيث يغلبُ على المحتضَرِ ما كان حالهُ في الحياة، ويُبعثُ على ما مات عليه.

وأضفتُ إليها فوائدَ تناسبُ الأحوالَ التي تتطلَّبُ الحدث، مما غلبَ

على حالِ المترجم له، من علم أو منصبٍ أو مال، أو ما إلى ذلك من أحوال، مع جوانبَ أخرى تتعلّقُ بهيبةِ الموقف، ولو خرجَ ذلك عن الموضوع الأساس، وكنتُ أورد الخبر مختصراً عند الحاجة، ولم ألتزم بحرفية النص المنقول في كل مرة؛ تهذيباً وترغيباً.

وجاء متنوّعاً، يفيدُ أهلَ الإيمانِ والعلم والأدب، ممّن يتشوّقُ إلى لقاءِ الله الكريم، وقد جاهدَ وعبد، وقاسى وتعب، ثم سدّد وقارب، وأحكمَ الربطَ لئلا يغرق. أو ممّن يخافُ القدومَ عليه، وقد فرّطَ وأسرف، وأنساهُ النعيمُ قَصْفَ الموت، فغرق في اللّذّات، وتمرّغ في الشهوات، وأجّلَ التوبة حتى لم يقدرْ على النطقِ بكلمةِ الإخلاص، أو عمل وهو ينتظرُ رحمةَ الله ويخشىٰ أن تفوته.

هو كتابُ مطالعةٍ فيها عظاتٌ وعِبَرٌ، للعامّةِ والخاصّة، باختلاف طبائعهم واهتماماتهم، لمن أراد أن ينجو ويعتبر، فالموتُ بانتظارِ الجميع... ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقد اعتنيتُ بجمعِ هذا المحتوى منذ أن أنهيتُ تحقيق كتاب «المحتضرين» لابن أبي الدنيا، حيث وجدتُ له أثراً كبيراً في نفسي وتقويم سلوكي، وشهدَ بذلك آخرون، فعنَّ لي أن أجمعَ ما قيل في ذلك بعد وفاةِ مؤلفه، وهو من أعلام القرنِ الثالثِ الهجري، أو ما فاتهُ ذكرهُ مما سبق. فكان أن اتجهتُ إلى التركيز على القرونِ التالية، دون التعريج على الكتبِ المؤلفةِ في هذا الموضوعِ، بل اهتممتُ بالقرونِ المتأخرةِ أكثر، حيث يهملُ الباحثونَ التعويلَ على مصادرها، ويكتفونَ بما جُمعَ وتكرَّرَ من القرونِ الأولى، وهي المفضَّلةُ بحمدِ الله، والخيرُ في أمّةِ محمد ﷺ ممتدٌّ إلى يومِ الدِّين، والعبرةُ كامنةٌ في تكرُّرِ الحوادثِ وتنوُّعها، حيث إن الطبائعَ مختلفةٌ، وكلٌّ يتأثَّرُ بنوع...

وقد مهّدتُ لها بفصلٍ قصيرٍ عن الاحتضارِ في القرآن الكريم، ومثله في الأحاديثِ الشريفةِ، ثم جملة أخبار مما قبل الإسلام.

وكان لا بدَّ من نوعِ ترتيبٍ لفقراتِ هذا الكتاب، فآثرتُ أن تكونَ على

الطبقات، أي حسبَ الوفيات، من الأقدمِ إلى الأحدث. فإذا غابَ عني تاريخُ محتضرٍ جعلتهُ قريباً من تاريخِ وفاةِ راويه، أو مؤلفِ الكتاب، أو ما غلبَ على الظنِّ أنه في قرنِ كذا.

وبهذا الترتيبِ يتنقَّلُ المرءُ بين ترغيبٍ وترهيب، وحمدٍ ودعاء، ومسكنةٍ ومحذرة، وشوقٍ وبكاء، وندمٍ وعِظة...

ندعو الله تعالى أن يهديَنا إلى الحق، ويثبِّتنا عند الممات، ويجعلَ آخرَ وداعنا لهذه الدنيا قولَ لا إله إلا الله.

محمد خير يوسف

رمضان ١٤٢٦هـ

{١} آيات في الاحتضار

١ ـ يقول ربُّنا سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(١).

يقول الله تعالى محتجّاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ـ بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصّىٰ بنيه بعبادةِ الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي نوحّده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً، ونحن له مطيعون خاضعون(٢).

٢ ـ وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾(٣).

يقول سبحانه وتعالى: إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوبُ قبل الغرغرة. وكلُّ من عصى الله خطأً أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وأما متى وقع الإياس من الحياة وعاينَ الملَك، وخرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفسُ صاعدة في الغلاصم، فلا توبة مقبولة حينئذ، ولات حين مناص.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.
(٢) باختصار من تفسير ابن كثير ١/١٨٦.
(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

والكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يُقبل منه فدية ولو بملء الأرض. وقد أعدَّ الله له عذاباً موجعاً شديداً مقيماً(١).

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(٢).

﴿غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾: سكراته وكرباته.

﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾: أي بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم. وذلك أن الكافر إذا احتُضر بشَّرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾.

أي تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله(٣).

٤ ـ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾(٤).

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره: يقولُ تعالى ذكره معرّفاً فرعون قبح صنيعه أيام حياته وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديه في

(١) باختصار من تفسير ابن كثير ٣٦٣/٢ ـ ٣٦٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.
(٣) المصدر السابق ١٥٧/٢، وروح المعاني للآلوسي ٢٢٤/٧، والدر المنثور للسيوطي ٥٩/٣ (طبعة دار الكتب العلمية).
(٤) سورة يونس، الآيتان: ٩٠، ٩١.

طغيانه ومعصيته ربّه، حين فَزِعَ إليه في حال حلول سخطه به ونزول عقابه، مستجيراً به من عذابه الواقع به لما ناداه، وقد علتْهُ أمواج البحر، وغشيَتْهُ كُربُ الموت: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي المنقادين له بالذلة، المعترفين بالعبودية. آلآن تقرُّ لله بالعبودية، وتستسلم له بالذلّة، وتُخلص له الألوهية، وقد عصيتَهُ قبل نزولِ نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادِّين عن سبيله، فهلاّ وأنت في مهل، وبابُ التوبة لك منفتح، أقررتَ بما أنت به الآن مقرّ[1]؟.

٥ ـ وقال جلَّ جلاله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[2].

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرّطين في أمر الله تعالى وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته[3].

ويُلقي الشهيد سيد قطب ظلالاً على هاتين الآيتين فيقول:

إنه مشهد الاحتضار، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال، وكأنما المشهد معروض اللحظة للأنظار، مشهود كالعيان! فإذا الردُّ على هذا الرجاء المتأخر لا يوجَّه إلى صاحب الرجاء، إنما يعلق على رؤوس الأشهاد: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

كلمة لا معنى لها، ولا مدلول وراءها، ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها. إنها كلمة الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب. كلمة تُقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب من رصيد...[4].

---

(١) تفسير الطبري (جامع البيان) ١١٣/٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٥٥/٣.

(٤) في ظلال القرآن ٢٤٨٠/٤.

{٢} أحاديث في الاحتضار

- عن سُعدىٰ المُرِّية قالت: مرَّ عمرُ بطلحة بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ، فقال: ما لكَ كئيباً؟ أساءتْكَ إمرةُ ابنِ عمِّك؟.

قال: لا، ولكنْ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«إني لأعلمُ كلمةً لا يقولُها أحدٌ عند موتهِ إلا كانتْ نوراً لصحيفته، وإنَّ جسدَهُ وروحَهُ ليجدانِ لها رَوْحاً عند الموت»**.

فلم أسألْهُ حتى توفِّي، قال: أنا أعلمُها، هي التي أراد عمَّهُ عليها، ولو علمَ أنَّ شيئاً أنجىٰ له منها لأمره[1].

اللّهم اجعلْ آخرَ كلامنا في هذه الدنيا لا إله إلا الله.

- عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ:

«إذا قال العبدُ: لا إله إلا الله والله أكبر، قال الله: صدق عبدي، لا إله إلا أنا وأنا أكبر. فإذا قال: لا إله إلا الله وحده، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا وحدي. فإذا قال: لا إله إلا الله لا شريك له، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا ولا شريك لي. فإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد. فإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي، لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بي. من رُزقهنَّ عند موته لم تمسَّهُ النار»[2].

- عن سعيد بن المسيَّب، عن أبيه، أنه أخبره أنه لـمّا حضرتْ أبا طالب الوفاة، جاءَهُ رسولُ الله ﷺ، فوجدَ عندَهُ أبا جهل بن هشام،

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل لا إله إلا الله، رقم ٣٧٩٥، وصححه في صحيح الجامع الصغير (٢٤٩٢).

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧١٣).

وعبدَالله بن أبي أميّة بن المغيرة، قال رسولُ الله ﷺ لأبي طالب: **«يا عمِّ، قلْ لا إله إلا الله، كلمةً أشهدُ لكَ بها عند الله»**.

فقال أبو جهلٍ وعبدُالله بن أبي أميّة: يا أبا طالب، أترغبُ عن ملّةِ عبد المطّلب؟.

فلم يزلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويعودانِ بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخِرَ ما كلَّمهم: هو على ملّةِ عبد المطلب. وأبى أن يقول لا إله إلا الله.

فقال رسولُ الله ﷺ: **«أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك»**.

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾[(1)(2)].

- عن عبادة بن الصامت، عن النبيِّ ﷺ قال: **«مَنْ أحبَّ لقاءَ اللّهِ أحبَّ اللّهُ لقاءه، ومَنْ كَرِهَ لقاءَ الله كَرِهَ اللّهُ لقاءه»**.

قالت عائشة، أو بعضُ أزواجه: إنّا لنكرهُ الموتَ.

قال: **«ليس ذاكِ، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضَرهُ الموتُ بُشِّرَ برضوانِ الله وكرامته؛ فليس شيءٌ أحبَّ إليه ممّا أمامه، فأحبَّ لقاءَ الله وأحبَّ الله لقاءَه، وإنَّ الكافرَ إذا حُضِرَ بُشِّرَ بعذابِ الله وعقوبته؛ فليس شيءٌ أكرهَ إليه مما أمامه، كرهَ لقاءَ الله وكرهَ الله لقاءه»**[(3)].

- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: يا رسول الله، أيُّ الصدقةِ أفضل؟

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله ٩٨/٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه ١٩١/٧.

قال: **«أنْ تَصَدَّقَ وأنت صحيح حريص، تأملُ الغنى وتخشى الفقر، ولا تُمْهِلْ حتى إذا بلغتِ الحلقومَ قلتَ: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان»**[1].

قال الحافظ ابن حجر: في الحديث أن تنجيزَ وفاءِ الدين والتصدق في الحياة وفي الصحة أفضل منه بعد الموت وفي المرض.

قال: وروى أبو داود وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: **«لأن يتصدَّقَ الرجلُ في حياته وصحته بدرهم خيرٌ له من أن يتصدَّقَ عند موته بمائة»**[2].

- عن أبي المليح، أن عبيدالله بن زياد عادَ معقلَ بنَ يسار في مرضه، فقال له معقل: إني محدِّثُكَ بحديث، لولا أني في الموتِ لم أحدِّثْكَ به، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«ما مِنْ أميرٍ يلي أمرَ المسلمين، ثم لا يَجْهَدُ لهم وينصح، إلا لم يدخلْ معهم الجنّة»[3].

قال الإمام النووي: قوله: لولا أني في الموت لم أحدِّثك به، يحتمل أنه كان يخافه على نفسه قبل هذا الحال ورأى وجوب تبليغ العلم الذي عنده قبل موته لئلا يكون مضيِّعاً له، وقد أمرنا كلنا بالتبليغ.

وفي الحديث وجوب النصيحة على الوالي لرعيته، والاجتهاد في مصالحهم، والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم (٢٧٤٨).

(٢) فتح الباري ٢٦/٦ (طبعة دار الفكر بلبنان).

(٣) رواه مسلم في صحيحه في عدة روايات، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (الأرقام ٢٢٧ ـ ٢٢٩)، وكتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٩.

(٤) ينظر صحيح مسلم بشرح النووي ٢١٥/١٢.

ـ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«ما مِنْ أحدٍ يموتُ إلا ندم».

قالوا: وما ندامتهُ يا رسول الله؟

قال: **«إن كان مُحسناً ندمَ أن لا يكون ازداد، وإن كان مُسيئاً ندمَ أن لا يكونَ نَزَع»**[1].

ازداد: أي ازدادَ خيراً من عمله.

نزع: أي أقلعَ عن الذنوب ونزعَ نفسه عن ارتكاب المعاصي وتاب وصلح حاله[2].

ـ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال:

«أسرفَ رجلٌ على نفسه، فلمّا حضرهُ الموتُ أوصى بنيه فقال: إذا أنا متُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذْرُوني في الريحِ في البحر، فوالله لئنْ قَدَرَ عليَّ ربِّي لَيعذِّبُني عذاباً ما عذَّبَهُ به أحداً. ففعلوا ذلك به، فقال للأرض: أدِّي ما أخذتِ، فإذا هو قائم، فقال له: ما حَمَلكَ على ما صنعت، فقال: خشيتُكَ يا ربِّ، أو قال: مخافتك. فغفرَ له بذلك»[3].

قالت طائفة من العلماء: لا يصح حمل هذا على أنه نفى قدرة الله، فإن الشاكَّ في قدرة الله تعالى كافر، وقد قال في آخر الحديث: أنه إنما فعل هذا من خشية الله تعالى، والكافر لا يخشى الله تعالى ولا يغفر له.

قال هؤلاء: فيكون معنى «قدر» هنا قضىٰ، أو ضيَّق.

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، الباب (٥٨) رقم ٢٤٠٣، وضعفه في ضعيف الجامع الصغير (٥١٤٦).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير ٣٥٧/٢.

(٣) رواه الشيخان وغيرهما، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله ٩٨/٨، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، الباب (٥٤) ١٤٨/٤ في عدة روايات، واللفظ لمسلم.

وقالت طائفة: اللفظ على ظاهره، ولكن قاله هذا الرجل وهو غير ضابطٍ لكلامهِ ولا قاصدٍ لحقيقة معناه ومعتقدٍ لها، بل قاله في حالة غلبَ عليه فيها الدهش والخوف وشدَّة الجزع، بحيث ذهب تيُقظه وتدبُّرُ ما يقوله، فصار في معنى الغافل والناسي، وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها...

وقيل: إنما وصَّى بذلك تحقيراً لنفسه وعقوبة لها لعصيانها وإسرافها؛ رجاء أن يرحمه الله تعالى[1].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٧١/١٧، ٧٢.

ما قبل الإسلام

{٣} نوح ـ عليه السلام ـ

يروى أنه قيل لنوح ـ عليه السلام ـ لما احتُضر: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كبيتٍ له بابان، دخلتُ من أحدهما، وخرجتُ من الآخر!.

ولما حضرته الوفاة دعا ابنه ساماً، وهو بِكْره، فقال: يا بني، أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين.

فأما اللذان أنهاك عنهما: فالإشراك بالله، والكِبْر؛ فإنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر.

وأما اللذان أوصيك بهما، فإني رأيتهما يكثران الولوج إلى الله تعالى، قول لا إله إلا الله، وسبحان الله؛ فإن قول لا إله إلا الله لو جمعت السماوات السبع والأرضون السبع لخرقتهما حتى تبلغ إلى ربها، ولو جُعلت لا إله إلا الله في كفَّة ميزان لرجحت بالسماوات السبع والأرضين السبع وما فيها.

وأوصيك بسبحان الله، فإنها صلاة الخلق، وبها يُرزقون[(١)].

* * *

(١) قصص الأنبياء للثعلبي ص٥١، ٥٢ (طبعة المكتبة الثقافية ببيروت).
قلت: وقد ورد بألفاظ متقاربة في حديث نبوي شريف رواه الحاكم وأحمد في المسند ٢/١٧٠ ـ ٢٢٥، لكن ليس فيه تصريح بأنه قال ذلك عند الوفاة، بل جاء أوله: «إن نوحاً دعا ابنيه فقال: إني قاص عليكما الوصية...».

{٤} ذو القرنين

روي عن كعب الأحبار أنه قال لمعاوية: إن ذا القرنين لما حضرتْهُ الوفاةُ أوصىٰ أمَّه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن وتأذن لهنَّ فيه إلا من كانت ثكلى فلا تأكلُ منه شيئاً.

فلما فعلت ذلك لم تضعْ واحدةٌ منهنَّ يدها فيه، فقالت لهن: سبحان الله! كلكنَّ ثكلى؟.

فقلن: إي والله ما منّا إلا من أثكلت!.

فكان ذلك تسليةً لأمه(١).

* * *

{٥} لقمان الحكيم

في بعض الكتب أن لقمان الحكيم عندما نصح ابنه بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾﴾(٢) كانت هذه آخر كلمة تكلم بها، فانشقَّت مرارته من هيبتها، فمات(٣).

وذكر أنه لما حضرته الوفاة قال لابنه: يا بني، كثيراً ما أوصيتك إلى هذه الغاية، وإني أوصيك الآن بستِّ خصال، فيها علم الأولين والآخرين.

أولها: أن لا تشغل نفسك بالدنيا إلا بقدر ما بقي من عمرك.

والثاني: اعبد ربك بقدر حوائجك إليه.

والثالث: اعمل للآخرة بقدر ما تريد المقام بها.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٥٥٠ (تحقيق عبدالله التركي).

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٦.

(٣) روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقي ٣/٥٤ (طبعة استانبول، ١٣٠٦هـ).

والرابع: ليكن شغلك في فكاك رقبتك من النار ما لم تظهر لك النجاة منها.

والخامس: لتكن جراءتك على المعاصي بقدر صبرك على عذاب الله.

والسادس: إذا أردت أن تعصي الله اطلب مكاناً لا يراك الله وملائكته[1].

***

{٦} الرجل الثريُّ والمال

قال الإمام أحمد: حدثنا صفوان، عن يزيد بن ميسرة، قال:

كان رجل ممن مضى، جمع مالاً فأوعى، ثم أقبل على نفسه وهو في أهله، فقال: أنعم سنين. فأتاه ملك الموت، فقرع الباب في صورة مسكين، فخرجوا إليه، فقال: ادعوا لي صاحب الدار. فقالوا: يخرج سيدنا إلى مثلك؟! ثم مكث قليلاً، ثم عاد فقرع الدار، وصنع مثل ذلك، وقال: أخبروه أني ملك الموت. فلما سمع سيدهم قعد فزعاً وقال: ليِّنوا له الكلام. قالوا: ما تريد غير سيدنا، بارك الله فيك. قال: لا، فدخل عليه فقال: قم فأوص ما كنتَ موصياً؛ فإني قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصرخ أهله وبكوا، ثم قال: افتحوا الصناديق، وافتحوا أوعية المال. ففتحوها جميعاً، فأقبل على المال يلعنه ويسبه، يقول: لُعنتَ من مال؛ أنت الذي أنسيتني ربي، وشغلتني عن العمل لآخرتي، حتى بلغني أجلي؛ فتكلم المال فقال: لا تسبَّني، ألم تكن وضيعاً في أعين الناس فرفعتك؟ ألم يُرَ عليك من أثري؛ وكنت تحضرُ سددَ الملوكِ والسادةِ فتدخلُ ويحضرُ عباد الله الصالحون فلا يدخلون؟ ألم تكن تخطبُ بنات الملوكِ والسادةِ فتنكحُ ويخطب عباد الله الصالحون فلا ينكحون؟ ألم تكن تنفقني في سبيل الخبث فلا أتعاصى ولو أنفقتني في سبيل الله لم أتعاص عليك؟ وأنت ألوم مني؛

(١) لقمان الحكيم وحكمه/ محمد خير يوسف، ص١١٨.

إنما خلقت أنا وأنتم يا بني آدم من تراب، فمنطلقٌ ببرٍّ ومنطلق بإثم.. فهكذا يقول المال فاحذروا[1].

* * *

{٧} جبارٌ يموت

ذَكَرَ أحدُ العُلماء أنَّ جبَّاراً مِن الجَبَابِرَةِ مِن بَنِي إسْرائِيل جَالِسٌ في مَنْزلِهِ قد خَلاَ بِبَعْضِ أهْلِهِ، إذْ نظر إلى شَخْصٍ قد دَخَلَ مِن بَابِ بَيْتِهِ.

فثَارَ إليه فَزِعاً مُغْضَباً فَقَالَ لَهُ: مَنْ أنْتَ؟ ومَن أدْخَلَكَ عَليَّ دَارِي؟ فقال: أمَّا الذي أدْخَلنِي عَلَيْكَ الدار فَرَبُّهَا، وأمَّا أنَا فأنَا الذِي لا يَمْنَعُ مِنِّي الحِجَابُ، وَلا أسْتَأذِنُ على الملُوكِ، ولا أخَافُ صوْلَةَ السّلاطِين، وَلا يَمْتَنِعُ مِنِّي كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيد، ولا شيطانٌ مَرِيْد.

قال: فَسُقِطَ في يَدِ الجبار وارْتَعَدَ حَتَّى سَقَطَ علَى الأرض مُنْكَباً على وجْهِهِ، ثم رَفَعَ رَأسَهُ إليه مُتحَيِّراً مُتَذَلِّلاً فقال لَهُ: أنْتَ إذاً مَلَكُ الموتِ. قال: أنا هُو. قال: فَهَلْ أنْتَ مُمْهِلِي حَتَّى آخُذَ عَهْداً؟.

قال: هَيْهَاتَ! انْقَطَعَتْ مُدَّتُكَ وانْقَضَتْ أنْفَاسُكَ، ونَفِدَتْ سَاعَاتُكَ، فَلَيْسَ إلى تَأْخِيرِكَ سَبِيل. قال: فَإلَى أيْنَ تَذْهَبُ بي؟ قال: إلى عَمَلِكَ الذي قَدَّمْتَهُ، وَإلى بَيْتِكَ الذي مَهَّدْتَهُ.

قال: فإنِّي لَمْ أُقَدِّمْ عَمَلاً صَالِحاً، ولم أُمهِّدْ حَسَناً. قال: فإلى ﴿لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ فَسَقَطَ مَغْشِياً عليه.

(فيا لَهَا مِن حَسْرةٍ، ويَا لَهَا مِن نَدَامَة، ويَا لَهَا مِن عَثْرةٍ لا تُقَال)[2].

* * *

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم بتحقيق محمد عثمان الخشت ص٣١٠ - ٣١١.

(٢) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار/ عبدالعزيز المحمد السلمان، ص٢٢٦.

{٨} عابدٌ.. وملك

قال عبدالواحد بن زيد: كان في بني إسرائيل عابدٌ لم يكن له إلا جبَّةُ صوف وقربةٌ يستقي فيها الماء للناس، فلما حضره الموتُ قال لأصحابه: إني لم أَدَعْ من الدنيا شيئاً إلا جبَّتي وهذه القربة، ما أُطيقُ حملها يوم القيامة، فإذا متُّ فادفعوها إلى فلانٍ الملك ليحملها مع ما تحمَّل من دنياه.

فلما مات العابد أخبروا الملك بما قاله، فقال الملك: هذا العابدُ عجز عن حمل جبَّةٍ وقربة، وأنا تحمَّلتُ من الدنيا ما تحمَّلته؟.

فأخذ الجبَّة فلبسها، وأخذ القربة، وخرج من ملكه، فجعل يستقي للناس الماء[١].

* * *

{٩} الطبيب اليوناني

قيل لجالينوس حين نهكته العلة: أما تتعالج؟

قال: إذا كان الداءُ من السماءِ بطلَ الدواء، وإذا نزل قدرُ الربِّ بطلَ حذرُ المربوب[٢].

* * *

{١٠} حائر.. لم يطمئن قلبه بالإيمان

قيل لرجل من الماضين عند موته: كيف وجدت الأمر؟

قال: دخلتُ الدنيا جاهلاً، وعشت فيها متحيِّراً، وخرجتُ منها كارهاً[٣].

(١) كتاب التوابين ١/٥٠.

(٢) المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري/ انتخبه ياسين السواس، ص٥٤٣. ووفاته نحو سنة ٢٠٠م.

(٣) تهذيب خالصة الحقائق ٢/٥٦٨.

{١١} لا زاد.. ولا مؤنس

قيل لآزاذ مَرْد بن الهربذ حين احتُضر: ما حالُك؟ فقال: ما حالُ من يريدُ سفراً بعيداً بلا زاد، وينزل حفرة من الأرض موحشةً بلا مؤنس، ويقدم على ملك جبّارٍ قد قدَّم إليه العذر بلا حجة(١)؟.

* * *

{١٢} وصية جاهلية!

نهد بن زيد جدٌّ جاهلي، لما حضرته الوفاة جمع ولده وقال: يا بنيَّ، أوصيكم بالناسِ شرّاً، كلِّموهم نَزْراً، وانظروا إليهم شَزْراً، ولا تقبلوا لهم عذراً، قصّروا الأعنَّة، واشحذوا الأسنَّة؛ تأكلوا القريب، ويرهبكم البعيد(٢).

وكذلك جمع دويد بن نهد بنيه عند الموت وقال:

أوصيكم بالناس شرّاً، لا تقبلوا لهم مَعْذِرةً ولا تُقِيلُوهم عَثْرَةً، أوصيكم بالناس شراً، طَعْناً وضَرْباً، قَصّرُوا الأَعِنَّةَ، وأَشْرِعُوا الأَسِنَّة، وارعَوْا الكلأ وإن كان على الصَّفَا، وما احتجتم إليه فصونوه، وما استَغْنَيْتُم عنه فأَفْسِدُوه على من سِوَاكم، فإن غِشّ الناس يدعو إلى سُوءِ الظن، وسوءَ الظن يدعو إلى الاحتراس(٣).

* * *

{١٣} ظلمات الجاهلية

النعمان بن المنذر من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية وأشدهم بأساً، صاحب يومي البؤس والنعيم!.

---

(١) عيون الأخبار ٣١٠/٢، بهجة المجالس ٢٦٨/٣.

(٢) عيون الأخبار ٦١/٢، وورد الاسم فيه «سعد بن زيد»، وهو خطأ، والمثبت من المصدر التالي.

(٣) المعمرون لأبي حاتم السجستاني ص٢٦.

كان يقتل أولَ من رأىٰ في يوم بؤسه؛ خرج في يوم بؤسه فلقي عبيدَ بنَ الأبرَص[1] فقال له: هلاّ كان المذبوح غيرك يا عَبيد! فقال: «أتتْكَ بحائنٍ رِجلاه!» وأرسلَه مثَلاً؛ فقال له: أَنشِدْنا يا عَبيد؛ فقال: «حالَ الجريضُ دُونَ القَريض؛ وبلغ الحِزام الطُّبْيَين» وأرسلَهما مثلاً؛ فقال له: أنشدني؛ فقال: «المنايا على الحَوايا!» وأرسله مثلاً؛ فقال بعض القوم: أنشِدِ الملكَ، هبلَتْك أمُك! فقال: «وما قولُ قائل مقتول؟» وأرسلَه مثلاً؛ وقال آخر: ما أشدّ جزَعك بالموت! فقال: «لا يرحلنْ رحلَك مَن ليس معكَ!» وأرسلَه مثلاً؛ فقال الملك: قد أمللْتني فأرِحني قبل أن آمُرَ بك! فقال عبيد: «منْ عزَّ بَزّ»، وأرسلَه مثلاً؛ فقال الملك: أَنشِدْنا قولَك:

أقــــفـــــرَ مــــــن أهــــلِــــهِ مَـــلـــحـــوبُ

فأنشدَه:

أقـــفـــر مـــن أهـــلـــهِ عـــبـــيـــدُ   فـالـيـومَ لا يُـبـدى ولا يُـعـيـدُ

فقال له الملك: ويْحك يا عَبيد! أنشِدني قبلَ أن أذبحك! فقال عبيد: واللّهِ إنْ مُتّ ما ضرَّني! فقال له: لا بد من الموت، فاختر: إن شئت من الأكحَل، وإن شئت من الأبْجل، وإن شئت من الوريد. فقال عبيد: ثلاثُ خصالٍ كَسحَاباتِ عاد، واردُها شرُّ ورَّاد، وحادِيها شرُّ حاد، ومعادُها شرُّ معاد، ولا خير فيها لمرتاد، فإن كنتَ لا بدَّ قاتلي فاسقني الخمر، حتّى إذا ذهَلتْ منها ذواهِلي، وماتت لها مفاصلي فشأنَك وما تريد. ففعل به ما أراد، فلما طابت نفسُه ودعا به ليقتله أنشأ يقول:

وخيَّرني ذو البؤسِ في يوم بؤسِه   خِصالاً أرى في كلِّها الموتَ قد برَقْ
كما خُيِّرتْ عادٌ من الدهر مَرّة   سحائبَ ما فيها لذي خِيرة أَنَقْ
سحائبَ ريح لم توكَّل ببلدة   فتتركها إلاّ كما ليلةِ الطلَقْ[2]

---

(١) شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها، من مضر، عاصر امرأ القيس وعمِّر طويلاً حتى قتله المنذر نحو ٢٥ق.هـ.

(٢) خزانة الأدب للبغدادي بتحقيق عبدالسلام هارون ٢/٢١٨ ـ ٢١٩.

{١٤} جدٌّ جاهلي

فهر بن مالك بن النضر من كنانة، كان رئيس الناس بمكة.

يروى أنه قال لابنه غالب حين حضرته الوفاة: أي بني، إن في الحذر انغلاق النفس، وإنما الجزع قبل المصائب، فإذا وقعت مصيبةٌ برّدْ حرَّها، وإنما القلق في غليانها، فإذا قامت فبرّدْ حرَّ مصيبتك بما ترى من وقع المنيّةِ أمامك وخلفك، وعن يمينك وعن شمالك، وما ترى في آثارها من محق الحياة، ثم اقتصر على قليلك وإن قلَّتْ منفعته، فقليلُ ما في يدك أغنىٰ لك من كثيرٍ مما أخلق وجهك إن صار إليك[١].

***

{١٥} وصية حكيم جاهلي

عاش القلمّس، واسمه أمية بن عوف، دهراً طويلاً، وهو من حكماء العرب، وكان ممن ينسأ الشهور ليحلَّ القتال في الأشهر الحرم! ويخطب بفناء الكعبة، وكانت العرب لا تصدر عن مواسمها حتى يعظها ويوصيها. ولما حضرته الوفاة حضره أشراف قومه من كنانة، ومات بمكة، فقالوا: قُلْ نَسْمَعْ، ومُرْنا نُطِعْ، وأَوْصِنَا نَقْبَلْ، وزَوِّدْنا منك زاداً نَذْكُرك.

فقال: أوصيكم بأحسابكم فإنها مَقْدَم وافِدكم، وشرفُكم في محافِلكم، وكَفاف وجوهِكم، وغِنَى مُعْدِمكم؛ وأوصيكم بالسائلِ إن كان منكم أن يَسأل غيركم؛ وإن كان من سِواكم وتيمّمكم فلا تَخُطُنّه ما رجا فيكم، واستوصوا بذوي أسنانكم خيراً، أَجْمِلُوا مخاطبتَهم، وقدّموهم أمامكم، وزَيِّنوا بهم مجالسَكم.

وأوصيكم ببيوت الشرف فيكم، أقيموا لهم شرفَهم، ولا تَنْزِعوا

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٣٣.

الرئاسة منهم حتى لا تجدوا لها منهم أَهْلاً، وأوصيكم بالحرب، إن ظَفِرتم بقوم فابْقَوا فيهم، فإنه حَسَبٌ لكم، ويدٌ عند عدوِّكم، فإنّ من ظَفِرتم به فهو ظَافِرٌ بكم لا بُدّ، وهو عامل فيكم بما عملتم به فيه، فلا تَقْتُلُنّ أسيراً فإنه ذَحْلٌ عندكم ومصيبة فيكم، وإنما هو مَالٌ من مالكم، وإن الأُسراء تجارة من تجارات العرب فلا تسألُنّ أَسِيركم فوق ما عنده فيموت في أيديكم، فلا يَسْتَأْسِرُ بعده أحدٌ بكم، وأكثروا العَتَاقَةَ في أُسَراء العرب، ودعوا العرب ترجوكم وتَسْتَبْقِيكم.

وأوصيكم بالضيف، فإنّ كُلاً إذا قال لم يسمع منه حتى يقول الضيف، فلا يخرُجَنّ من عندكم وهو يستطيع أن يقول فيكم، وأوصيكم بالجيران فأكرموهم، فلا تغشَوا منازلهم، ولْيَصْحَبْهم ذَوُو أَسْنانكم، وامنعوا فتيانكم صحابتهم.

وأوصيكم بالخُفَرَاء خيراً فلا تُغَرِّموهم في غُرْمِكم، واغرَموا في غُرْمهم فإنّهم عُدّة لكم، يُعينونكم ما داموا فيكم، وينقصونكم إذا فارقوكم ويعينون عليكم إذا خرجوا من عندكم، وأوصيكم بِأَيَامَاكم خيراً، شُدّوا حُجُبَهُن، وأنكحوهن أكفاءهن، وأيسروا الصداق فيما بينكم، تَنْفُق أَيَامَاكم ويكثر نسلكم، فإن نكحتم في العرب فاختاروا لكم ذواتَ العفاف والحسان أَخْلاقاً، فإنكم لما يكون منهم أحمدُ من غيركم، وإنهم راؤون فيمن بقي من نسائكم مثل ما رأوا فيمن جاءهم منهنّ، وإذا نكحتم الغريبة (يعني المرأة من غيركم) فأَغْلوا صَداقها، وتزوّجوا في أشراف القوم، ثم أكرموا مثوى صاحبتهم ما كانت فيكم، ولا تحرموها إذا انصرفت إلى قومها مَالَها، واصرفوها على أحسن حالاتها، لا تَنقصوها من شيء يكون لها، فإن كريمة القوم إذا رجعت إليهم قليلاً متاعُها ظاهرةً حاجَتُها، غير راجعة فيكم غيرُها.

وأوصيكم بالصِّلَة، فإنها تُديم الألفة وتَسُرّ الأسرة، وأحذِّركم القطيعة فإنها تورث الضغينة، وتُفَرّق الجماعة، وإياكم والعجلة فإنها رأس السَّفَه[1].

* * *

(١) المعمرون لأبي حاتم السجستاني ص١١١ ـ ١١٢.

{١٦} قاضي العرب في الجاهلية

وكيع بن سلمة الإيادي من قضاة العرب في الجاهلية، ولي أمر البيت الحرام بعد جرهم...

ذكروا أنه لما حضرته الوفاة جمع قومه فقال: اسمعوا وصيَّتي: الكلام كلمتان، والأمر بعد البيان، من رشد فاتَّبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكلُّ شاة معلَّقةٌ برجلها[١].

* * *

{١٧} امرؤ القيس

كانت حكومة فارس ساخطة على آباء امرىء القيس، فأوعزت إلى المنذر (ملك العراق) بطلبه، فطلبه، فابتعد، وتفرّق عنه أنصاره، فرأى أن يستعين بالروم على الفرس، فمضى إلى قيصر، فولاّه إمرة فلسطين، فرحل يريدها، فلما كان بأنقرة ظهرت في جسمه قروح، فأقام إلى أن مات فيها (٨٠ق.هـ).

وذكر الكلبي أن آخر شيء تكلم به حين حضرته الوفاة:

وطعنةٍ مُسْحَنْفِرةْ وجفنةٍ مُثْعَنْجِرَةْ
تبقى غداً بأنقِرةْ

والمسحنفر: الواسع. والمُثعنجر: السائل المنسكب[٢].

وفي مصدر آخر أنه حين احتضر كان عند قبر امرأة من بنات الملوك في سفح جبل يقال له «عسيب»، وأُخبر بقصتها فقال:

(١) سمط النجوم العوالي ٢٢٥/١، أخبار مكة للفاكهي ١٤٥/٥.
(٢) خزانة الأدب للبغدادي ٣٣٣/١ ـ ٣٣٤ (بتحقيق عبدالسلام هارون)، الأعلام ١١/٢، ١٢.

أجارتنا إنا غريبان هاهنا ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

ومات فدُفن إلى جنب تلك المرأة(١).

* * *

{١٨} على دين شعيب؟

جمع الحارث المَذْحِجي بنيه حين حضرته الوفاة وقال لهم: يا بني قد أتت عليَّ مائة وستون سنة، ما صافحت يدي يمين غادر، ولا أبحثُ لصديق بسرّ، وإني لعلى دين شعيب النبي، وما عليه أحد من العرب غيري، وغير أسد بن خزيمة وتميم بن مرَّة، فاحفظوا وصيتي، وموتوا على شريعتي: إلهكم فاتَّقوه يكفكم المهمَّ من أموركم، ويصلح لكم أعمالكم، وإياكم ومعصيته حتى لا يحلَّ بكم الدمار ويوحش منكم الديار.

يا بني، كونوا جميعاً ولا تفرَّقوا فتكونوا شيعاً، وإن موتاً في عزٍّ خير من حياةٍ في ذلٍّ وعجز، وكلُّ ما هو كائن كائن، وكل جمع إلى تباين. والدهر ضربان: ضرب رخاء، وضرب بلاء. والناس رجلان: فرجلٌ معك، ورجل عليك، والقطيعة تورث الهم، وانتهاك الحرمة يزيل النعمة، وعقوق الوالدين يعقب النكد ويمحق العدو.

يا بني: إني أكلت مع أقوام وشربت، فذهبوا، وعبرت وكأني بهم قد لحقت(٢).

* * *

{١٩} حاتم الطائي

روى الصحابي الجليل عدي بن حاتم عن أبيه الجواد السخي

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٤٤٩/٣ (برمجيات التراث).

(٢) الأنابيش/ عبدالرحمن الضبع ـ القاهرة: المؤلف، ١٣٧٤هـ، ١٢٧/٣.

المعروف حاتم الطائي، أنه شهده يكيدُ بنفسه[1]، فقال له: أي بني، إني أعهدُ من نفسي ثلاثَ خلال: والله ما خاتلتُ[2] جارةً لريبةٍ قط، ولا اؤتمنتُ على أمانةٍ إلا أدَيتُها، ولا أُتيَ أحدٌ قطُّ من قبلي بسوء[3].

***

{٢٠} لا بدّ من الموت

الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم الأسدي من أهل نجد، قُتل في غزوةٍ أغار بها على بني صعصعة بن معاوية، رماه فتى من بني وائلة بسهم أصاب ثندؤته، فقال وهو يجود بنفسه:

فمن يكُ سائلاً عن بيت بشرٍ ... فإن له بجنب الرِّدْهِ[4] بابا

ثوى في مضجعٍ لا بدَّ منه ... كفى بالموتِ نأياً واغترابا[5]

***

{٢١} ذو الأصبع العدواني

ذو الأصبع حُرثان بن الحارث العدواني شاعر حكيم شجاع جاهلي، عاش طويلاً حتى عُدَّ في المعمَّرين، مات نحو (٢٢ق.هـ).

ولمّا احتضر دعا ابنه أسيداً فقال له: يا بني، إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته، فاحفظ عني:

---

(١) كاد بنفسه: قاسىٰ المشقّة عند نزعها.

(٢) خاتل: خادع وراوغ.

(٣) مراقي الجنان لابن عبدالهادي رقم ١٣، البداية والنهاية ٢٦٣/٣. ووفاة حاتم سنة ٤٦ق.هـ.

(٤) موضع في بلاد بني قيس دفن فيه الشاعر. وكانت وفاته نحو ٢٢ق.هـ.

(٥) معجم البلدان ٤١/٣، الأعلام ٥٤/٢.

أَلِنْ جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسطْ لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسوِّدوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودّتك صغارهم، واسمح بمالك، واحمِ حريمك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرعَ النهضة في الصريخ، فإن أجلاً لا يعدوك، وصُن وجهك عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتم سؤددك، ثم أنشأ يقول:

أأسـيـد إنْ مـالاً مـلـكـتَ ... فـسـرْ بـه سـيـراً جـمـيـلا
آخ الـكـرام إن اسـتـطـعـت ... إلـى إخـائـهـم سـبـيـلا
واشـرب بـكـأسـهـم وإن ... شـربـوا بـه الـسـمَّ الـثـمـيـلا
أهـنِ الـلـئـام ولا تـكـن ... لإخـائـهـم جـمـلاً ذلـولا
إن الـكـرام إذا تـؤاخـيـهـم ... وجـدت لـهـم فـضـولا
ودع الـذي يـعـد الـعـشـيـرة ... أن يـسـيـل ولـن يـسـيـلا
أبـنـيَّ إن الـمـال لا ... يـبـكـي إذا فـقـد الـبـخـيـلا[(1)]

* * *

{٢٢} رجل من اليهود

قال ابنُ إسحاقَ: حدثني عاصمُ بنُ عُمَرَ بنِ قتادةَ، عن شيخٍ من بني قُرَيْظَةَ، قال لي: هل تَدْرِي عَمَّ كان إسلامُ ثَعْلَبَةَ بنِ سَعْيَةَ، وأُسَيْدِ بنِ سَعْيَةَ، وأَسَدِ بنِ عُبَيْدِ، نَفَرٍ من بني هَدْلٍ، إخوةِ بَنِي قُرَيْظَةَ، كانوا معهم في جاهِليَّتِهم، ثم كانوا سادتَهم في الإسلام؟ قال: قلتُ: لا. قال: فإنَّ رجلاً من اليهودِ، مِن أرضِ الشام يقالُ له: ابنُ الهَيِّبَانِ. قَدِمَ علينا قبلَ الإسْلام بسِنينَ، فَحَلَّ بينَ أَظْهُرِنا، لا واللَّهِ ما رَأَيْنا رجلاً قطُّ لا يُصَلِّي الخمسَ أفْضَلَ منه، فأقام عندَنا، فكنا إذا قَحط عنا المطرُ، قلنا له: اخْرُجْ يا ابنَ الهَيِّبَانِ فاسْتَسْقِ لنا. فيقولُ: لا واللَّهِ، حتى تُقَدِّمُوا بينَ يَدَيْ مَخْرَجِكُم

(١) الأغاني للأصفهاني ٩٥/٣ (قرص برمجيات التراث بعمّان)، وجمهرة خطب العرب ١٢٠/١.

صَدَقةً. فنقولُ له: كم؟ فيقولُ: صاعاً مِن تمرٍ، أو مُدَّيْنِ مِن شَعيرٍ. قال: فنُخرِجُها، ثم يَخْرُجُ بنا إلى ظاهِرِ حَرَّتِنَا، فيَسْتَسقِي لنا، فواللّهِ ما يَبْرَحُ مجلسَه حتى يَمُرَّ السحابُ، ونُسْقَى، قد فَعَل ذلك غيرَ مرةٍ، ولا مرتين، ولا ثلاثٍ.

قال: ثم حضَرَتْه الوفاةُ عندَنا، فَلمَّا عرَف أنَّه ميتٌ قال: يا معشَرَ يهودَ، ما تَرَوْنه أَخْرَجَني مِن أرضِ الخَمرِ والخَميرِ إلى أرضِ البُؤْسِ والجوعِ؟ قال: قلنا: أنت أعلمُ. قال: فإنِّي إنَّما قَدِمْتُ هذه البلدةَ، أتَوَكَّفُ خروجَ نبيٍّ، قد أظلَّ زمانُه، هذه البلدةُ مُهَاجَرُه، فكنتُ أَرْجُو أنْ يُبْعَثَ فَأَتَّبِعَه، وقد أَظَلَّكم زمانُه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشرَ يهودَ، فإنه يُبْعَثُ بسَفْكِ الدماءِ، وسَبْيِ الذَّرَارِيِّ مِمَّن خالَفَه، فلا يَمْنَعنْكم ذلك منه.

فلما بُعِثَ رسولُ اللّهِ ﷺ وحاصَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ، قال هؤلاء الفتيةُ ـ وكانوا شَبَاباً أَحْدَاثاً ـ: يا بني قُرَيْظَةَ، واللّهِ إنه لَلنَّبِيُّ الذي كان عَهِدَ إليكم فيه ابنُ الهَيِّبَانِ. قالوا: ليس به. قالوا: بلى واللّهِ، إنَّه لهو بصِفَتِهِ. فنَزَلوا فأَسْلَموا، فأَحْرَزُوا دماءَهم وأموالَهم وأَهْلِيهم[1].

* * *

{٢٣} زهير بن أبي سلمى

شاعر جاهلي حكيم معروف، مات قبل الهجرة بثلاثة عشر عاماً. ذكر أبو زيد عمر بن شبّة أن مما يُروى من خبره أنه كان نظاراً متوقياً، وأنه رأى في منامه آتياً أتاه فحمله إلى السماء حتى كان يمسُّها بيده، ثم تركه فهوى إلى الأرض.

فلما احتُضر قصَّ رؤياه على ولده وقال: إني لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدي شيء، فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه.

فلما بُعث النبي ﷺ خرج إليه بُجير بن زهير ثم أسلم، ثم ذكر خبر أخيه كعب وإسلامه[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣/٥٠٥ ـ ٥٠٦.

(٢) الأغاني للأصفهاني ١٧/٩٣.

{٢٤} عقول صنمية!

كان أفلح بن النضر السلمي سادن «العُزّى»، فلما حضرته الوفاة دخل عليه أبو لهب يعوده وهو حزين، فقال له: ما لي أراك حزيناً؟ قال: أخاف أن تضيع العزّى من بعدي. قال أبو لهب: فلا تحزن، فأنا أقوم عليها بعدك!.

فجعل أبو لهب يقول لكل من لقي: إن تظهر العزّى كنتُ قد اتخذتُ عندها يداً بقيامي عليها، وإن يظهر محمد على العزّى، وما أراه يظهر، فابنُ أخي... ![1].

(١) أخبار مكة للأزرقي ١٢٨/١، تاريخ مدينة دمشق ٢٣٣/١٦.

القرن الأول

{٢٥} وصيته شرّ

كان الوليد بن المغيرة من زعماء قريش، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته، وهو الذي قال عن رسول الله ﷺ: كاهن، وشاعر، ومجنون! هلك بعد الهجرة بثلاثة شهور.

قال ابن الأَعرابي: كان الوليدُ بن المُغِيرةُ من المُسْتَهْزِئِينَ، ولما حَضَرَتْهُ الوَفاةُ، قال بنوه: أَلا توصي؟ فقال: دَمِي فِي خُزَاعة، وعُقْري[1] عند أَبي أُزَيهِر، ونَهْبِي في جَذِيمة بن عامر بن عبد مناف بن كنانة.

قال له بنوه: والله ما نعلم رجلاً من العرب أوصى به بشرٍّ مما أوصانا به عند موته![2].

* * *

{٢٦} هذه الحياة الطويلة!

في غزوة بدر، عندما دنا المشركون، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض»**.

---

(١) العقر: دية الفرج المغصوب.

(٢) ديوان حسان بن ثابت (بتحقيق سيد حنفي حسنين) ص٣٥٢.

فقال عمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله، جنَّةٌ عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بخ بخ!.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ما يَحمِلُكَ علَى قَولِكَ بخ بخ؟».

قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءةَ أن أكونَ مَن أهلها.

قال: «فإنك من أهلها».

فأخرج تمراتٍ من قَرَنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكلَ تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة!.

فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل[1].

* * *

{٢٧} يجد ريح الجنة

الصحابي الجليل سعد بن الربيع الخزرجي كان أحد النقباء ليلة العقبة، وهو الذي آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبدالرحمن بن عوف، فعزم على أن يُعطي عبدالرحمن شطر ماله، ويطلِّق إحدى زوجتيه ليتزوج بها، فامتنع عبدالرحمن من ذلك، ودعا له. وشهد بدراً، وفي معركة أحد حدَّث خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: بعثني النبيُّ ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «إنْ رأيتَهُ فأقْرِهِ مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك».

فطفت بين القتلى، فأصبْتهُ وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة، فأخبرته، فقال: على رسول الله السلام وعليك، قل له: يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى رسولِ الله ﷺ وفيكم شَفْر[2] يطرف.

قال: وفاضت نفسه ـ رضي الله عنه ـ[3].

* * *

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد ٤٤/٦.

(٢) شفر العين: ما نبت عليه الشعر.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣١٩/١.

{٢٨} خبيب.. وما أدراك ما خبيب!

الصحابي الجليل خبيب بن عدي الأوسي، الذي شهد بدراً مع رسول الله ﷺ، وقتل الحارث بن عامر... قصته معروفة عندما أسره المشركون، وأجمعوا على صلبه، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه في الحل، وصلى ركعتين، وقال لهم: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزعٌ لزدت، اللّهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تُبق منهم أحداً.

ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللّهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلِّغه الغداة ما يُفعل بنا.

وقال ـ رضي الله عنه ـ حين بلغه أن القوم قد أجمعوا لصلبه:

لقد جَمَّعَ الأحزابُ حَولي وألَّبوا ... قبائلهم واستجْمعوا كُلَّ مَجْمَعِ
وكُلُّهم مُبدي العداوة جاهدٌ ... عليّ لأني في وثاقٍ مضيَّع
وقد جَمَّعُوا أبناءَهم ونساءَهم ... وقُرِّبتُ من جِذْعٍ طويلٍ مُمَنَّع
إلى اللّهِ أشكو غُربتي ثم كُربتي ... وما أرصدَ الأحزابُ لي عند مَصْرعي
فذا العرشِ صبِّرني على ما يرادُ بي ... فقد بضَّعُوا لحمي وقد ياس مطمعي(١)
وذلك في ذاتِ الإلهِ، وإن يشأ ... يباركْ على أوصال شلوٍ ممزَّع(٢)
وقد خيَّروني الكفر والموتُ دونه ... وقد هملتْ عيناي من غير مجْزَعِ
وما بي حِذارُ الموت، إنّي لميِّتٌ ... ولكنْ حِذاري جحمُ نارٍ مُلَفَّعِ(٣)
ولستُ أبالي حينَ أُقتَلُ مُسْلماً ... عَلَىٰ أيِّ جَنْبٍ كانَ في الله مَصْرَعي
ولستُ بمبدٍ للعدوِّ تخشُّعاً ... ولا جَزَعاً، إني إلى الله مَرجعي(٤)

---

(١) بضَّعوا: قطَّعوا. ياس: لغة في يئس.
(٢) شلو ممزَّع: جسد مقطَّع.
(٣) حجم: ملتهب متّقد. ملفَّع: مشتمل.
(٤) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١٦٩/٢، وابن الأثير في أسد الغابة ١٠٣/٢ ـ ٧٣/٣، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٤٦٠/١، وأورد الإمام البخاري بيتين منه في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر ٢٨/٤.

{٢٩} الموت حق فلمَ الخوف؟

الصحابي الجليل عاصم بن ثابت بن قيس شهد بدراً وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد وبايعه على الموت، وكان من الرماة المذكورين. وهو الذي أبى يوم الرجيع أن يستسلم للمشركين وقال: لا أقبل جوار مشرك، فجعل يقاتلهم حتى قُتل، وهو يقول:

ما علَّتي وأنا جَلْدٌ نابلُ والقوسُ فيها وتَرٌ عُنابلُ[١]
إنْ لم أقاتلهم فأمي هابل الموت حقٌّ والحياةُ باطلُ[٢]
وكلُّ ما حمَّ الإلهُ نازل بالمرءِ والمرءُ إليه آئلُ[٣][٤]

* * *

{٣٠} أبو بصير ـ رضي الله عنه ـ

أبو بصير عتبة بن أسيد صحابي جليل وبطل شجاع يعرفه المسلمون في حقب تاريخهم المختلفة، حيث اجتمع عنده قريب من سبعين، فجعلوا لا يظفرون بأحد من قريش إلا قتلوه، ولا بعير لهم إلا اقتطعوها... بعد صلح الحديبية المشهور.. فكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير وأصحابه إليه، فلا حاجة لنا بهم. فكتب النبي ﷺ إلى أبي بصير أن يُقدم عليه مع أصحابه، فجاءه الكتاب وهو يموت، فجعل يقرأه ويقبِّله ويضعه على عينيه، فمات وهو في يديه، فغسله أصحابه وصلوا عليه ودفنوه هناك وبنوا عند قبره مسجداً، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه، فترحم عليه، وكان ذلك سنة ست للهجرة[٥].

---

(١) الجلد: الشديد. النابل: صاحب النَّبل. العنابل: الغليظ الشديد.
(٢) هابل: ثاكل.
(٣) حمَّ الإله الأمر: قدَّره. آئل: صائر وراجع.
(٤) صفة الصفوة ١/٤٦١. ووقعة الرجيع كانت سنة ٤هـ.
(٥) المنتظم لابن الجوزي ٣/٢٩٢.

{٣١} حكيم العرب

حكيم العرب في الجاهلية أكثم بن صيفي، أدرك الإسلام وقصد المدينة في مائة من قومه يريدون الإسلام فمات في الطريق. . . وهو المعنيُّ بالآية الكريمة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

ولما حضرته الوفاة أوصى فقال: أوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإنها لا يبلى عليها أصل، ولا يهيضُ عليها فرع، وإياكم ونكاح الحمقى، واعلموا أن سوء جهل الغني يورث سرحاً، وأن سوء جهل الفقير يضعُ الشرف، وأن العدم عدم العقل لا عدم المال. واعلموا أنه لن يهلك امرؤ عرف قدره، واعلموا أن مقتل الرجل بين لحييه، وأن قول الحق لم يترك لي صديقاً[١].

* * *

{٣٢} زيد الخير

وفد زيد الخيل في وفد طيِّىء على النبيِّ ﷺ سنة ٩هـ، فأسلم، وسُرَّ به النبي ﷺ وسماه «زيد الخير». وكان بطلاً، طويلاً جسيماً، من أجمل الناس، وشاعراً محسناً، وخطيباً لسناً، موصوفاً بالكرم.

وقد مكث بالمدينة سبعة أيام، وأصابته حمّى شديدة، فخرج عائداً إلى نجد، فنزل على ماءٍ يُقَال له: «فردة» فنزل به الموت، وقال لما حضرته الوفاة:

أمطّلعٌ صحبيَ المشارقَ غدوةً ... وأُتركُ في بيتٍ بفروة منجدِ؟
سقى الله ما بين القفيل فطابةٍ ... فبرقة إرمام فما حول منشدِ
هنالك لو أني مرضتُ لعادني ... عوائدُ من لم يشفَ منهن يجهدِ[٢]

* * *

(١) المصدر السابق ٢/٣٧١. وكانت وفاته ٩هـ.

(٢) معجم البلدان ٥/٢١٠، معجم ما استعجم ١/١٤١.

{٣٣} سالم.. ومصعب

الصحابي الجليل سالم مولى أبي حذيفة كان يؤمُّ المهاجرين من مكة، حتى قدم المدينة، لأنه كان أقرأهم. استشهد باليمامة سنة ١٢هـ. أخذ اللواء بيمينه فقطعت، ثم تناولها بشماله فقطعت، ثم اعتنق اللواء وجعل يقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[١] إلى أن قتل[٢].

وكذا كان مصعب بن عمير - رضي الله عنه - يوم أحد، حتى استشهد[٣].

* * *

{٣٤} الخليفة والجهاد

كان آخر ما قاله أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - خليفة رسول الله ﷺ قبل وفاته (١٣هـ)، كما روى الإمام الطبري في تاريخه[٤]: عليَّ بعمر.

فجاءه، فقال له: اسمعْ يا عمر ما أقولُ لك ثم اعملْ به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا متُّ فلا تمسينَّ حتى تندبَ الناس مع المثنى، ولا تشغلنَّكم مصيبةٌ - وإن عظمت - عن أمرِ دينكم ووصيَّةِ ربِّكم.

والمثنى هو ابن حارثة الشيباني، من الصحابة الفاتحين الكبار، غزا بلاد فارس في أيام أبي بكر، ولما ولي عمر أمدَّه بالجيش مرتين عند فتح سواد العراق...

* * *

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

(٢) صفة الصفوة ٣٨٤/١.

(٣) المصدر السابق ٣٩٢/١.

(٤) ٤١٤/٣.

{٣٥} حلو.. ومرّ

أبو مالك الأشعري صحابي جليل اختلف في اسمه، روى ابن عساكر في تاريخه أنه لما حضرته الوفاة قال: يا معشر الأشعريين، ليبلغ الشاهد منكم الغائب، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«حلوةُ الدنيا مرّةُ الآخرة، ومُرّةُ الدنيا حلوةُ الآخرة»(١).

* * *

{٣٦} لا تبكوا علي

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، أرضعته حليمة السعدية..

لما حضرته الوفاة قال لأهله: لا تبكوا علي، فإني لم أتنطق بخطيئة(٢) منذ أسلمت(٣)!.

* * *

{٣٧} أم المؤمنين زينب

كانت أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أولى زوجات الرسول ﷺ لحوقاً به.

وقد روى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أنها أوصت أن تُحمل على سرير رسول الله ﷺ ويُجعل عليها نعش.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٩٧/٦٧. ووفاته في عصر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ. والحديث صحيح. صحيح الجامع الصغير (٣١٥٥).

(٢) أي لم يرتكب فاحشة.

(٣) صفة الصفوة ٥٢٠/١. ووفاته نحو ٢٠هـ.

كما روى القاسم بن محمد أنها قالت حين حضرتها الوفاة: إني قد أعددتُ كفني، ولعلَّ عمر سيبعثُ إليَّ بكفن، فإن بعث بكفن فتصدَّقوا بأحدهما، إن استطعتم إذا دلَّيتموني أن تصدَّقوا بحقوي فافعلوا[1].

* * *

{٣٨} صحابي أمير حليم

قيس بن عاصم المنقري السعدي التميمي اشتهر وساد في الجاهلية، وهو ممن حرَّم على نفسه الخمر فيها، أسلم، ولما رآه النبي ﷺ قال: «**هذا سيِّد أهل الوبر**». نزل البصرة في أواخر أيامه، وكان له (٣٣) ولداً، قال لهم في مرض موته:

يا بَنيَّ سوِّدوا عليكم أكبركم، فإن القوم إذا سوَّدوا عليهم أكبرهم خلَّفوا أباهم، وإذا سوَّدوا أصغرهم أزرى بهم عند أكفائهم. وعليكم بالمال واصطناعه، فإنه مأبهة للكريم، ويُستغنى به عن اللئيم. وإياكم ومسألة الناس، فإنها من آخر مكسبة الرجل. ولا تنوحوا عليَّ، فإن رسول الله ﷺ لم يُنَحْ عليه. ولا تدفنوني حيث تشعرُ بي بكر بن وائل، فإني كنت أغاولهم في الجاهلية[2].

وكانت وفاته نحو سنة ٢٠هـ[3].

* * *

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٩/٨، سير أعلام النبلاء ٢١٧/٢، ووفاتها سنة ٢٠هـ ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) غاولهم: بادرهم بالغارة والشرّ.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٦/٧، المستدرك للحاكم ٦١١/٣، الأعلام للزركلي ٥٧/٦، المنتظم لابن الجوزي ٢٢١/٥.

{٣٩} سيف الله

قال خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ وهو القائد البطل، والمجاهد الصبور، الذي قاتل بشجاعة وبسالة نادرة، وخطَّط وهاجم حتى أرعب العدو ودمدم أركانه. . .

قال: لقد طلبتُ القتل من مظانّه فلم يُقَدَّرْ لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملٍ أرجى عندي بعد لا إله إلا الله من ليلةٍ بتُّها وأنا متترّسٌ والسماءُ تُهِلُّنِي ننتظرُ الصبح حتى نُغيرَ على الكفار.

ثم قال: إذا أنا متُّ فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوهُ عُدَّةً في سبيل الله تعالى.

وقال أبو الزناد: إن خالد بن الوليد لمّا حضرته الوفاةُ بكى وقال: لقد لقيتُ كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربةٌ بسيف، أو رميةٌ بسهم، أو طعنةٌ برمح، وها أنا أموتُ على فراشي حتفَ أنفي كما يموتُ العَيْر، فلا نامت أعينُ الجبناء!.

وكانت وفاته رحمه الله سنة ٢١هـ[١].

* * *

{٤٠} الفتى الناسك

قال الربيع بن عبدالرحمن، المعروف بابن برّة، من البصريين: كان في زمن عمر فتى يَنْسُكُ ويلزمُ المسجد، فعشقته جارية، فجاءته فكلّمته سرّاً، فقال: يا نفس، تكلمينها فتلقي الله زانية؟ فصرخ صرخةً غُشيَ عليه. فجاءه عمٌّ له فحمله إلى منزله، فلمّا أفاق قال له: يا عمّ، القَ عمرَ فاقرأ عليه السلام وقل له: ما جزاءُ من خاف مقام ربّه؟ ثم صرخ صرخةً أخرى فمات.

---

(١) المختار من مناقب الأخيار ٢٤٤/٢، سير أعلام النبلاء ٣٨٢/١ والعير: الحمار.

فذهب عمُّه إلى عمر فقال: وعليك السلام، جزاؤك جنَّتان، جزاؤك جنَّتان.

رحمة الله عليه[1].

* * *

{٤١} أمير المؤمنين عمر

مما لم يذكره ابن أبي الدنيا من خبر وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه لما احتضر ورأسه في حجر ولده عبدالله قال:

ظلومٌ لنفسي غير أني مسلم أصلي الصلاةَ كلها وأصوم

ولم يزل يذكر الله تعالى ويُديم الشهادة إلى أن توفي[2].

وحدَّث أبو هلال الطائي عن «أسّق» قال: كنتُ مملوكاً لعمر بن الخطاب وأنا نصراني، فكان يعرض عليَّ الإسلام ويقول: إنك لو أسلمت استعنتُ بك على أمانتي، فإنه لا يحلُّ لي أن أستعينَ بك على أمانة المسلمين ولستَ على دينهم. فأبيتُ عليه، فقال: لا إكراه في الدين. فلما حضرته الوفاة أعتقني وأنا نصراني وقال: اذهب حيث شئت[3].

* * *

{٤٢} يوصي بخواتيم سورة النحل

قيل لهرم بن حيان[4]: أوصِ. فقال: صَدَقتني نفسي في الحياة، ما لي

---

(١) المختار من مناقب الأخيار ٣٨٣/٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٤٤٨/٢ (طبعة دار الكتب العلمية).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٥٨/٦، حلية الأولياء ٣٤/٩.

(٤) قائد فاتح، من كبار التابعين، ومن كبار النسّاك، كان أمير بني عبد القيس في الفتوح، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان بأرض فارس. ت بعد ٢٦هـ.

شيء أوصي فيه، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

* * *

{٤٣} أبو ذؤيب الشاعر المخضرم

أبو ذؤيب الهذلي، واسمه خويلد بن خالد، من مُضر، شاعر فحل مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام وسكن المدينة المنورة، اشترك في الغزو والفتوح، شهد فتح إفريقيا وعاد مع ابن الزبير يحملون البشرى إلى عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فلما كانوا بمصر مات فيها نحو سنة ٢٧هـ، وكان عنده ابن أخيه «أبو عُبيد»، فقال له: احفر ذاك الجُرف برمحك، ثم اعضد من الشجر بسيفك، واجزرني إلى هذا النهر، فإنك لا تفرغ حتى أفرغ، فاغسلني وكفّني بكفني، ثم اجعلني في حفيرتك، وانثل عليّ الجرف برمحك، وألقِ عليّ الغصون والحجارة، ثم اتبع الناس (للغزو) فإن لهم رهجة[٢] تراها في الأفق، إذا أمسيتَ كأنها جهامة[٣].

قال أبو عبيد: فما أخطأ مما قال شيئاً، ولولا نعتهُ لم أهتد لأثر الجيش. وقال وهو يجود بنفسه:

أبا عُبيدٍ وقع الكتابُ ... واقترب الموعودُ والحسابُ
وعند رحلي جملٌ نُجابُ ... أحمرُ في حاركهِ انصبابُ[٤]

* * *

(١) عيون الأخبار ٣١٢/٢، المختار من مناقب الأخيار ١٣٦/٥.
(٢) هو ما أثير من الغبار.
(٣) هي السحابة لا ماء فيها.
(٤) تاريخ دمشق الكبير ٤٣/١٩، الأعلام ٣٢٥/٢.

{٤٤} صاحب عفراء

عروة بن حزام شاعر من بني عذرة، من متيمي العرب، صاحب «عفراء» ابنة عمه. ذهب إلى اليمن ليجلب مهرها، فلما عاد إذا هي قد زوِّجت، فلحق بها، وأكرمه زوجها، فأقام أياماً وودعها وانصرف، فضنى حباً، فمات قبل بلوغه حيَّه (نحو ٣٠هـ).

وقال لما نزل به الموت:

مَنْ كانَ مِنْ أَخَواتي باكياً أبداً فاليومَ، إني أُراني اليومَ مَقْبُوضا
يُسمعنيه فإني غيرُ سامِعِهِ إذا علوتُ رقابَ القومِ مَعْروضا[(١)][(٢)]

* * *

{٤٥} عبادة بن الصامت

الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ، كان من سادات الصحابة، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. مات في فلسطين سنة ٣٤هـ بعد حياة حافلة بالجهاد والدعوة والعبادة. لمّا حضرته الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن ـ يعني الدار ـ.

ثم قال: اجمعوا مواليَّ وخدمي وجيراني ومن كان يدخلُ عليَّ. فجمعوا له، فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي عليَّ من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو ـ والذي نفسُ عبادة بيده ـ القصاص يوم القيامة، فأحرِّجُ على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتصَّ قبل أن تخرج نفسي.

فقالوا: بل كنتَ والداً، وكنت مؤدِّباً.

---

(١) أي أنني أسمع بكاءها الآن، أما بعد الموت، إذا كنت على النعش، فلا أسمعها.
(٢) العقد الفريد ١٧٧/٣.

وما قال لخادمٍ سوءاً قط.

فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟.

قالوا: نعم.

قال: اللّهم اشهد.

ثم قال: أمّا لا، فاحفظوا وصيّتي. أحرِّجُ على إنسان منكم يبكي علي. فإذا خرجت نفسي فتوضّأوا وأحسنوا الوضوء، ثم ليدخل كلُّ إنسانٍ منكم مسجداً فيصلي ثم يستغفر لعبادة، ولنفسه، فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1].

وعن عطاء قال: سألت الوليد بن عبادة بن الصامت: كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت؟.

فقال: دعاني فقال: أي بني، اتّقِ الله، واعلم أنك لن تتّقي الله ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده، والقدرِ خيره وشرّه، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا ربّ وما أكتب؟ قال: اكتب القدر»**. قال: **«فجرى القلمُ في تلك الساعةِ بما كان وما هو كائن إلى الأبد»**[2].

* * *

{٤٦} خباب بن الأرت

خبّاب بن الأرت صحابي جليل، صبر على أذى المشركين وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان المشركون قد أوقدوا له ناراً فما أطفأها إلا دهن ظهره! إلى هذه الدرجة عُذِّب!.

---

(١) تهذيب الكمال ١٨٨/١٤.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ١١/٢٩.
والحديث صحيح، صحيح الجامع (٢٠١٧).

قال حارثة بن مُضَرِّب: دخَلْنا على خبَّاب وقد اكتوى سبعاً، فقال: لولا أنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«لا يتمنَّيَنَّ أحدُكم المَوْت»** لَتمنَّيْتُه ولقد رأيْتُني مع رسولِ الله ﷺ ما أمْلِكُ دِرهماً، وإنَّ في جانِب بيتي لأربعين ألفَ درهم. قال: ثم أُتي بكفنه، فلما رآه بكى وقال: لكنَّ حمزةَ لم يوجَدْ له كفَن إلا نَمِرَة، إذا جُعلتْ على رأسه قلَصَتْ عن قدميه، وإذا جُعلتْ على قدميه قلَصَتْ عن رأسه حتى مدَّت على رأسه، وجعل على قدَمَيْه الإذْخِر.

وقال شَقِيق بن سَلَمة: دخلْنا على خبَّاب في مرضه فقال: إنَّ في هذا التابوتِ ثمانين ألفَ درهم، والله ما شددتُ لها من خَيْط، ولا منعْتُها من سائل. ثم بكى، فقلْنا: ما يُبكيك؟ قال: أبكي أن أصحابي مضَوْا ولم تُنقصْهمُ الدنيا شيئاً، وأنَّا بَقِينا بعدَهم حتى ما نجِد لها موضعاً إلاَّ التراب. وقال: لودِدْتُ أنها كذا وكذا. إما قال: بَعْراً أو غيرَه.

وقال طارقُ بن شِهاب: عاد خبَّاباً بقايا من أصحابِ محمد ﷺ فقالوا: أبْشِرْ يا أبا عبدالله بإخوانك تقدَمُ عليهم غداً. قال: فبكى وقال: أما إنه ليس من جَزَع، ولكنَّكم ذكَّرتموني أقواماً وسمَّيْتُم لي إخواناً، وإنَّ أولئك مضَوْا بأجورهم كلِّها، وإني أخاف أنْ يكونَ ثوابُ ما تذكرون من تلك الأعمال ما أُوتينا بعدَهم.

وقال زيد بن وهب: سِرْنا مع عليٍّ حين رجَعَ من صِفِّين، حتى إذا كان عند بابِ الكوفة إذا نحن بقبورٍ سبعة، فقال علي: ما هذه القبور؟ قالوا: يا أمير المؤمنين! إنَّ خبَّاباً توفِّي بعد مَخْرَجك إلى صِفِّين، وأوصى أنْ يُدْفَن في ظاهرِ الكوفة. فقال عليّ: رحم الله خبَّاباً، لقد أسلَمَ راغباً، وهاجرَ طائعاً، وعاشَ مجاهداً، وابتُلي في جِسْمِه أحوالاً، ولن يُضيعَ الله أجرَ مَنْ أحسَنَ عملاً. ثم قال: طُوبَى لمن ذكر المَعَاد، وعمِلَ للحساب، وقنِعَ بالكَفَاف، ورضي عن الله تعالى.

وتوفي سنةَ سبعٍ وثلاثين ـ رضي الله عنه ـ(١).

***

---

(١) المختار من مناقب الأخيار ٢/٢٤٦.

{٤٧} الوليّ المجاهد

عُرف عمرو بن عتبة بن فرقد السلمي تابعياً كوفياً وصاحب كرامات، حتى قال بشر بن الحارث: كان عمرو بن عتبة يصلي والغمام فوق رأسه، والسِّباع حوله تحرِّك أذنابها!.

وروى الأعمش عنه قوله: سألتُ الله ثلاثاً فأعطاني اثنتين، وأنا أنتظر الثالثة! سألته أن يزهِّدني في الدنيا فما أبالي ما أقبل وما أدبر، وسألته أن يقوِّيني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة وأنا أرجوها!.

قال ابنُ عمٍّ له: نزلنا في مَرْج حسن، فقال عمرو: ما أحسن هذا المرج! ما أحسن الآن لو أن منادياً ينادي: يا خيل الله اركبي، فخرج رجل فكان في أولي من لقي، فأصيب، ثم جيءَ به فدُفن في هذا المرج!.

فما كان بأسرع من أن نادى مناد: يا خيل الله اركبي! فخرج عمرو في سَرَعان الناس في أول من خرج، فأُتي عتبة ـ القائد ـ فأُخبر بذلك، فقال: عليَّ عمراً، عليَّ عمراً. فأرسل في طلبه، فما أُدرك حتى أُصيب، فما أراهُ دُفن إلا في مركز رمحه(١)!.

* * *

{٤٨} أمير المؤمنين عليّ

وَدَخَلَ الحسَنُ عَلَى أبيهِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وَهُوَ يَجُودَ بنفسِهِ، فجزع، فقال لَهُ أبُوهُ: أجَزعْتَ؟ قال: يَا أميرَ المؤمنين، كيف لاَ أجزعُ وأنْتَ فِي آخِرِ يَوم مِنْ أيام الدُّنْيَا، وَأولِ يَومٍ مِنْ أيامِ الآخرَةِ؟.

قَالَ: أفَلاَ أعلمك أربعَ كَلِمَاتٍ إن حَفظْتَهُنَّ ففيهن غِنَاء الدهْرِ، وإنْ

(١) المصدر السابق ٤/١٣٤ (باختصار). وكان ذلك في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

ضَيَّعْتَهُنَّ ففيهِنَّ فقر الأبَدِ؟ يَا بنَي: لاَ غِنَاءَ مثل العَقْلِ، وَلا فقر أشدُّ مِنَ الجَهْلِ، وَلاَ وَحشة أشدُّ مِنَ العُجْبِ، وَلاَ أُنْسَ مثل حُسْنِ الخلقِ[1].

ولما ضربه عبدالرحمن بن ملجم دعا الحسن والحسين وقال: أوصيكما بتقوى الله، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شيءٍ فاتكما منها، اعملا خيراً، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً[2].

* * *

{٤٩} لبيد الشاعر

في حدود سنة (٤١هـ) كانت وفاة الشاعر الفحل المخضرم المعمَّر لبيد بن ربيعة العامري، الذي انسجم مع الإسلام وارتاحت نفسه واطمأنت فلم يعد يقول شعراً الذي كان متنفَّسه قبل إسلامه.

وقد أحبَّ في آخر عهده بالدنيا أن يسمع بكاء أهله عليه، فحين دخل عليه أشياخ بني جعفر وشبانهم قال لهم: ابكوا عليَّ حتى أسمع، فقال شاب منهم:

لـتَبْـكِ لـبـيـدا كـلُّ قِـدْرٍ وجَـفْـنَـةٍ وتبكي الصَّبا من بادَ وهو حميدُ

قال: أحسنت يا ابن أخي فزدني، قال: ما عندي غير هذا البيت، قال: ما أسرع ما أكديت!.

وقد أوصى لبيد عند وفاته بوصية حزينة مؤثرة، يظهر فيها صفاء نفسه وبره وتقاه، وتمسكه بآداب الإسلام في أداء حق الميت، قالوا: إن لبيداً لما حضرته الوفاة قال لابن أخيه ـ ولم يكن له ولد ذكر ـ: يا بني، إن أباك لم يمت ولكنه فني، فإذا قُبض أبوك فأقبله القبلة وسجّه بثوبه، ولا تصرخنَّ

(١) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٧.

(٢) نثر الدر للآبي ٣٠٢/١.

عليه صارخة، وانظر جفنتيَّ اللتين كنت أصنعهما فاصنعهما ثم احملهما إلى المسجد، فإذا سلم الإمام فقدِّمها إليهم، فإذا طعموا فقل لهم: فليحضروا جنازة أخيهم، ثم أنشد قوله:

وإذا دفَنْتَ أباكَ فاجْـ ... ـعَلْ فوقَه خَشَباً وطينا
وسقائِفاً صمّاً رَوا ... سيها يُسَدِّدْنَ الغُضُونا
لِيَقينَ حُرَّ الوجهِ سَفْـ ... ـسافَ الترابِ ولن يقينا

وللبيد شعر عند الوفاة لعله متصل بالوصية السابقة، يوصي فيه ابنتيه كيف تؤدِّيان حقه بعد الموت، ويبين لهما طبيعة الحزن الذي تلتزمان به ومدته دون جزع أو صراخ، أو خمش لوجوه وحلق للشعر، كما كانت النساء تفعل في عهد جاهليتها:

تمنَّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ
ونائحتان تندُبانِ بعاقلٍ ... أخا ثِقَةٍ لا عَيْنَ منه ولا أثَرْ
وفي ابني نِزارٍ أُسوةٌ إن جزعتُما ... وإن تسألاهم تُخبَرَا فيهم الخَبَرْ
فإن حانَ يوماً أن يموتَ أبوكُما ... فلا تَخْمُشا وجهاً ولا تَحْلِقا شَعَرْ
وقولا هو المرءُ الذي لا خَليفَه ... أضاعَ ولا خانَ الصديقَ ولا غَدَرْ
إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ... ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد اعتَذَرْ

قالوا: فكانت ابنتاه تلبسان ثيابهما في كل يوم، ثم تأتيان مجلس بني جعفر بن كلاب، فترثيانه ولا تعولان، فأقامتا على ذلك حولاً كاملاً ثم انصرفتا.

وانتهت حياة لبيد في الكوفة بعد عمر طويل، ويسجل ابن سعد نهايته بقوله: ودُفن في صحراء بني جعفر بن كلاب، ورجع بنوه إلى البادية أعراباً[١].

* * *

(١) لبيد بن ربيعة العامري/ يحيى الجبوري، ص١٥٧ ـ ١٥٩ باختصار.

{٥٠} أمير مصر الفصيح

كان عتبة بن أبي سفيان أمير مصر، عاقلاً فصيحاً مهيباً، مات سنة ٤٤هـ.

وفي مرض موته رقي المنبر فقال: يا أهل مصر، قد تقدّمتْ لي فيكم عقوبات، كنتُ يومئذ أرجو الأجر فيها، وأنا اليوم أخاف الوزر منها، فليتني لم أكن اخترتُ دنياي على معادي، ولم أصلحكم بفسادي، وأنا أستغفر الله منكم، وأتوب إليه فيكم، وقد شقي مَنْ هلكَ بين عفو الله ورحمته[١].

* * *

{٥١} وصية منكرة

الحطيئة شاعر مخضرم هجّاء معروف، لم يكد يسلم من لسانه أحد، حتى هجا أمه وأباه ونفسه، ولذلك سجنه عمر، ثم أخرجه بعد أن استعطفه بأبيات ونهاه عن هجاء الناس، ومات سنة ٤٥هـ، وكانت وصيته شاذة منكرة مثل طبعه!.

فلمّا حضرته الوفاة قيل له: أوص. قال: بمَ أوصي؟ مالي للذكور دون الإناث!.

فقالوا: إن الله لم يأمر بهذا. فقال: لكني آمرُ به!.

ثم قال: ويلٌ للشعر من راوية الشعر!.

فقيل له: أوصِ يا أبا مُليكة للمساكين بشيء.

قال: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لن تبور!.

قيل: أعتق عبدكَ يساراً.

قال: اشهدوا أنه عبدٌ ما بقي!.

قيل: فلان اليتيم ما توصي فيه؟.

قال: أوصي أن تأكلوا ماله...

قالوا: ليس إلا هذا؟.

---

(١) المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري/ ياسين السواس، ص١٦٣.

قال: احملوني على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم لعلي أنجو! وأنشد:

لكلِّ جديدٍ لذَّةٌ غير أنني رأيتُ جديدَ الموت غير لذيذِ

ومات مكانه[١].

وفي مصدر آخر أنه قيل له: أوص.

فقال: أوصيكم بالشعر. ثم قال:

الشعرُ صعبٌ وطويلٌ سلَّمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلَّتْ به إلى الحضيضِ قدمه والشعرُ لا يسطيعه من يظلمه[٢]

* * *

{٥٢} نسأل الله السلامة

قال يزيد بن أبي حبيب: قاتل المغيرةُ بن الأخنس عبدَالله بن عتاب التجيبي، وضاربَ النعمان بن مخرمة المذحجي.

قال يزيد: فدخلتُ على عبدالله بن عتاب وهو يجودُ بنفسه، قال القوم: رحمك الله أبا الهزم، فوالله ما علمنا إلا خيراً، إلا ما كان من ذلك.

قال: أمسيري إلى عثمان[٣]؟ قالوا: نعم. قال: ما استغفرت الله منه قط، وإني لأرجو أن يكون من صالح أعمالي[٤]!!.

* * *

(١) عيون الأخبار ٥٨/٢، ٦٠.
(٢) المنتظم لابن الجوزي ٣١١/٥.
(٣) يعني ضده، يوم الدار.
(٤) أخبار المدينة ٢٦١/٢.
وقد سقت هذا للعبرة. وهو أمر يدعو للعجب، أن لا يعرف المرء خطأه حتى الموت! ونسأل الله العصمة من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

{٥٣} طبيب العرب

روى الفرزدق عن غالب قال: دخلتُ على الحارث بن كَلَدَة[١] ـ وكان طَبَّ العرب ـ وهو يجودُ بنفسه، وحوله جماعة، قيل له: أوصنا بشيء نأخذ به بعد وفاتك؟.

فقال: لا يتزوَّجنَّ أحدٌ منكم إلا الشابَّة، ولا يأكلنَّ من اللحم إلا فَتِيّاً، ولا تأكلوا من الفاكهة إلا عند أوان نضجها، ولا تتعبوا أبدانكم، فإن ذلك يؤدي إلى نقص أعماركم، ولا يتعالجنَّ أحدكم من دائه ما احتمل بدنه[٢].

وفي مصدر آخر أنه قال:

لا تتزوَّجوا من النساء إلا شابَّة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضجها، ولا يعالجن أحد منكم ما احتمل بدنهُ الداء، وعليكم بالنُّورة[٣] في كل شهر، فإنها مذيبة للبلغم، مهلكة للمرَّة، منبتة للحم، وإذا تغدَّى أحدكم فلينم على إثر غدائه، وإذا تعشَّى فليخطُ أربعين خطوة[٤].

***

{٥٤} يصلح نعله قبل الإعدام!

مما لم يذكره الحافظ ابن أبي الدنيا رحمه الله عن الشاعر هدبة بن الخشرم، المتوفى نحو سنة ٥٠هـ، أنه لما ذُهبَ به ليُقتل، انقطع قِبالُ نعله[٥]، فجلس يُصلحه، فقيل له: أوَ تُصلحه وأنت على ما أنت؟ فقال:

أشدُّ قِبالَ نعلي أن يراني ... عدوّي للحوادث مستكينا[٦]

(١) مولده قبل الإسلام، مات نحو ٥٠هـ، اختلف في إسلامه!.

(٢) زهر الغصون من كتاب الفنون ص١٣٦.

(٣) هي إزالة شعر العانة...

(٤) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ١٨/١.

(٥) قبال النعل: زمامٌ بين الإصبع الوسطى والتي تليها.

(٦) المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري ص٤٤٧.

{٥٥} الحنين

قال الغنوي: احتضرَ رجلٌ منا، فصاحت ابنته، ففتح عينيه وهو يكيدُ بنفسه فقال:

عــزاءً لا أبــا لــك إنَّ شــيــئــاً تـولّى لـيـس يـرجـعـهُ الـحـنـيـنُ[١]!

* * *

{٥٦} الجزع.. والصلاة

عنبسة بن أبي سفيان هو أخو معاوية وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ. هو من الطبقة الأولى من التابعين، ولو أدرك النبي ﷺ.

قال يعلى بن أمية: قدمتُ الطائف، فدخلتُ على عنبسة بن أبي سفيان وهو بالموت، فرأيتُ منه جزعاً، فقلت: إنك إلى خير. أو قيل له: لم تفعلُ هذا؟ ألم تكن على سمتٍ حسن من الإسلام؟.

فقال: ما لي لا أجزع ولستُ أدري على ما أشرف، مع أن أرجى عملي في نفسي أن أختي أم حبيبة زوج النبي ﷺ أخبرتني أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلى اثنتي عشرة ركعة بالنهار أو بالليل بُني له بيت في الجنة»**[٢].

* * *

---

(١) البيان والتبيين ٦٠٥/١ (برمجيات التراث ـ عمّان).

(٢) تهذيب الكمال ٤١٥/٢٢، تاريخ دمشق ٢٣/٤٧. وقد جمعت بين الروايتين. والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٦٥٧)، وصححه بلفظ آخر في صحيح الجامع (٦٣٦٢).

وقد جعله الإمام الذهبي في وفيات سنة (٥٠هـ) وقال: لعله بقي إلى بعد هذا الزمان. تاريخ الإسلام ٤٣٤/٢.

{٥٧} الصحابي الشجاع...

حُجْر بن عدي بن جبلة الكندي كان يسمى «حُجر الخير»، وكان شجاعاً من المقدَّمين، وفد على رسول الله ﷺ وشهد القادسية، ثم كان من أصحاب علي، وشهد معه وقعتي الجمل وصفين. سكن الكوفة، وحذَّره واليها زياد بن أبي سفيان من الخروج على بني أمية، لكنه ناوأ واشتغل في السر، حتى جيء به فقتله معاوية في مرج عذراء سنة (٥١هـ).

ولما جيء به لِيُقْتَلَ، سأل أن يُمْهَلَ حتى يصلي ركعتين، وظهر منه جزع شديد. فقال له قائل: أتجزعُ؟ فقال: وكيف لا أجزع؟ سيف مشهور، وكفن منشور، وقبر محفور، ولست أدري أيَؤدِّيني إلى جنة أم إلى نار(١).

* * *

{٥٨} اذكروا صاحب الرغيف

الصحابي الجليل أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعري أسلم قديماً، فكان ممن هاجر إلى الحبشة، وأوتي مزماراً من مزامير آل داود كما قال رسول الله ﷺ. وتوفي سنة ٥٢هـ.

حين حضرته الوفاة دعا فتيانه فقال: اذهبوا فاحفروا وأوسعوا وأعمقوا.

فجاؤوا فقالوا: قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا. فقال: والله إنها لإحدى المنزلتين: أما ليوسعَنّ علي قبري حتى يكون كل زاوية منه أربعين ذراعاً، ثم ليفتحنَّ لي باب إلى الجنة فلأنظرنَّ إلى أزواجي ومنازلي وما أعدَّ الله عز وجل لي من الكرامة، ثم ليصيبني من ريحها ورَوْحها حتى أُبعث، ولئن كانت الأخرى ـ ونعوذ بالله منها ـ ليضيقنَّ علي قبري حتى أكون في أضيق من القناة في الزُّج، ثم ليفتحنَّ لي باب من أبواب جهنم فلأنظرنَّ إلى

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ٢/٣٦١.

سلاسلي وأغلالي وقرنائي، ثم ليصبني من سَمومها وحميمها حتى أُبعث.

وعن أبي بردة قال: لما حضرت أبا موسى الوفاةُ قال: يا بَنيّ اذكروا صاحب الرغيف. قال: كان رجل يتعبَّد في صومعته، أراه قال: سبعين سنة، لا ينزل إلا في يوم واحد. قال: فشبَّه أو شبَّ الشيطان في عينه امرأة. قال: فكان معها سبعة أيام أو سبع ليال.

قال: ثم كشف عن الرجل غطاؤه فخرج تائباً. فكان كلما خطا خطوة صلى وسجد، فآواه الليل إلى دكان عليه اثنا عشر مسكيناً، فأدركه الإعياء، فرمىٰ بنفسه بين رجلين منهم، وكان ثَمَّ راهبٌ يبعث إليهم كلَّ ليلةٍ بأرغفة، فيُعطي كلَّ إنسان رغيفاً. فجاء صاحبُ الرُّغف فأعطى كلَّ إنسان رغيفاً. فقال المتروكُ لصاحب الرغف: ما لك لم تعطني رغيفي؟ قال: أتراني أمسكهُ عنك؟ سل هل أعطيتُ أحداً منكم رغيفين؟ قالوا: لا. قال: أتراني أمسكه عنك؟ والله لا أعطيك الليلة شيئاً. فعمد التائب إلى الرغيف الذي دفعهُ إليه فدفعه إلى الرجل الذي تُرِك. فأصبح التائبُ ميتاً. قال: فوُزنت السبعونَ سنةً بالسبع ليالي فرجحت الليالي. فوُزنَ الرغيفُ بالسبعِ الليالي فرجح الرغيف، فقال أبو موسى: يا بَنيَّ، اذكروا صاحب الرغيف ـ رضي الله عنه ـ[1].

* * *

{٥٩} فارس الإسلام

روى الطبراني أن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال لابنه عند الموت:

«يا بنيّ إنك لن تلقى أحداً هو أنصح لك منّي. إذا أردت أن تصلّي فأحسن وضوءك، ثم صلّ صلاةً لا ترى أنّك تصلّي بعدها. وإيّاك والطمع

(١) صفة الصفوة ١/٥٦١ ـ ٥٦٢.

فإنّه فقر حاضر. وعليك بالإياس فإنه الغنى. وإيّاك وما يُعتَذر إليه من العمل والقول، واعمل ما بدا لك»[1].

وعن الزهري أن سعد بن أبي وقاص لما احتُضر دعا بخَلَقِ جبَّةِ صوفٍ فقال: كفِّنوني فيها، فإني لقيتُ المشركين فيها يوم بدر، وإنما خبَّأتها لهذا اليوم.

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص أنه قال: كان رأسُ أبي في حجري وهو يقضي، فبكيت، فرفع رأسه إليّ فقال: أي بني ما يبكيك؟ قلت: لمكانك وما أرى بك.

قال: لا تبك، فإن الله لا يعذِّبني أبداً، وإني من أهل الجنة[2].

إنه الصحابي الأمير سعد بن أبي وقاص، فاتح العراق ومدائن كسرى، أول من رمى بسهم في سبيل الله، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة. توفي قرب المدينة سنة ٥٥هـ، عليه رحمة الله ورضوانه.

* * *

{٦٠} سيّدٌ كريم

سعيد بن العاص القرشي كان طفلاً عندما مات رسولُ الله ﷺ، وكان من أشراف قريش، جمع السخاء والفصاحة، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان بن عفان، استعمله عثمان على الكوفة، وغزا طبرستان فافتتحها. مات سنة (٥٧هـ).

وذكر شيب بن شيبة أنه لما حضرته الوفاة قال لبنيه: أيُّكم يقبل وصيتي؟ قال ابنه الأكبر: أنا يا أبة. قال: فإن فيها قضاءَ ديني. قال: وما دَيْنُكَ يا أبة؟ قال: ثمانون ألفَ دينار! قال: وفيمَ أخذتها يا أبة؟ قال: يا

---

(١) قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. معجم الزوائد ومنبع الفوائد ٤/٢٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/١٢٢.

بني، في كريم سددتُ منه خَلَّة، وفي رجل أتاني في حاجةٍ ودمهُ ينزو في وجهه من الحيَاء، فبدأته بها قبل أن يسألني[١].

وقال لهم وهو يحتضر: يا بني لا تفقدوا إخواني مني عندكم عينَ وجهي، أجروا عليهم ما كنتُ أجري، واصنعوا بهم ما كنتُ أصنع، ولا تُلجئوهم للطلب، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه وارتعدت فرائصه وكَلَّ لسانه وبدا الكلام في وجهه. اكفوهمْ مؤنة الطلب بالعطية قبل المسألة، فإني لا أجد لوجه الرجل يأتي يتقلقل على فراشه ذاكراً موضعاً لحاجته فعدا بها عليكم؛ لا أرى قضى حاجته عوضاً من بذل وجهه. فبادروهم بقضاء حوائجهم قبل أن يسبقوكم إليها بالمسألة[٢].

* * *

{٦١} رياء.. وشهوة

الصحابي الجليل شداد بن أوس الخزرجي كان أمير حمص، ولمّا قُتل عثمان اعتزل، وكان فصيحاً حليماً حكيماً فقيهاً، مات سنة ٥٨هـ.

روى الزهري أنه قال لما حضرته الوفاة: إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية[٣].

* * *

(١) تهذيب الكمال ٥٠٧/١٠.

(٢) الإخوان لابن أبي الدنيا رقم (١٨٦) بتحقيق محمد عبدالرحمن طوالبة، البر والصلة لابن الجوزي رقم ٤٤٦، البداية والنهاية لابن كثير ٢٣٥/٦.

(٣) حلية الأولياء ١٦٨/١.

ويلي هذا ما رواه شداد عن رسول الله ﷺ، وهو عند ابن ماجه أيضاً، وقد ضعفه في ضعيف الجامع (١٣٧٧) بلفظ: **«إن أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله، أما إني لستُ أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً، ولكنْ أعمالاً لغير الله، وشهوةً خفية»**.

وفي حلية الأولياء تكملة للحديث: **« . . .والشهوة الخفية: يصبح الرجل صائماً فيرى الشيء يشتهيه فيواقعه»**.

{٦٢} ابن أبي السرح الصحابي

كان عبدالله بن سعد بن أبي السرح من الصحابة، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، وقد غزا إفريقيا، وغزا ذات الصواري فقُتلت الروم مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها قط.

ولم يشارك في الفتنة التي وقعت بعد مقتل الخليفة عثمان ـ رضي الله عنه ـ وقد فرَّ منها وسكن الرملة بفلسطين. ولمّا احتُضر هناك جعل يقول من الليل: آصبحتم؟ فيقولون: لا. فلما كان عند الصبح قال: يا هشام، إني لأجد بَرْدَ الصبح فانظر. ثم قال: اللّهم اجعل خاتمة عملي الصبح. فتوضأ، ثم صلى، فقرأ في الأولى بأمِّ القرآن والعاديات، وفي الأخرى بأمِّ القرآن وسورة، وسلَّم عن يمينه، وذهب يسلِّم عن يساره فقُبض ـ رضي الله عنه ـ.

وذكر أنه توفي سنة ٥٩هـ، والأصح وفاته في خلافة علي ـ رضي الله عنه ـ كما قال الذهبي(١).

* * *

{٦٣} معاوية.. أمير المؤمنين

وردت أخبار أخرى في احتضار معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ غير التي أوردها ابن أبي الدنيا في كتاب «المحتضرين».

فقد ورد أنه لما احتضر قيل له: قُل: لا إله إلاّ الله، فضعُف عنها حتى كُرِّرَتْ عليه ثلاثاً، كلُّ ذلك لا يقدر يقولها، ثم قال في آخر ذلك: أوَ لَسْتُ من أهلها؟!.

وفي خبر آخر: أنّه لما احتُضر رفع يديْه، وهو يجود بنفسه، وقال متمثلاً:

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٣٥.

هو الموتُ لا مَنْجَى من الموتِ والّذِي ... أحَاذِرُ بعد الموتِ أدْهَى وأفْظَعُ

ثم قال: اللَّهمَّ أَقِلِ العَثْرة، واعفُ عن الزَّلَة، وجُدْ بحلمكَ على مَنْ لا يرجو غيرَك، ولا يثقُ إلاّ بك، فإنَّك واسعُ الرحمة، تعفُو بقدرة، وما وراءك مَذْهب لذي خطيئة مُوبقة، يا أرحمَ الراحمين.

وفي خبرٍ آخر عن سعيد بن المسيّب قال: لما احتضر معاوية قال: أقعدوني. فأقعد. فجعل يذكر اللَّهَ، وقال: يا ربّ! ارحم الشَّيْخَ العاصي ذا القلبِ القَاسي، وعزّتِكَ إن لم تغفر لي فقد هلكتُ، ثم غُشِيَ عليه[1].

* * *

{٦٤} السبط الشهيد

ذكر أن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ قال يومَ قتله (٦١هـ):

وذلُّ الحياةِ وذلُّ المماتِ ... وكلاًّ أراهُ طعاماً وبيلا
فإنْ كان لا بدَّ إحداهما ... فسيروا إلى الموت سيراً جميلا[2]

* * *

{٦٥} مسروق بن الأجدع

التابعيُّ الثقة مسروق بن الأجدع اليمني، الذي كان أعلم بالفتيا من شريح، والذي شهد حروب علي كرّم الله وجهه...

قال أبو وائل: لما احتُضر مسروق قال: أموتُ على أمرٍ لم يسنَّهُ

(١) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٢٦٩/٣ ـ ٢٧٠.
(٢) سفينة الفرج للقاسمي رقم ٤٧٣.

رسولُ الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر؟ أما إني لستُ أدَعُ صفراء ولا بيضاء إلا ما في سيفي هذا، فبيعوه وكفّنوني به.

ومات سنة ٦٣هـ(١).

* * *

{٦٦} قائد مسرف

قائد من الدهاة القساة في العصر الأموي، هو مسلم بن عقبة المري، الذي ولاه يزيد بن معاوية قيادة الجيش لينتقم من أهل المدينة بعد أن أخرجوا عامله، ففعل وآذاها وأسرف فيها قتلاً ونهباً، في وقعة الحرة. وتوجه بالجيش إلى مكة ليحارب ابن الزبير، فاحتضر في الطريق، واستخلف الحصين بن نمير، وقال له: يا برذعة الحمار، لولا حبيش بن دلجة القيني لما وليتك، فإذا قدمت مكة فلا يكون عملك إلا الوقاف، ثم الثقاف، ثم الانصراف.

ثم قال: اللّهم إن عذّبتني بعد طاعتي لخليفتك يزيد بن معاوية، وقتل أهل الحرّة، فإني إذاً لشقيّ. ثم خرجت نفسه. فدُفن بثنية المشلل سنة ٦٣هـ(٢).

* * *

{٦٧} الخليفة الشاب

بقي معاوية بن يزيد بن معاوية شهرين أو أقلّ ومات. وكان شاباً مليحاً أبيض، فيه خيرٌ وصلاح، وعاش إحدى وعشرين سنة.

(١) المختار من مناقب الأخيار ٥٠٠/٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢٥١/٢، الأعلام ٢٢٢/٧.

ولما احتُضر قالوا له: ألا تستخلف؟ فامتنع وقال: لم أُصبْ من حلاوتها ما أتحمّلُ به مرارتها[1]!.

* * *

{٦٨} مقتل بطل

في معركة مرج راهط سنة ٦٤هـ التي دارت فيها الحرب بين الضحاك بن قيس الفهري الذي دعا لنفسه، وبين مروان بن الحكم، كان من أصحاب الضحاك زياد بن عمرو العقيلي، فجاء رجل من كلب برأسه إلى مروان، فقال له: من قتل هذا؟ قال: أنا، قال مروان: كذبت، فقال: المكذِّب أكذب، أنا والله قتلته، مرَّ بي وهو يعدو به فرسه وهو يقول:

قد طاب وِرْدُ الموتِ مروانَ فَرِدْ   لا تحسبنّ العيش أدنى للرَّشَدْ
لا خير في طول الحياة في كَبَدْ[2]

فطعنته فسقط، فنزلتُ إليه وهو مثبت وهو يقول:

بُعداً وسحقاً لامرئٍ عاش في   ذُلٍّ وفي كفيه عَضْبٌ صقيل[3]

* * *

{٦٩} الربيع بن خُثيم

كان الربيع بن خُثيم الثوري من تابعي الكوفة، روى عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو أحد الثمانية من الزهاد المشهورين في عصره. ذكره ابن أبي الدنيا ولم يورد وصيته.

---

(١) سمط النجوم العوالي ٢١٤/٣، مرآة الجنان ١٣٩/١، العبر في خبر من غبر ٥١/١. وكانت وفاته سنة ٦٤هـ.

(٢) الكبد: الشدة والعناء والمشقة.

(٣) تاريخ دمشق الكبير ١٤٧/٢١، لباب الآداب لابن منقذ ص١٩٤ ـ ١٩٥.

قال منذر الثوري: إن الربيع أوصى عند موته فقال: هذا ما أوصى به الربيعُ على نفسه، وأشهدَ الله عليه، وكفى به شهيداً، وجازياً لعباده الصالحين ومُثيباً، بأني رضيتُ بالله ربّاً، وبمحمدٍ نبياً، وبالإسلام ديناً، ورضيتُ لنفسي ومن أطاعني بأن أعبدَ الله في العابدين، وأحمده في الحامدين، وأنصح لجماعة المسلمين[1].

* * *

{٧٠} ليتنبّه أهل المواعيد!

روى هارون بن رئاب أنه لما حضرت الوفاة عبدالله بن عمرو بن العاص قال: انظروا فلاناً ـ لرجل من قريش ـ فإني كنتُ قلت له في ابنتي قولاً كشبيه العِدَة، وما أحبُّ أن ألقى الله تعالى بثلث النفاق، وأشهدكم أني قد زوَّجته[2].

* * *

{٧١} سيّد قومه

مما لم يذكره ابن أبي الدنيا عن شقيق بن ثور السدوسي البصري، سيد بكر بن وائل، وكان على رأسهم يوم صفين مع علي ويوم الجمل، ثم قدم على معاوية في خلافته...

قيل عن شقيق هذا أنه لما احتُضر قال: ليته لم يَسُدْ قومه، فكم من باطل قد حققناه، وحقٍّ أبطلناه!.

توفي سنة ٦٥هـ[3].

* * *

(١) المختار من أخبار الأخيار ٣٧٧/٢. ووفاته نحو سنة ٦٥هـ.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٩٦/٨. ووفاته ـ رضي الله عنه ـ سنة ٦٥هـ.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٣٨/٣.

{٧٢} عندما يسقط الشجاع

همّام بن قبيصة النميري سيد قومه في زمن يزيد بن معاوية، أحد الشجعان، قاتل مع معاوية في صفين، لكنه أبىٰ مبايعة مروان بن الحكم، وانفرد مع الضحاك بن قيس في جمع كبير، فقاتلهم مروان، فقتل همّام بمرج راهط سنة ٦٥هـ.

قال الحجاج بن يوسف لوازع بن ذوالة الكلبي: كيف قتلت همام بن قَبيصة النمري؟ قال: مرَّ بي والناس منهزمون، ولو شاء أن يذهب لذهب، فَلما رآني قصد لي، فضربته وضربني، وسقط، فحاول القيام فلم يقدر، فقال وهو في الموت:

تعستَ ابنَ ذات النوف(١) أجهزْ على امرىء ... يرى الموتَ خيراً من فرارٍ وأكرما
ولا تتركنّي بالحُشاشة(٢) إنني ... صبور إذا ما النِّكْسُ(٣) مِثلُك أحجما

فدنوت منه، فقال: أجهز عليّ قبحك الله! فقد كنت أحب أن يلي هذا مني من هو أربط جاشاً منك! فاحتززتُ رأسه(٤).

* * *

{٧٣} ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ

عن ميمون بن مهران قال: صحبت ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عشرين سنة، فلما حضرته الوفاة قلت له: أوصني. قال: أوصيك بثلاث خصال فاحفظهم عني: لا تخاصم أهل القدر فيؤثموك، ولا تعلّم النجوم

---

(١) النوف: الفرج.
(٢) الحشاشة: رمق الحياة.
(٣) النكس: الرذل المقصِّر عن غاية النجدة والكرم.
(٤) لباب الآداب لابن منقذ ص١٩٤.

فيدعوك إلى الكهانة، ولا تسبَّ السلف فيكبَّك الله تعالى على وجهك في النار[1].

وأوصى بنيه عند موته فقال: يا بَنِيَّ حجُّوا مشاة، فإن للحاجِّ الماشي بكلِّ خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم.

قيل: وما حسنات الحرم؟.

قال: الحسنة بمائة ألف[2].

* * *

{٧٤} تعويذة

روى بلال بن سعد بن تميم الأشعري: أن أباه الصحابي ـ رضي الله عنه ـ لما احتضر قال له: يا بني، أين بنوك!

قال: فأمرتُ أهلي فألبستهم قمصاً بيضاً، ثم أدنيتهم منه، فقبَّلهم وشمَّهم، ثم قال: اللّهم إني أعيذهم بك من الكفر، وضلالة العمى، ومن النساء، والفقر إلى بني آدم[3].

* * *

{٧٥} الحي هو الميت!

دخل عبيدالله بن زيد بن ظبيان التيمي على أبيه وهو يجودُ بنفسه، فقال له: ألا أوصي بك الأمير؟

فقال عبيدالله: إذا لم يكن للحيِّ إلا وصيَّة الميت، فالحيُّ هو الميت.

---

(١) أخبار مكة للفاكهي ٣٤٥/٢. ووفاته ـ رضي الله عنه ـ سنة ٦٨هـ.
(٢) إحياء علوم الدين ٣٩١/١.
(٣) الزهد لابن أبي عاصم ٣٨٥/١ (برمجيات التراث)؟.

وقال الشاعر في نحوه:

إذا ما الحيُّ عاش بعَظْمِ مَيْتٍ ... فذاكَ العظْمُ حيٌّ وهو مَيْتُ[1]

* * *

{٧٦} ابن الزبير

عبدالله بن الزبير الصحابي التقيُّ الفارس، كان إذا قام في الصلاة كأنه عودٌ؛ من الخشوع، وما كان بابٌ من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلَّفه! كان إذا سجد تنزل العصافير على ظهره ولا تحسبهُ إلا جِذْمَ حائط!.

عندما حملَ عليه الحجاج وقد اعتصم بالبيت الحرام، أصابته آجرَّةٌ في مَفْرِقه حتى فلقت رأسه! فوقف قائماً وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تَدْمىٰ كلومُنا ... ولكن على أقدامنا تقطرُ الدِّما

وكانت أمه أسماء بنت أبي بكر تدعو في اليوم الذي قتل فيه وتقول: اللّهم ارحم ذلك السجود والنحيب والظمأ في تلك الهواجر[2].

وذكر ابن عساكر في تاريخه أن الزبير قاتل حتى قتل، وذلك أن جيوش الحجاج بن يوسف كانت تدخل عليه من أبواب المسجد الحرام، فكلما دخل قوم من باب حمل عليهم وحده حتى يخرجهم، فبينا هو على تلك الحال إذ وقعت شرفة من شرفات المسجد على رأسه، فصرعته وهو يتمثل:

أسماءُ يا أسماءُ لا تبكيني

لم يبق إلا حسبي وديني

وصارمٌ لانت به يميني

قتل يوم الثلاثاء (١٧) جمادى الأولى سنة ٧٣هـ.

* * *

(١) عيون الأخبار (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٣٥/١.

(٢) صفوة الصفوة ٧٦٤/١.

{٧٧} الأسود النخعي

كان الأسود بن يزيد النخعي تابعياً من الفقهاء الحفاظ، عالم الكوفة في عصره... مات سنة ٧٥هـ.

ولمّا احتضر بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟

قال: ما لي لا أجزع؟ ومن أحقُّ بذلك مني؟ والله لو أُتيت بالمغفرة من الله عزَّ وجلَّ لهمّني الحياء منه مما قد صنعته، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزالُ مستحياً منه.

ولقد حجَّ الأسود ثمانين حجّة[١]!.

* * *

{٧٨} شريح بن هانىء

شريح بن هانىء المذحجي الكوفي أصله من اليمن، أدرك النبيّ ﷺ ولم يره، وكان من كبار أصحاب علي، وشهد الحكمين بدومة الجندل.

قالوا: وعاش ١٢٠ سنة، ثم قتل في ولاية الحجاج بن يوسف مع ابن أبي بكرة سنة ٧٨هـ وهو يرتجز قبل أن يُقتل:

قد عشتُ بين المشركين أَعْصُرا ... ثُمَّتَ أدركتُ النبيَّ المُنْذِرا
وبعده صدِّيقَهُ وعُمَرا ... ويومَ مِهْران ويومَ تُسْتُرا
والجمعَ في صفِّينهم والنَّهَرا ... هيهات ما أطولَ هذا عُمُرا[٢]

* * *

(١) حلية الأولياء ١٠٣/٢، صفة الصفوة ٢٣/٣ ـ ٢٤.

(٢) تهذيب الكمال ٤٥٤/١٢.

{٧٩} الشاعر العذري

الشاعر العذري المعروف بجميل بثينة (ت٨٢هـ)، أورد الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدي قال: بينا أنا بالشام إذ لقيني رجل من أصحابي فقال: هل لك في جميل فإنه يعتلّ نعوده؟ فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه، فنظر إلي وقال: يا ابن سهل، ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق يشهد أن لا إله إلا الله؟

قلت: أظنه قد نجا وأرجو له الجنة، فَمَنْ هذا الرجل؟ قال: أنا، قلت له: والله ما أحسبك سلمت وأنت تُشَبِّبُ منذ عشرين سنة ببثينة، قال: لا نالتني شفاعة محمد ﷺ وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها لريبة، فما برحنا حتى مات(١).

* * *

{٨٠} مجاهد وجيه

كان عبدالله بن غالب الحُدّاني تابعياً مجاهداً بطلاً، من أعيان البصرة وساداتها ديناً وعلماً وزهداً وعبادة.

قال المغيرة بن حبيب: قال عبدالله بن غالب لما برزَ للعدو: على مَ آسىٰ من الدنيا؟ فوالله ما فيها للّبيب جَذَلٌ [أي فرحٌ]، ووالله لولا محبّتي لمباشرة السهر بصفحةِ وجهي، وافتراشي الجبهة لك يا سيدي، والمراوحةُ بين الأعضاء في ظُلم الليل رجاء ثوابك، وحلولِ رضوانك، لقد كنتُ متمنياً لفراق الدنيا وأهلها.

ثم كسرَ جفن سيفه، ثم تقدّم فقاتل حتى قُتل.

(١) وفيات الأعيان ١/٣٧٠.

قال: فحُمل من المعركة وإن به لرمقاً، فمات دون العسكر، فلما دُفن أصابوا من قبره رائحة المسك...

وقال مالك بن دينار: نزلتُ في قبر عبدالله بن غالب، فأخذتُ من ترابه فإذا هو مسك!.

قال: وفُتنَ الناسُ به فبُعثَ إلى قبره فسُوِّي[١].

***

{٨١} المهلّب بن أبي صفرة

للمهلب بن أبي صفرة، القائد الشجاع، والي خراسان **(ت٨٣هـ)** حكاية شهيرة عند موته تتناقلها الأجيال حتى عصرنا هذا.

فلمّا حضرته الوفاة جمع من حضره من بنيه، ودعا بسهام فحزمت، ثم قال: أترونكم كاسريها مجمَّعة؟ قالوا: لا. قال: أفترونكم كاسريها مفرَّقة؟ قالوا: نعم. قال: هكذا الجماعة. ثم مات.

ولمّا حضرهُ أجله عهد إلى ولده يزيد، وأوصاه بقضايا وأسباب، ومن جملة ما قال له:

يا بني، استعقل الحاجب، واستظرف الكاتب، فإن حاجب الرجل وجهه، وكاتبهُ لسانه[٢].

وقد أوردها الأمير أسامة بن منقذ الكناني كاملة، قال:

لما حضرت المهلبَ بْنَ أبي صُفْرَة رحمه الله الوفاة، قال لولده وأهله: أوصيكم بتقوى الله، وصِلةِ الرّحِم: فإنَّ تقوَى اللّهِ تُعْقِبُ الجَنّة؛ وإن صِلَةَ الرّحِم تُنسِي الأجَلَ، وتُثرِي المال، وتَجْمع الشَّمْل، وتُكثّرُ العَدَد وتعمّر الديار، وتُعِزُّ الجَانب.

(١) المختار من مناقب الأخيار ٣/٤٧٠ ـ ٤٧١. وكان مقتله سنة ٨٣هـ بدير الجماجم.

(٢) وفيات الأعيان ٥/٣٥٣ ـ ٣٥٤.

وأنهاكم عن معصية الله تعالى، فإنَّ معصية الله تُعْقِب النار؛ وإنَّ قطيعة الرّحم تُورِثُ الذِّلّة والقِلّة، وتُقِلُّ العَدَد، وتفرّق الجَمْع، وتَذَرُ الديار بَلاقِع، وتُذْهِب المال، وتُطْمِع العدوَّ، وتُبدي العَوْرة.

يا بنيَّ، قَوْمكم قومَكم: إنّه ليس لكم فَضْل عليهم، بل هم أفضل منكم، إذ فضّلوكم وسوّدوكم، أَوْطَأوا أعقابكم، وبَلّغوا حاجتَكُمْ فيما أردتم وأعانوكم؛ فإن طَلَبُوا فَأَطْلِبُوهم، وإن سألوا فأعطوهم، وإن لَمْ يَسْلُوا فابتدِئوهم، وإن شَتَمُوا فاحتملوهم، وإن غَشُوا أبوابكم فلْتُفْتح لهم ولا تُغْلق دونهم.

يا بنيَّ، إني أحب للرجل منكم أن يكون لِفِعْلِهِ الفضلُ على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانِهِ الفضلُ على فعلهِ.

يا بنيَّ، اتّقُوا الجوابَ، وزلَّةَ اللسان: فإني وجدتُ الرجل تَعثُرُ قدمُه فيقوم من زَلّته وينتعِش منها سَوِيّاً، ويزلُّ لسانُه فيُوبِقه ويكون فيه هَلَكَتُهُ.

يا بنيَّ، إذا غدا عليكم رجل ورَاحَ فكفى بذلك مَسألةً وتَذْكِرَةً بنفسِه.

يا بنيَّ، ثِيابُكم على غيرِكم أجملُ منها عليكم، ودوَابُكم تحت غيركم أجمل منها تحتكم.

يا بنيَّ، أحبُوا المعروف، وأنكرُوا المُنْكَر واجتنبوه؛ وآثِروا الجودَ على البُخل؛ واصطَنِعوا العَرَبَ وأكرِموهم، فإن العربي تَعِدُهُ العِدَةَ فَيَموت دونك، ويشكر لك، فكيفَ بالصَّنيعة إذا وصلتْ إليه في احتماله لها وشكره، والوفاءِ منه لصاحبها؟.

يا بنَيَّ، سَوِّدُوا أكابرَكُم، واعرِفُوا فضل ذوِي أَسنانكم؛ وارحموا صغيرَكم وقرِّبوه وألطِفُوه، وأجبرُوا يَتِيمَكُم وعُودوا عليه بما قَدَرْتُم؛ ثم خذوا على أيدي سُفهائكم، وتعاهدوا فُقراءَكم وجيرانكم بما قَدَرتم عليه؛ واصبروا للحقوقِ ونوائبِ الدُّهور؛ واحذروا عارَ غَدٍ؛ وعليكم في الحرب بالأناة والتُّؤَدَةِ في اللِّقاءِ، وعليكم بالتماس الخديعة في الحرب لعدوِّكم؛

وإياكُمْ والنزَقَ والعَجَلة، فإن المكيدةَ والأَناةَ والخديعةَ أنفعُ من الشجاعة والشِّدَّة.

واعلموا أنَّ القِتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللّقاء، نزَل القضاء المبرم. فإن ظَفِر المرء وقد أخذ بالحَزْم قال القائلُ: قد أتى الأمرَ مِنْ وجهه؛ وإن لم يظفَرْ قال: ما ضيَّع ولا فرَّطَ؛ ولكنَّ القضاءَ غالب.

يا بنيَّ، الزَمُوا الحزمَ على أيِّ الحالين وقع الأمر؛ والزموا الطاعةَ والجماعةَ؛ وتَوَاصلوا وتوازَروا وتَعاطفُوا، فإنَّ ذلك يُثبِّتُ المودَّة، وتحابُّوا؛ وخُذُوا بما أُوصيكم به بالجِدِّ والقوَّة والقيامِ به والتعهُّد له، وتَرْكِ الغَفلة عنه، تَظْفَروا بدنياكم ما كنتم فيها، وآخرتِكم إذا صرتم إليها، ولا قوَّة إلا بالله.

يا بنيَّ، وليكُنْ أوَّلَ ما تَبْدَأونَ به أنفسَكُم إذا أصبحتم تَعَلُّمُ القرآنِ والسننِ، وأداء الفرائض؛ وتأدَّبوا بأدَب الصالحين مِنْ قبلكم مِنْ سَلَفِكُمْ؛ ولا تُقاعدوا أهل الدَّعارَة والرِّيبةِ، ولا تُخالطوهم، ولا يَطمعُنَّ في ذلك منكم. وإيَّاكم والخفَّةَ في مجالسكم وكثرةَ الكلام، فإنَّهُ لا يَسْلَمُ منه صاحبهُ. وأدُّوا حقَّ الله تعالى عليكم، فإني قد أبلغتُ إليكم في وصيَّتي، واتخذتُ الله حجَّةً عليكم(١).

***

{٨٢} الصنابحي التابعي

كان أبو عبدالله عبدالرحمن بن عُسيلة الصُنابحي فقيهاً ومحدثاً، قدم المدينة بعد وفاة النبي ﷺ بليال، وصلى خلف الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وحدَّث عنه وعن معاذ وعبادة وطائفة.

قال محمود بن الربيع: كنا عند عبادة بن الصامت، فأقبل الصنابحي،

(١) لباب الآداب/ أسامة بن منقذ.. بيروت: دار الكتب العلمية، ص٢٩ ـ ٣١.

فقال عبادة: من سرّه أن ينظر إلى رجلٍ كأنما رُقي به فوق سبع سماواتٍ فعمل على ما أرى، فلينظر إلى هذا.

وقال أبو عبدالرب: قال لنا الصنابحي بدمشق وقد احتُضر[1].

***

{٨٣} وصية طبيب حاذق

كان تياذوق طبيباً مشهوراً، عُمِّر، وصحب الحجاج بن يوسف وخدمه بصناعة الطب، وكان له عنده راتب وافر.

قال إبراهيم بن القاسم الكاتب: لما حضرته الوفاة دخلتُ عليه أعوده فقال: الزم ما كنتُ وصيتك به، وما نسيت منها فلا تنس: لا تشربنَّ دواءً حتى تحتاج إليه، ولا تأكلن طعاماً وفي جوفك طعام، وإذا أكلت فامشِ أربعين خطوة، وإذا امتلأت من الطعام فنم على جنبك الأيسر، ولا تأكلن الفاكهة وهي مولية، ولا تأكلن من اللحم إلا فَتِيّاً، ولا تنكحنَّ عجوزاً، وعليك بالسواك، ولا تتبعن اللحم اللحم، فإن إدخال اللحم على اللحم يقتل الأسود في الفلوات[2].

***

{٨٤} إذا وجد..!

لمّا احتُضر العُجير السَّلولي[3] قال لقوم عنده: أنا في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، والله لئنْ وجدتُ لي عند الله موضعاً لأكلمنَّهُ فيكم[4]!.

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٥٠٧. وكان في وقت عبدالملك بن مروان.
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/١٨٠.
(٣) من شعراء الدولة الأموية، أورد له أبو تمام مختارات في الحماسة، توفي نحو ٩٠هـ.
(٤) عيون الأخبار ٢/٤٩.

{٨٥} سيّد التابعين

سعيد بن المسيِّب المخزومي كان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، سيد التابعين، جمع بين العلم والورع، مات بالمدينة المنورة سنة ٩٤هـ.

دعا ابنه محمداً وهو يجود بنفسه فقال: يا محمد، إني أوصيك بثلاث لا تعملنَّ بعد موتي شيئاً منها: لا تُتبعوني بنار فبئس المشيِّعُ للجنازة، ولا يؤذِّنَنَّ بالمسجد: رحم الله من شهد سعيد بن المسيب، حسبي من يحملني إلى ربي عزّ وجل ولو أربعة. ولا تخلينَّ بيني وبين باكيةٍ تبكي عليَّ، لا حاجة لي فيها تكذبُ عليَّ وتقولُ كان وكان[١].

***

{٨٦} المنجيات أربعة..

ذكر أن التابعي الجليل سعيد بن جبير (ت٩٥هـ) رحمه الله قال في وصيته عند الموت:

المنجيات أربعة: صومٌ من غير غيبة، وصلاةٌ من غير سهو، وقلبٌ بلا خبالة[٢]، وقوتٌ من الحلال[٣].

***

{٨٧} الحجّاج بن يوسف

لمّا احتضر الحجاج بن يوسف الثقفي قال:

والله لئن كنتُ على سبيلِ هدًى فليس حين جَزَع، وإن كنتُ على سبيلِ ضلالةٍ فليس حين فَزَع[٤].

(١) وصايا العلماء لابن زبر ٨١/١.

(٢) من معاني الخبال: الكلُّ والعناء.

(٣) تهذيب خالصة الحقائق ٢١٣/١.

(٤) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٣٧٣/٣، بغية الطلب في تاريخ حلب ٢٠٩١/٥.

وقال أحمد بن عبيد في «أخبار الحجاج بن يوسف» إنه لما حضرته الوفاة وأيقن بالموت قال: أسندوني. وأذنَ للناس فدخلوا عليه، فذكر الموت وكربه، واللحد ووحشته، والدنيا وزوالها، والآخرة وأهوالها، وكثرة ذنوبه، وأنشأ يقول:

إن ذنبي وزنُ السماوات والأر ... ضِ وظني بخالقي أن يحابي
فلئن منَّ بالرضا فهو ظني ... ولئن مرّ بالكتاب عذابي
لم يكن ذاك منه ظلماً وهل ... يظلم ربٌّ يُرجى لحسن مآبِ

ثم بكى وبكى جلساؤه، ثم أمر الكاتب أن يكتب إلى الوليد بن عبدالملك بن مروان: أما بعد، فقد كنتُ أرعى غنمك، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه، فجاء الأسد فبطش بالراعي ومزّق المرعى كلَّ ممزّق، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر، وأرجو أن يكون الجبارُ أراد بعبده غفراناً لخطاياه، وتكفيراً لما حمل من ذنوبه. ثم كتب في آخر الكتاب:

إذا ما لقيت الله عني راضياً ... فإن شفاء النفسِ فيما هنالك[1]

وذُكر أنه لمّا قاربه الموتُ سئل: على أيِّ حالٍ تخرجُ من الدنيا؟

قال: على ثلاثة:

أحدها: أرجو أن يُخرجني الله تعالى من الدنيا على التوحيد.

وثانيها: أني حججتُ وطفتُ بالكعبة، لما قال النبي ﷺ: **«من طافَ بهذا البيت أسبوعاً فأحصاهُ كان كعتقِ رقبة»**[2].

وثالثها: أرجو شفاعة نبيِّنا ﷺ، فإنه قال: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**[3].

---

(١) الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي ١٧٤/٢.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك ٤٨٩/١ وقال: صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
(٣) رواه الترمذي (٢٤٣٥) وقال: حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم ١٩٨٣.

وقال الأصمعي: أنشد الحجاج لما احتُضر:

يا ربِّ قد حلفَ الأعداءُ واجتهدوا ... بأنني رجلٌ من ساكني النارِ

أيحلفون على عمياءَ ويحهمُ ... ما علمهم بعظيمِ العفوِ غفَّارِ

فأُخبر الحسن البصري بذلك فقال: إن نجا فبهما[1].

***

{٨٨} الصمّة القشيري

شاعر بدوي وعاشق متيم، هو الشاعر الأموي الصمَّة بن عبدالله القشيري، الذي انتهى إلى أن يخرج غازياً إلى بلاد الديلم، فمات في طبرستان سنة **٩٥هـ**.

وعن رجل من أهل طبرستان قال: بينا أنا أمشي في ضيعة لي فيها ألوان من الفاكهة والزعفران، إذا أنا بإنسانٍ مطروح عليه أثواب خلقان، فدنوتُ منه، فإذا هو يتحرك ويتكلم، فأصغيت إليه فإذا هو يقول بصوتٍ خفي:

تعزَّ بصبرٍ لا وربِّك لا ترى ... سنام الحمى أُخرى الليالي الغوابرِ

كأن فؤادي من تذكُّره الحِمىٰ ... وأهلِ الحمى يهفو به ريشُ طائرِ

فما زال يردِّدُ هذين البيتين حتى فاضت نفسه، فسألتُ عنه فقيل لي: هذا الصمة بن عبدالله القشيري[2].

***

{٨٩} الوليد بن عبدالملك

مما لم يذكره ابن أبي الدنيا عن الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك (**ت٩٦هـ**) أنه لما حضرته الوفاة قال:

---

(١) سمط النجوم العوالي ٣/٣٠٠.

(٢) الوافي بالوفيات ١٦/٣٣٣.

ما أبالي بفراق الحياة بعدما فتحتُ السند والأندلس، وبنيتُ جامع دمشق، وأغنيتُ العُميان عن عيونهم[1].

* * *

{٩٠} ليته لم يبكِ!

عبيدالله بن سُريج كان من أشهر المغنين في صدر الإسلام، من أهل مكة، أول من ضرب بها على العود بالغناء العربي، مات سنة ٩٨هـ.

لما حضرته الوفاة نظر إلى ابنته وبكى، فقالت: وما يبكيك؟ قال: أخشى عليكِ الضيعة بعدي! قالت: لا تخف، فما من شيء غنيتَهُ إلا وقد أخذتهُ عنك. فقال: غنِّيني. فغنَّته، فقال: طابت نفسي!.

ودعا سعيد بن مسعود الهذلي (مطرب آخر) فزوَّجه بها، فأخذ الهذلي غناء أبيها كله عنها، وانتحل أكثره[2].

* * *

{٩١} سليمان بن عبدالملك

مما لم يذكره ابن أبي الدنيا عن الخليفة سليمان بن عبدالملك (ت٩٩هـ) الذي ختم أيامه بتولية عمر بن عبدالعزيز خليفة للمسلمين، ما قاله رجاء بن حيوة قال:

دخلتُ على سليمان فإذا هو يموت، فجعلتُ إذا أخذته سكرة من سكرات الموت حرفتهُ إلى القبلة، فيقول حين يفيق: لم يأنِ بعد. ففعلتُ

(١) وكان يختن الأيتام ويرتب لهم المؤدبين، ورتب للزمنى والأضرّاءِ من يقودهم ويخدمهم... الوافي بالوفيات ٢٧/٢٧٠.

(٢) المصدر السابق ١٥/٢٦١.

ذلك مرتين أو ثلاثاً، فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء إن كنتَ تريد شيئاً، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فحرفته، فمات[1].

* * *

{٩٢} حرام.. فموت

غلَّ رجلٌ مائة دينار[2]، فلما حضرته الوفاة أوصى أن يسأل عنها ابن محيريز، فما قال فيها من شيءٍ حتى عملَ به. فلمّا مات لقيه الوصيُّ فقال له ابن محيريز: سَلْ غيري. فقال له الرجل: إنما أُمرتُ أن أسألك ولا أسأل غيرك. فقال له ابن محيريز: هل تستطيع أن تجمع ذلك الجيش؟ فقال له الرجل: لا، وكيف وقد تفرَّقوا؟ قال: فلا شيء إلا ذلك[3]!.

* * *

{٩٣} تعصب قبلي

قال أبو بركة الأشجعي: حضرت امرأةً من بني نُمير الوفاة، فقيل لها: أوصي، فقالت: نعم، خبروني من القائل:

لعمرك ما رماحُ بني نمير ... بطائشة الصدور ولا قصارُ؟

(١) الكامل في التاريخ ٣١٣/٤.
(٢) أي أخذها بغير إذن أمير الجيش من المغانم (خان في المغنم).
(٣) تاريخ مدينة دمشق ٢١/٣٣.
وعبدالله بن محيريز الجمحي كان عابد الشام في زمانه. ووفاته سنة ٩٩هـ. قال رجاء بن حيوة: إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر، فإنا نفخر عليهم بعابدنا ابن محيريز، وإن كنتُ لأعدُّ بقاءه أماناً لأهل الأرض. العبر ٨٨/١.

فقيل لها: زياد الأعجم.

فقالت: أشهدكم أن له ثلث مالي.

فحُمل له من ثلثها أربعة آلاف درهم[1]!.

* * *

{٩٤} الحب في الدنيا وعواقبه الوخيمة

قال العتبي: كان عند خالد بن عبدالله ذات ليلة فقهاء من أهل الكوفة فيهم أبو حمزة الثمالي، إذ قال خالد: حدِّثني حديثاً كحديث عشيقٍ ليس فيه فحش، فقال أبو حمزة الثمالي: أصلح الله الأمير، زعموا أنّه ذكر عند هشام بن عبدالملك غدرُ النساء وسرعةُ تزويجهن، فقال هشام: إنّه ليبلغني من ذلك العجب، فقال بعض جلسائه أنا أحدثكم عما بلغني من ذلك.

بلغني أنّ رجلاً من بني يشكرٍ يُقال له: غسان بن جهضم بن العذافر، كانت تحته ابنةُ عمٍّ له يُقال لها: أُم عقبة بنت عمرو بن الأبجر، وكان لها محباً، وكانت له كذلك، فلمّا حضره الموت، وظن أنّه مفارق الدنيا قال ثلاثة أبيات، ثم قال لها: يا أُم عقبة، اسمعي ما أقول، وأجيبيني بحق، فقد تاقت نفسي إلى مسألتك عن نفسك بعدما تواريني التراب، فقالت: قل، فوالله لا أجيبك بكذب، ولأجعلنّه آخر حظك مني، فقال وهو يبكي بكاء يكاد يمنعه الكلام:

أخبريني ماذا تريدين بعدي ... والذي تضمرين يا أُمَّ عقبه
تحفظيني من بعد موتي لما قد ... كان مني من حسن خلق وصحبه
أم تريدين ذا جمالٍ ومال ... وأنا في التراب في سجن غربه

(١) تاريخ دمشق الكبير ٢١/١٠٢ ـ ١٠٣ .ووفاة زياد الأعجم نحو ١٠٠هـ.

فأجابته ببكاء وانتحاب:

قد سمعنا الذي تقولُ وما قد ... خفتَهُ يا غسانُ من أمّ عقبه
أنا مِن أحفَظِ النساءِ وأرعاه ... لما قد أوليت من حسن صحبه
سوف أبكيك ما حييت بشجوٍ ... ومراثٍ أقولها وبندبه

قال: فلمّا قالت ذلك، طابت نفسه، وفي النفس ما فيها فقال:

أنا والله واثق بك لكن ... ربما خفتُ منك غدر النساء
بعد موت الأزواج يا خير من عو ... شر فارعي حقي بحسن الوفاء
إنني قد رجوت أن تحفظي العهـ ... ـد فكوني إن مت عند الرجاء

ثم اعتقل لسانه، فلم ينطق حتى مات.

فلم تلبث بعده إلاّ قليلاً حتى خطبت من كلّ جانب، ورغب فيها الأزواج لاجتماع الخصال الفاضلة فيها، من العقل والجمال والعفاف والحسب، فقالت مجيبة لهم:

سأحفظ غساناً على بعد داره ... وأرعاه حتى نلتقي يوم نحشرُ
وإنّي لفي شغل عن الناس كلّهم ... فكفوا، فما مثلي بمن مات يغدرُ
سأبكي عليه ما حييت بعبرة ... تجول على الخدين مني فتكثرُ

فأيس الناس من إجابتها، فلمّا مرت بها الأيام نسيت عهده، وقالت: من مات فقد فات، فأجابت بعض خطابها فتزوجها، فلمّا كانت الليلة التي أراد الدخول بها، جاءها غسان في النوم، وقد أغفت، فقال:

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمة ... ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب ... حلفت له يوماً ولم تنجزي وعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه ... كذلك ينسى كلّ من يسكن اللحدا

فلمّا قال هذه الأبيات تنبهت مرتاعة مستحيية منه، كأنّه بات معها في

جانب البيت، وأنكر ذلك من حضرها من نسائها فقالت: ما لك؟ وما حالك؟ وما دهاك؟ فقالت: ما ترك غسان لي في الحياة إرباً، ولا بعده في سرور رغبة، أتاني في منامي الساعة فأنشدني هذه الأبيات، ثم أنشدتها وهي تبكي بدمع غزير، وانتحاب شديد، فلمّا سمعن منها، أخذن بها في حديث آخر لتنسى ما هي فيه، فتغافلتهن ثم قامت فلم يدركنها حتى ذبحت نفسها حياء مما كادت تركب بعده من الغدر به، والنسيان لعهده[1].

---

(١) الأمالي لأبي علي القالي ٢/٢٠٥، تاريخ مدينة دمشق ١٦٥/٧٢، ذم الهوى لابن الجوزي ١/٥٧٠.

القرن الثاني

{٩٥} يبتسم بعد الموت!

ثلاثة إخوة أبناء حِراش العبسي، أولهم: مسعود الذي لم يُروَ عنه شيء إلا كلامه بعد الموت!.

والثاني: «ربيع» آلىٰ ألاّ يفترّ ضاحكاً حتى يعلم أين مصيره، فما ضحك إلا بعد موته!.

وثالثهم: «رِبعي» تابعيٌ ثقة، من خيار الناس، لم يكذب كذبة قط، كان له ابنان عاصيان على الحجّاج، فقيل للحجاج: إن أباهما لم يكذب كذبةً قط، لو أرسلتَ إليه فسألتَهُ عنهما، فأرسل إليه فقال: أين ابناك؟ فقال: هما في البيت! قال: قد عفونا عنهما بصدقك!.

قال الحارث الغنوي: آلىٰ ربعي ألاّ يضحك حتى يعلمَ أفي الجنة هو أو في النار؟ قال: فلقد أخبرني غاسلهُ أنه لم يزل مبتسماً على سريره ونحن نغسله حتى فرغنا!.

وكانت وفاته سنة (١٠٠هـ)[١].

* * *

(١) تهذيب الكمال ٥٦/٩.

{٩٦} القاسم بن مُخَيمِرة

القاسم بن مخيمرة الهمداني من رجال الحديث، وثقه ابن سعد، وكان مؤذِّناً أو مؤدِّباً، انتقل إلى الشام مرابطاً فمات هناك سنة ١٠٠هـ.

ذكر محمد بن عبدالله الشُّعيثي أنه كان يدعو بالموت، فلما حضره الموت قال لأمّ ولده: إني كنتُ أدعو بالموت فلما نزل بي كرهته[١]!.

* * *

{٩٧} عمر بن عبدالعزيز

مما لم يذكره ابن أبي الدنيا عن وفاة الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله (ت١٠١هـ) أنه لما احتُضر قيل له: اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة. قال: بماذا أوصيه؟ إنه من بني عبدالملك!.

ثم كتب إليه: أما بعد، فاتَّقِ يا يزيدُ الصرعةَ بعد الغفلة، حين لا تُقَالُ العثرة، ولا تقدرُ على الرجعة، إنك إن تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتصيرُ بعد الغفلةِ إلى من لا يعذرك، والسلام[٢].

* * *

{٩٨} احذر إبليس

قال عطاء بن يسار رحمه الله:

تبدّى إبليس لرجلٍ عند موته فقال: نجوت!.

قال: ما أمنتك بعدُ[٣]!.

* * *

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٠٣/٦، سير أعلام النبلاء ٢٠٣/٥، وصايا العلماء ١٠٤/١.

(٢) الكامل في التاريخ ٣٣١/٤، تاريخ ابن خلدون ٩٦/٣.

(٣) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٣٧٢/٣.

{٩٩} أسلم قبيل الموت

روي عن الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: دخلتُ على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت، وكان منزلُه بإزاء منزلي، وكان حَسَنَ الجوار، حسنَ السِّيرة، حسنَ الأخلاقِ، فرجوتُ أنَّ الله يوفِّقُه عند الموت، ويميتُه على الإسلام، فقلت له: ما تجد، وكيف حالُك؟.

فقال: لي قلب عليل ولا صحّة لي، وبدنٌ سقيمٌ ولا قوّة لي، وقبر مُوحِشٌ ولا أنيسَ لي، وسَفَرٌ بعيد ولا زاد لي، وصِراطٌ دقيقٌ ولا جَواز لي، ونارٌ حاميةٌ ولا بدنَ لي، وجنَّةٌ عالية ولا نصيب لي، وربٌّ عادل ولا حُجَّةَ لي.

قال الحسن: فرجوتُ الله أن يوفِّقَه، فأقبلتُ عليه، وقلت له: لم لا تُسلِم حتى تَسلمَ؟ قال: يا شيخُ، إنَّ المِفتاح بيدِ الفتّاح، والقُفَل هاهنا، وأشار إلى صدرِه، وغُشِيَ عليه.

قال الحسن: فقلت: إلهي وسيِّدي ومولاي، إن كان سبقَ لهذا المجوسي عندك حسنة فعجِّل بها إليه قبل فراق روحه من الدنيا وانقطاع الأمل.

فأفاق من غشيته وفتح عينيه، ثم أقبل وقال: يا شيخ، إن الفتّاح أرسل المفتاح، امدُدْ يمناك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم خرجت روحه وصار إلى رحمة الله[1].

* * *

{١٠٠} وصية الأنبياء

قال مالك بن ضيغم: لما احتُضر أبي[2] قلنا له: ألا توصي؟.

قال: بلى، أوصيكم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ

(١) بحر الدموع لابن الجوزي ص٢٨.

(٢) هو ضيغم بن مالك الراسبي، الزاهد القدوة الرباني، أخذ عن التابعين، كان من الخائفين البكائين، صلّى حتى انحنى... توفي سنة ١٠٨هـ. سير أعلام النبلاء ٨/٤٢١، صفة الصفوة ٣/٣٥٧.

﴿ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. أوصيكم بصلة الرحم، وحسن الجوار، وفعل ما استطعتم من المعروف، وادفنوني مع المساكين[١].

* * *

{١٠١} الحرص على الوضوء

كرز بن وبرة الحارثي التابعي الجليل، الذي يُضرب به المثل في التعبُّد، كوفي، دخل جرجان غازياً، ثم سكنها وتوفي بها نحو ١١٠هـ.

توضَّأ في الليلة التي مات فيها ثماني مرات، حرصاً على أن يموت وهو متوضِّىء[٢].

* * *

{١٠٢} بكر المزني

التابعي الجليل، البصري الفقيه، الناصح الزكي، الواثق الغني، أبو عبدالله بكر بن عبدالله المزني، مات سنة ١٠٨هـ.

قال أبو حرة: دخلنا على بكر بن عبدالله المزني نعوده في مرضه الذي مات فيه، فرفع رأسه فقال: رحم الله عبداً رزقه الله قوة فأعمل نفسه في طاعة الله عزَّ وجلَّ، أو قصر به ضعف فلم يعملها في معاصي الله[٣].

* * *

---

(١) عيوان الأخبار ٢/٣١٢.

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ١/١٧٥، الأعلام ٦/٧٥.

(٣) حلية الأولياء ٢/٢٢٥.

{١٠٣} الحسن البصري

في وفيات الأعيان لابن خلكان[1] أن الواعظ الجليل والتابعي الكريم الحسن البصري، أغمي عليه عند موته، ثم أفاق فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم!.

***

{١٠٤} ابن سيرين إمام وقته

التابعي الجليل محمد بن سيرين، المشهور بالورع وتعبير الرؤيا، كان إمام وقته في علوم الدين.. مات رحمه الله سنة ١١٠هـ.

قال ابن عوف: لما حضرت الوفاة محمد بن سيرين قال لابنه: يا بني، اقضِ عني وتقضَّ عني إلا الوفاء.

قال: يا أبت أعتق عنك؟ قال: إن الله تعالى لقادر أن يأجرني وإياك فيما صنعت من خير[2].

***

{١٠٥} الفرزدق

مما لم يوضّحه ابن أبي الدنيا في كتابه «المحتضرين» أو لم يورده عن الفرزدق، الشاعر الهجّاء المشهور، أنه كان قد دبَّر عبيداً له وأوصى بعتقهم بعد موته، ويُدفعُ شيءٌ من مالهِ إليهم، فلما احتضر جمع سائر أهل بنيه وأنشأ يقول:

---

(١) ٧٢/١.

(٢) حلية الأولياء ٢٦٦/٢.

أروني من يقومُ لكم مقامي إذا ما الأمرُ جلَّ عن الخطابِ
إلى من تفزعون إذا حثوتم بأيديكم عليَّ من الترابِ

فقال له بعضُ عبيده الذين أمر بعتقهم: إلى الله.

فأمر ببيعه قبل وفاته، وأبطل وصيته فيه. والله أعلم.

وقيل له في مرضه الذي مات فيه: أوص. فقال:

أوصي تميماً إن قضاعة ساقها ندى الغيث عن دار بدومة أو جدبِ
فإنكم الأكفارُ والغيثُ دولة يكون بشرق من بلاد ومن غربِ
إذا انتجعتْ كلبٌ عليكم فوسّعوا لها الدار في سهل المقامة والرحب
فأعظمُ من أحلام عادٍ حلومُهمْ وأكثرهم عند العديد من الترب
أشدُّ حبالٍ بعد حيين مرة حبال أمرت من تميم ومن كلب

وتوفي ابن صغير له قبل وفاته بأيام، وصلى عليه، ثم التفت إلى الناس فقال:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلاً بعدهم وتقدّموا

فلم يلبث إلا أياماً حتى مات، سنة ١١٠هـ(١).

* * *

{١٠٦} أمير.. شهيد

كان الجرّاح بن عبدالله الحكمي أمير خراسان وأحد الأشراف الشجعان، ولي البصرة للحجاج، ثم خراسان وسجستان لعمر بن عبدالعزيز...

(١) ينظر الأغاني للأصفهاني ١٠/٣٨٧.

وبعد أن عُزل انصرف إلى الغزو والفتح، فاستشهد غازياً بمرج أردبيل، حيث قتله الخزر سنة ١١٢هـ.

وذكر أبو مسهر أنه قال لأصحابه يوم قُتل: أيها القواد وأمراء الأجناد، فيم اهتمامكم؟ غدوتم أمراء، وتروحون شهداء، اللّهم إذْ رفعتَ عنا النصرَ فلا تحرمنا الصبر والأجر، ثم قال:

لم يبقَ إلا حَسَبي وكفني وصارمٌ تلذُّهُ يميني

وقاتل حتى قُتل(١).

* * *

{١٠٧} رجاء بن حيوة

كان رجاء بن حيوة شيخ أهل الشام في عصره، عالماً وواعظاً فصيحاً، لازم الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، وكانت وفاته سنة ١١٢هـ.

ولما احتُضر جعل يقول: اللّهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحبَّ لما عجلتَ تأخيراً، ولا لما أخرتَ تعجيلاً.

فما زال يقول ذلك حتى مات(٢).

* * *

{١٠٨} يبكي.. ثم يضحك!

مكحول بن شهراب الشامي، الحافظ المحدِّث، فقيه الشام في عصره.

---

(١) تاريخ دمشق الكبير ٦/١١.

(٢) البداية والنهاية ٢١٥/٩ (طبعة مكتبة المعارف ببيروت).

كان لا يُرى إلا باكياً! ثم دُخل عليه في مرض موته وهو يضحك، فقيلَ له في ذلك؟ فقال:

ولـِمَ لا أضحك وقد دنا فراقُ مَنْ كنتُ أحذره، وسرعةُ القدوم على مَنْ كنتُ أرجوهُ وأؤمله؟!.

وكانت وفاته رحمه الله ١١٢هـ(١).

* * *

{١٠٩} عون بن عبدالله

عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي الزاهد، كان من آدب أهل المدينة وأفقههم.. وكان يحدِّث ولحيته تَرْتَشُ بالدموع.. توفي نحو ١١٥هـ.

روى سفيان بن وكيع بن الجراح عن أبيه: بلغني أن عون بن عبدالله لما حضرته الوفاةُ أوصى بضيعةٍ له أن تُباع وأن يُتصدَّق بها عنه، فقيل له: تَصَدَّقُ بضيعتك وتدعُ عيالك؟

قال: أقدِّم هذه لنفسي، وأَدَعُ الله لعيالي.

وذكر أبو أسامة أنه لم يكن في المسعوديين أحدٌ أحسن حالاً من ولد عون بن عبدالله(٢).

* * *

{١١٠} حنين وبكاء

روى الأخباري الأديب عبدالملك بن قريب الأصمعي، أن جدَّه عليَّ بن

(١) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٣، الأعلام ٢١٢/٨، تهذيب خالصة الحقائق ٦٧٧/٢.

(٢) تهذيب الكمال ٤٥٨/٢٢.

أصمع لمّا حضرتْهُ الوفاة، جمع بنيه فقال: أي بَنيّ، عاشروا الناس معاشرةً إن عشتم حَنُّوا إليكم، وإن متُّم بَكَوا عليكم[1].

* * *

{١١١} جريح وماء

عن عمر بن الحكم قال: رأيتُ رجلاً من أهل المدينة به تسع جراحات، كلُّها قد خلصت إلى مقتل، فقال: هل أنت محسنٌ ومجملٌ فينا في شربة من ماء؟

فأتيتُ منزلاً لراعٍ، فأخذتُ له إناء من ماء، فجئته به وبه رمق، فقال: سقاك الله. فشرب، فرأيتُ الماء يخرجُ من اثني عشر موضعاً! ثم قال: أخْزِ ذلك. اللّهم هذا فيك. ثم طُفِىء[2].

* * *

{١١٢} ذو الرمة

مما لم يذكره ابن أبي الدنيا عن الشاعر ذي الرمة رحمه الله (ت١١٧هـ) قوله لما احتضر: لقد هِمْتُ بميٍّ[3] عشرين سنة في غير ريبة ولا فساد[4].

وقال عيسى بن يونس: احتضر ذو الرمة بأصبهان بمدينة جي، فرفع رأسه إلى الذي كان عند رأسه فقال: هذا والله يوم، لا يوم أقول:

---

(١) مراقي الجنان لابن عبدالهادي رقم ٨٥.

(٢) صيد الكتب/ محمد خير يوسف، ص١٣٠، نقلاً من كتاب المحن لأبي العرب.

(٣) وهي التي كان يتشببُ بها في شعره.

(٤) روضة المحبين ٣٣٧/١.

كأني غداة الزرق يا ميُّ مدنف   أعالجُ نفساً قد أتاها حُمامها

اللّهم إني لا قويٌّ فأنتصر، ولا بريءٌ فأعتذر، ولكن لا إله إلا أنت. ثم مات(١).

* * *

{١١٣} دجال ومتنبىء

«المغيرية» هم أتباع المغيرة بن سعيد البجلي الكوفي، الذي قال بتأليه علي، وتكفير أبي بكر وعمر وسائر الصحابة إلا من ثبت مع علي، وزعم أنه لو أراد أن يحيي عاداً وثموداً لفعل!.

وفي إمارة خالد بن عبدالله القسري خرج بالكوفة داعياً لمحمد بن عبدالله بن الحسن، وكان يقول: هو المهدي، فظفر به خالد وصلبه وأحرق بالنار خمسة من أتباعه، في سنة **١١٩هـ**.

وقد أمر أولاً برجل من أصحابه فضربت عنقه، ثم قال للمغيرة: أحيه. فقال: والله ما أحيي الموتى، قال: لتحيينّه أو لأضربنّ عنقك! قال: لا والله ما أقدر على ذلك.

ثم أمر ببطن قصب فأضرموا فيه ناراً، ثم قال للمغيرة: اعتنقه. فأبى. فعدا رجل من أصحاب المغيرة فاعتنقه.

قال أبو بكر بن عياش: فرأيتُ النار تأكله وهو يشير بالسبابة! قال خالد: هذا والله أحق بالرئاسة منك. ثم قتله وقتل أصحابه.

وأتى خالد برجل تنبأ بالكوفة، فقيل له: ما علامة نبوتك؟ قال: قد أنزل عليّ قرآن. قيل: ما هو؟ قال: إنا أعطيناك الجماهر، فصلِّ لربك ولا تجاهر، ولا تطع كل كافر وفاجر.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٨٥/٤٨.

فأمر به فصُلب، فقال وهو يصلب:

إنا أعطيناك العمود، فصل لربك على عود، فأنا ضامن لك ألا تعود[1]!.

* * *

{١١٤} الجرادة الصفراء

«الجرادة الصفراء» لقب مسلمة بن عبدالملك الأمير الأموي الذي كان موصوفاً بالشجاعة والإقدام والرأي والدهاء، ولي إمرة أرمينيا وأذربيجان غير مرّة، وإمرة العراقين. مات سنة ١٢١هـ.

لما حضرته الوفاة أوصى بثلث ماله لأهل الأدب، وقال: صناعة مجفوٌ أهلها[2]!.

* * *

{١١٥} كيف يكون البيع؟

كثير بن زياد البصري كان من تلاميذ الإمام الحسن البصري، وثقه أبو حاتم.

قيل له حين حضره الموت: أوصنا.

قال: تبيعون دنياكم بآخرتكم تربحونهما والله جميعاً، ولا تبيعوا آخرتكم بدنياكم فتخسرونهما والله جميعاً[3].

* * *

(١) تاريخ دمشق الكبير ١٨/١٠٣، الأعلام ٧/٢٧٦.
(٢) صيد الكتب/ محمد خير يوسف، ص١٧٢ نقلاً من كتاب مواسم الأدب للبيتي.
(٣) وصايا العلماء لابن زبر الربعي ١/٨٦، تاريخ الإسلام ٣/٤٨٤ (أورده في الطبقة الثالثة عشرة ١٢١ ـ ١٣٠هـ).

{١١٦} أمنية شاعر فحل

يعدُّ الطِّرِمّاحُ بن حكيم شاعراً إسلامياً فحلاً، ولد ونشأ بالشام وانتقل إلى الكوفة، اعتقد مذاهب «الشراة» من الأزارقة. وكان هجّاءً، معاصراً للكميت صديقاً له، توفي نحو سنة ١٢٥هـ.

يقول في شعر له:

فيا ربِّ لا تجعلْ وَفاتيَ إنْ أتَتْ ... على شَرْجَعٍ يُعلى بِدُكنِ المَطارفِ(١)

ولكن شهيداً ثاوياً في عِصابةٍ ... يُصابونَ في فَجٍّ من الأرضِ خائفِ

إذا فارَقُوا دنياهُمُ فارَقوا الأذى ... وصاروا إلى مَوْعودِ ما في الصحائفِ

فأقتل قَعْصاً ثمّ يُرمَىٰ بأعْظُمي ... مفرقةً أوصالُها في التنائفِ(٢)

ويصبحَ قبري بطن طير مَقيلُهُ ... بِجَوّ السّماء فِي نُسورٍ عواكفِ(٣)

***

{١١٧} الكميت الأسدي.. والندم

الكميت بن زيد الأسدي شاعر شيعي من أهل الكوفة، منحاز إلى بني هاشم، كثير المدح لهم، عارف بآداب العرب ولغاتها، خطيب بني أسد. مات سنة ١٢٦هـ.

قال ابنه المستهل: حضرتُ أبي عند الموت وهو يجودُ بنفسه، ثم أفاق، ففتح عينيه، ثم قال: اللّهم آل محمد، اللّهم آل محمد، اللّهم آل محمد. ثم قال: يا بني، وددتُ أني لم أكن هجوت نساء بني كلب بهذا البيت:

مع العضروط والعسفاء ألقوا ... برادعهنَّ غير محصنينا

---

(١) الشرجع: النعش. يعلى بدكن المطارف: يلفُّ بالأغطية الداكنة.

(٢) قعصاً: طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف. التنائف: الصحاري.

(٣) الأعلام ٤/٣٢٥، شعراء رثوا أنفسهم ص١٢٨.

فعممتهنّ قذفاً بالفجور، والله ما خرجتُ بليلٍ قطُّ إلا خشيتُ أن أُرمى بنجوم السماءِ لذلك[1]!.

* * *

{١١٨} بطالة وعصيان

قال مالك بن دينار: دخلت على جارٍ لي وهو في الغمرات يعاني عظيمَ السَّكَراتِ، يُغمى عليه مرّةً، ويفيقُ أخرى، وفي قلبه لهيبُ الزَّفرات، وكان منهمكاً في دنياه، متخلّفاً عن طاعة مولاه، فقلت له: يا أخي، تُبْ إلى الله، وارجع عن غِيِّكَ، عسى المولى أن يشفِيكَ مِنْ ألَمِكَ، ويعافيك مِنْ مرضِك وسقمِك، ويتجاوز بكرمِه عن ذنبك.

فقال: هيهات هيهات! قد دنا ما هُو آت، وأنا ميتٌ لا محالةَ، فيا أسفي على عمرٍ أفنيته في البطالة. أردتُ أن أتوبَ ممَّا جنيتُ، فسمعت هاتفاً يهتف من زاوية البيت: عاهدناك مِراراً، فوجدناك غدَّاراً.

نعوذ بالله من سوء الخاتمة، ونستغفره مِنَ الذُّنوب المتقادمة[2].

* * *

{١١٩} رابعة العدوية

أمُّ الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية، العابدة والناسكة المشهورة، لها نظم جميل، وكلمات حسنة، مولدها بالبصرة ووفاتها بالقدس سنة **١٣٥هـ** أو **١٨٥هـ**.

ذكرت عبدة بنت أبي شوال، وكانت من خيار إماء الله، وكانت تخدم

---

(١) الأغاني للأصفهاني ١٧/٤٣.

(٢) بحر الدموع لابن الجوزي (تحقيق إبراهيم باجس) ص١٩.

رابعة، أنها لما حضرتها الوفاة دعتها وقالت: يا عبدة، لا تُؤذني بموتي أحداً، وكفنيني في جبَّتي هذه، جبَّة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون. قالت: فكفناها في تلك الجبّة وخمار صوف كانت تلبسه.

ثم ذكرت أنها رأتها في المنام بعد سنة وعليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر...[1].

* * *

{١٢٠} أبو العباس السفّاح

أبو العباس عبدالله بن محمد السفّاح، أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب. مات سنة **١٣٦هـ**.

ذكر ابن عساكر أن الطبيب لما دخل عليه أخذ بيده، فأنشأ السفاح يقول عند ذلك:

انــظـرْ إلــى ضَــعْــفِ الــحــرَاكِ ... وذُلِّـــهِ بـــيـــدِ الـــسُّـــكـــونْ
يُــنْــبِــئْــكَ أن بـــيـــانَـــهُ ... هـــذا مُــقَــدِّمَــةُ الــمَــنُــونْ

فقال له الطبيب: أنت صالح. فأنشأ يقول:

يــبــشّــرنــي بـــأنـــي ذو صـــلاحٍ ... يَـــبـــيـــنُ لـــه وبـــي داءٌ دفـــيـــنُ
لــقــد أيــقــنــتُ أنــي غــيــرُ بــاقٍ ... ولا شــكٌّ إذا وضــحَ الــيــقــيــنُ

قال بعض أهل العلم: كان آخرَ ما تكلم به أبو العباس السفاح حين حضره الموت: الملكُ لله الحيِّ القيوم، ملكِ الموت، وجبارِ الجبابرة[2].

---

(١) صفة الصفوة ٤/٣٠، وفيات الأعيان ٢/٢٨٧.

(٢) البداية والنهاية ٣/٢٩٩ ـ ٣٠٠، المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري ص٥٥.

وفي مصدر آخر أنه لما وقع في النزع كان آخر كلامه: إليك يا رب لا إلى النار[1].

* * *

{١٢١} جزع.. وحياء

قَالَ سليمان التيمي: دَخَلْتُ على رَجُلٍ مِن أصحابي وَهُوَ في الموتِ، فَرَأَيْتُ مِنْ جَزعِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا الجزَعُ وَقَدْ كُنْتَ بحمد الله صَوَّاماً قوماً وَقد كنتَ وَقَدْ كُنتَ؟.

فَقَالَ: مَنْ أَحَقُّ بالجزعِ منّي، فَوَاللّٰهِ لَوْ جَاءَتْنِي المغفِرَةُ مِنَ اللّٰهِ تعَالَى لَهَمَّني الحَيَاءُ مِنْهُ فِيمَا أفضيتُ إليهِ[2].

* * *

{١٢٢} من الحبّ العذري

حدَّث إبراهيم بن عثمان العذري، وكان ينزل الكوفة، قال: رأيت عمر بن ميسرة وكان كهيئة الخيال، كأنه صُبغ بالورس، لا يكاد يكلمُ أحداً ولا يجالسه، وكانوا يرون أنه عاشق، فكانوا يسألونه عن علته فيقول:

يسائلني ذو اللبِّ عن طول علّتي ... وما أنا بالمبدي لذي اللبِّ علّتي
سأكتمها صبراً على حرِّ جمرها ... وأسترها إذ كان في الستر راحتي

قال: فما أظهر أمره ولا علم أحدٌ بقصّته حتى حضره الموت، فقال: إن العلة التي كانت بي من أجل فلانة ابنة عمي، والله ما حجبني عنها

(١) الوافي بالوفيات ١٧/٢٣٢.

(٢) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٣.

وألزمني الضرَّ إلا خوفُ الله عزَّ وجلَّ لا غير، فمن بُلي في هذه الدنيا بشيء فلا يكن أحدٌ أوثق عنده بسرِّه من نفسه، ولولا أن الموت نازلٌ بي الساعة ما حدَّثتكم، فأقرئوها مني السلام. ومات من ساعته[1].

* * *

{١٢٣} أبو حنيفة

إمام الأئمة أبو حنيفة النعمان بن ثابت، كيف مات؟

قال أبو حيان الزيادي: بلغني أن أبا حنيفة رحمه الله قام لمّا أحسَّ الموت سجد، فخرجتْ نفسهُ وهو ساجد[2]!.

* * *

{١٢٤} أنت خائف.. أم واثق؟

كان مسعر بن كدام يقول:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقبُ سوءٍ من مغبَّتها ... لا خير في لذَّةٍ من بعدها النارُ

وكان من أتباع التابعين، ذكر سفيان بن عيينة أنه أفضل من رأى..

ولمّا حضرته الوفاة، دخل عليه سفيان الثوري، فوجده جزعاً، فقال له: لِمَ تجزع؟ فوالله لوددتُ أني متُّ الساعة!

فقال مسعر: أقعدوني، فأعاد عليه سفيانُ الكلام، فقال: إنك إذاً لواثقٌ بعملك يا سفيان، والله لكأني على شاهقة جبل لا أدري أين أهبط.

---

(١) الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي ١٤٤/٢.

(٢) أبو حنيفة النعمان إمام الأئمة الفقهاء/ وهبي غاوجي، ص٣٣١. وكانت وفاته سنة ١٥٠هـ. رحمه الله.

فبكى سفيان وقال: أنت أخوف لله مني.
ومات سنة ١٥٢هـ[١].

* * *

{١٢٥} توحيد الله

ذكر الشعراني في مختصر تذكرة القرطبي أن أبا حنيفة رحمه الله دخل على عمر بن ذر[٢] وهو محتضر، وكان كثير الرجاء في الله عزَّ وجلَّ، فلما أراد الانصراف عنه قال: يا رب، أتعذِّبنا وفي أجوافنا التوحيد؟ لا أراك تفعل. اللّهم اغفر لمن لم يزل على مثل حال السَّحرة في الساعات التي غفرتَ لهم فإنهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فقال: لله أبو حنيفة، القَصصُ بعدك حرام، فرحمةُ الله عليك[٣].

* * *

{١٢٦} لا يضحك

وهيب بن الورد القرشي كان من العبّاد المتجردين لترك الدنيا والمنافسين في طلب الآخرة، وكان سفيان الثوري إذا حدَّث الناسَ وفرغ من الحديث قال: قوموا بنا إلى الطبيب. يعني وهيب بن الورد. توفي سنة **١٥٣هـ**.

ذكر محمد بن يزيد بن خنيس أن وهيباً حلف ألاّ يراه الله ضاحكاً ولا أحدٌ من خلقه حتى يعلم ما يأتي به رسلُ ربه.

قال: فسمعوه عند الموت يقول: وفيتَ لي ولم أفِ لك[٤].

* * *

(١) المختار من مناقب الأخيار ٥/١٠ (باختصار).
(٢) شيخ محدِّث زاهد مرجىء ثقة مشهور، ت١٥٣هـ.
(٣) الفوائد الجامعة في عدة مسائل نافعة/ عبدالسلام السميح ص٣٣٠.
(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/٢٢٢، تهذيب الكمال ٣١/١٦٩.

{١٢٧} زفر وقد حشرجت نفسه

قاضي البصرة زفر بن الهذيل العنبري، فقيه كبير من أصحاب الإمام أبي حنيفة، رحمهما الله تعالى. وفاته سنة ١٥٨هـ.

قال بشر بن القاسم: سمعت زفر يقول: لا أخلِّفُ بعد موتي شيئاً أخاف الحساب عليه.

ودخل عليه أبو يوسف وغيره فقالوا: ألا توصي يا أبا الهذيل؟ فقال: هذا المتاعُ الذي ترونه لهذه المرأة، وهذه الثلاثة آلاف درهم لولد أخي، وليس لأحدٍ عليَّ شيء، ولا لي على أحد شيء[١].

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: دخلتُ على زفر وقد غرغرت نفسه في صدره، فرفع رأسه إليَّ فقال لي: يا أبا نعيم، وددتُ أن الذي كنا فيه كان تسبيحاً[٢]!.

* * *

(١٢٧م)
موت المنصور

قال الخليفة أبو جعفر المنصور عند موته: اللّهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ الأمور العظام جُرأةً مني عليك، فإنك تعلمُ أني قد أطعتُك في أحبِّ الأشياء إليك: شهادة أن لا إله إلا أنت، مَنّاً منك لا مَنّاً عليك.

وكان سبب إحرامه من الخضراء أنه كان يوماً نائماً، فأتاه آتٍ في منامه فقال:

---

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ـ ط٤ ـ المكتب الإسلامي، ص٨٠.

(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ٣/٢٥٧.

كأني بهذا القصرِ قد بادَ أهله وعُرِّيَ منه أهلهُ ومنازلُهْ
وصارَ عميدُ القوم من بعد نعمةٍ إلى جَدَثٍ تُبنىٰ عليه جنادلُهْ
فلم يَبْقَ إلا رسمهُ وحديثه تُبكّي عليه مُعْوِلاتٍ حلائلُهْ

فاستيقظ مرعوباً ثم نام، فأتاه الآتي فقال:

أبا جعفرٍ حانت وفاتُكَ وانقضتْ سنُوكَ وأمرُ الله لا بدَّ واقعُ
فهل كاهنٌ أعددتَهُ أو منجِّم أبا جعفرٍ عنك المنيَّةَ دافعُ

فقال: يا ربيع، ائتني بطَهوري. فقام واغتسل، وصلَّى ولبَّى وتجهَّز للحج. فلمّا صار في الثلث الأول اشتدَّت علَّته، فجعل يقول: يا ربيع أَلْقِني في حَرَمِ الله. فمات ببئرِ ميمون[1].

* * *

{١٢٨} أسف.. من نوع آخر!

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: دخلنا على بعض العبّاد لنعودَه، فجعل يتأسّف، فقلنا: تتأسّفُ رحمك الله؟

قال: ما تأسُّفي على البقاء في دار الأحزانِ والهموم والخطايا والذنوب.

فقلت: فعلامَ إذاً؟.

قال: على ليلة نمتُها، ويومٍ أفطرته، وساعةٍ غفلتُ فيها عن ذكر الله[2].

* * *

(١) عيون الأخبار ٣١١/٢. وبئر ميمون بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر بن الحضرمي. ووفاة المنصور سنة ١٥٨هـ.

(٢) تهذيب خالصة الحقائق ٦٧٨/٢.

{١٢٩} مالك بن الريب والقصيدة الطويلة المؤثرة

كان مالك بن الريب التميمي شاعراً ظريفاً وشجاعاً فتاكاً، من أجمل العرب جمالاً وأبينهم بياناً، وكان يقطع الطريق على الناس!.

رآه سعيد بن عثمان بن عفان في طريقه بين المدينة والبصرة وهو ذاهب إلى خراسان وقد ولاّه معاوية عليها سنة ٥٦هـ، فأنّبه سعيد على ما يُقال عنه من العيث وقطع الطريق، وقال له: ويحك يا مالك! ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العَدَاء وقطع الطريق؟!.

قال: أصلح الله الأمير، العجزُ عن مكافأة الإخوان.

قال: فإن أغنيتك واستصحبتك أتكفُّ عما تفعل وتتبعني؟.

قال: نعم أصلح الله الأمير، أكفُّ كفّاً ما كفَّ أحدٌ أحسن منه.

فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار في كل شهر، وشهد فتح سمرقند، وتنسَّك. وأقام بعد عزل سعيد، فمرض في «مرو» وأحسَّ بالموت، فقال قصيدته المشهورة، وهي من غرر الشعر، وعدَّتها (٥٨) بيتاً، أوردها البغدادي كاملة في خزانته الأدبية، وهي:

ألا ليت شِعري هل أبيتَنَّ ليلةً ... بجنب الغضَى أُزجِي القِلاصَ النواجيا[١]
فليتَ الغَضَى لم يقطع الرَّكب عَرضَه ... وليتَ الغضَى ماشَى الركابَ لياليا
لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى ... مَزارٌ ولكنّ الغضَى ليس دانيا
ألم ترني بعتُ الضلالةَ بالهدى ... وأصبحتُ في جيش ابنِ عفّان غازيا!
وأصبحت في أرض الأعادي بُعيد ما ... أرانيَ عن أرض الأعاديّ قاصيا
دعاني الهوىٰ من أهل أُودِ وصحبتي ... بذي الطَّبَسَيْنِ فالتفتُّ ورائيا[٢]

(١) الغضى: شجر ينبت في الرمل. أزجي: أسوق. القِلاص: جمع قلوص، وهي الفتيّة من الإبل. النواجي: السراع.

(٢) أُود: موضع ببلاد مازن. الطبسان: كورتان بخراسان.

أجبتُ الهوىٰ لمّا دعاني بزَفرةٍ تقنَّعت منها، أنْ أُلاَم، ردائيا

أقول وقد حالت قُرى الكُرْدِ دوننا: جزَى الله عَمراً خير ما كان جازيا

إنِ الله يرجعْني مِن الغزو لا أرىٰ وإنْ قلّ مالي طالباً ما ورائيا

تقول ابنتي، لما رأتْ طولَ رحلتي: سِفارُكَ هذا تاركي لا أبالِيا

لعمري، لئن غالتْ خُراسانُ هامتي لقد كنتُ عن بابَيْ خراسانَ نائيا[١]

فإن أنجُ من بابَي خراسان لا أعُدْ إليها، وإن منَّيتموني الأمانيا

فللَّه درّي، يوم أترُك طائعا بنيَّ بأعلى الرَّقمتين، وماليا

ودرُّ الظِباء السانحاتِ عشيّةً يخبِّرنَ، أنى هالكٌ، مَنْ ورائيا

ودَرُّ كبيرَيّ اللذينِ كلاهما عليَّ شفيقٌ ناصحٌ لو نهانيا

ودَرُّ الرجال الشاهدين تفتُّكي بأمريَ ألاّ يقصُروا مِن وَثاقيا[٢]

ودرّ الهوىٰ من حيث يدعو صحابه ودرّ لَجاجاتي ودرّ انتهائيا

تذكَّرت من يبكي عليّ فلم أجدْ سِوى السيفِ والرمح الردينيّ باكيا

وأشقرَ محبوك يجُرُّ لجامَه إلى الماءِ لم يترك له الموتُ ساقيا[٣]

ولكن بأكناف السُّمينة نِسْوةٌ عزيزٌ عليهنّ العشيّةَ ما بيا[٤]

صريعٌ على أيدي الرجال بقَفْرة يُسَوُّون لحدي حيثُ حُمَّ قضائيا

ولمَّا تراءتْ عند مَرْوَ مَنيّتي وخَلَّ بها جسمي وحانتْ وفاتيا[٥]

أقول لأصحابي: ارفعوني فإنه يقَرُّ بعيني أنْ سهيلٌ بدا لِيا

فيا صاحبَيْ رحلي، دنا الموتُ فانزلا برابيةٍ، إنّي مقيمٌ لياليا

أقيما عليَّ اليومَ أو بَعْضَ ليلةٍ ولا تُعْجِلاني، قد تَبيّنَ شانيا

وقوما، إذا ما ٱستُلّ رُوحي، فهيِّئا ليَ السِّدْرَ والأكفانَ عِندَ فنَائيا

---

(١) غالت: أهلكت.

(٢) التفتك: التمادي.

(٣) المحبوك: الفرس القوي.

(٤) السمينة: موضع قرب أود.

(٥) خلّ: اختلّ واضطرب.

وخُطّا بأطراف الأسِنَّةِ مَضجَعي ... ورُدّا على عيَنيَّ فضلَ ردائيا[1]
ولا تحسُداني، باركَ الله فيكما، ... من الأرض ذات العَرْض أن تُوسعا ليا
خُذاني فجُرّاني ببُرْدي إليكما ... فقد كان قبلَ اليوم صعباً قِيَاديا
وقد كنتُ عطّافاً إذا الخيلُ أدبرتْ ... سريعاً إلى الهيْجَا إلى مَنْ دعانيا
وقد كنتُ صَبّاراً على القِرْنِ في الوغىٰ ... وعن شتميَ ٱبنَ ٱلعَمّ والجارَ وانيا
فطوراً تراني في ظِلالٍ ونَعْمَةٍ ... ويوماً تراني والعِتاقُ رِكابيا
ويوماً تراني في رَحًى مستديرة ... تخرِّقُ أطرافُ الرِماح ثِيابيا[2]
وقوما على بئر السُّمينة أسمِعا ... بها الغُرَّ والبيضَ الحسانَ الروانيا[3]:
بأنّكما خَلَّفتُماني بقَفرةٍ ... تَهيلُ عليَّ الريحُ فيها السوافيا
ولا تَنسيا عهَديْ خليليَّ بعدما ... تَقطّعُ أوصالي وتَبلىٰ عِظاميا
ولنْ يَعْدَمَ الوالُونَ بَثّاً يصيبهم ... ولن يَعدَمَ الميراثَ منّي المواليا[4]
يقولون: لا تَبْعَد، وهم يدفِنُونني، ... وأينَ مكانُ البعد إلاّ مَكانيا!
غداة غدٍ يا لهفَ نفسي على غدٍ ... إذا أدْلَجوا عنّي وأصبحتُ ثاوِيا
وأصبحَ مالي مِنْ طَريفٍ وتالد ... لغيري، وكان المالُ بالأمس ماليا
فيا ليتَ شِعْري هل تغيّرَت الرَحىٰ ... رحى المُثْلِ أو أمْستْ بفَلج كما هيا[5]
إذِ الحيّ حَلّوها جميعاً، وأنزلوا ... بها بقراً حُمَّ العُيون سَواجيا[6]
وعِين وقد كان الظلام يُجِنُّها ... يسُفْنَ الخُزامىٰ مَرَّة والأقاحِيا[7]

---

(١) خُطّا: احفرا.

(٢) الرحى: موضع الحرب، ومستديره: حيث يستدير القوم للقتال.

(٣) الروانيا: النواظر، والرنوّ: النظر الدائم، والغرّ: البيض.

(٤) الوالون: جمع وال، والموالي: بنو العم والأقربون. البث: أشد الحزن.

(٥) رحى المُثل: موضع بفلج، وفلج موضع في بلاد مازن، وهو في طريق البصرة إلى مكة.

(٦) حلّوها: نزلوا بها. وأراد بالبقر: النساء، شبّهها بها. سواجي: سواكن.

(٧) العِين: بقر الوحش. الخزامى: زهر طيب.

وهل أتركُ العِيسَ العَباليَ بالضحى ... بِرُكبانِها تعلو المِتانَ الديافيا[1]
إذا عُصَبُ الرُّكْبانِ بينَ عُنيزة ... وبَولانَ عاجُوا المبقياتِ النواجيا[2]
فيا ليتَ شِعْري، هل بكتْ أمُّ مالكٍ ... كما كنتُ لو عالَوْا بنَعيكِ باكيا!
إذا مِتُّ فاعتادِي القبورَ فسلِّمي ... على الرَّمْس، أُسقيتِ السَّحابَ الغواديا
على جدَثٍ قد جرَّتِ الريحُ فوقَهُ ... تراباً كسَحْقِ المَرْنَبانيِّ هابِيا[3]
رهينةُ أحجارٍ وتُرْبٍ تضمَّنتْ ... قراراتُها منّي العظامَ البواليا[4]
فيا صاحبي، إمَّا عرَضتَ فبلِّغنْ ... بني مازن والرَّيْب أن لا تلاقيا
وعَطِّلْ قلوصي في الرِّكابِ فإنَّها ... ستفلِقُ أكباداً وتُبكي بواكيا[5]

***

{١٣٠} شاعر زنديق

شاعر ماجن يرمى بالزندقة، وكان «ظريفاً»، فإذا وصفوا إنساناً بالظَّرَف قالوا: هو أظرف من الزنديق. هو يحيى بن زياد الحارثي، ابن خال الخليفة أبي العباس السفاح، مات أيام المهدي نحو سنة ١٦٠هـ.

روي أنه قيل له وهو يجود بنفسه: قل لا إله إلا الله، فقال:

لم يبقَ إلا الغُبْط والجَلاجلُ[6] ... .

---

(١) العيس: الإبل التي تضرب إلى البياض. العبالى: الضخمة. المتان: ما صلب من الأرض. ولم يبين البغدادي معنى «الديافيا»، وفي «الأمالي»: الفيافيا.

(٢) عنيزة: قارة سوداء في وادي بطن فلج. المبقيات: التي تُبقي سيرها. النواجي: التي تنجو سيرها، أي تُسرع.

(٣) المرنباني: كساء من خز، هابيا: من هبا هبواً [أي ثار وارتفع].

(٤) القرارة: بطن الوادي حيث يستقر الماء.

(٥) خزانة الأدب للبغدادي ٢/٢٠٣ ـ ٢٠٩ وشرح المفردات منه، الأعلام ٥/٢٦١. ووفاة مالك نحو سنة ٦٠هـ.

(٦) الغبط: الرَّحل، وهو للنساء، يشدُّ على الهودج.
والجلاجل: جمع جُلْجُل، وهو الجرس الصغير، ويطلق على الغلام الخفيف الروح.

ثم أغمي عليه.

فلما أفاق أعيد عليه القول، فقال:

.... وبـازلٌ تـغـلـىٰ بـه الـمـراجـلُ[1][2]

* * *

{١٣١} شعبة بن الحجاج

شعبة بن الحجاج العتكي، الذي قال فيه إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين: شعبةُ إمام المتقين، والذي كان كعبة علماء الحديث وطلابه، وكان يقول: والله لولا الفقراء ما جلستُ إليكم، وكان يسألُ لجيرانه الفقراء، وقد ركب حماراً له يوماً، فلقيه سليمان بن المغيرة، فشكا إليه الفقر والحاجة، فقال: والله ما أملك غيرَ هذا الحمار، فنزلَ عنه ودفعه إليه...

قال شبابة: دخلت على شعبة في يومه الذي مات فيه وهو يبكي، فقلت: ما هذا الجزع يا أبا بسطام؟ أبشر، فإن لك في الإسلام موضعاً. فقال: دعني، فلوددتُ أني وقّادُ حمّام، وأني لم أعرف الحديث[3]!.

* * *

{١٣٢} مصري صالح

يحيى بن أزهر كان رجلاً صالحاً من أهل مصر، توفي سنة ١٦١هـ.

قال بكر بن مضر: كان يحيى بن أزهر يجودُ بنفسه... فأفاق فيقةً عند الظهر، فسمعَ أذان الظهر، فقال: لكنّ أهل القبور لا يسمعون هذا. ثم مضى[4].

* * *

(١) البازل: البعير إذا كان في التاسعة.

(٢) أمالي المرتضى ١/١٤٣.

(٣) المختار من مناقب الأخيار ٣/١٠٣ (باختصار). ووفاته رحمه الله سنة ١٦٠هـ.

(٤) تهذيب الكمال ٣١/١٩٤.

{١٣٣} سفيان الثوري

الإمام العالم سفيان بن سعيد الثوري كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً، روى عنه خلق كثير، وقال شعبة ويحيى بن معين رحمهما الله: سفيان أمير المؤمنين في الحديث. مات سنة ١٦١هـ.

نقل ابن القيم رحمه الله: أنه لما احتضر دخل عليه أبو الأشهب وحماد بن سلمة، فقال له حماد: يا أبا عبدالله، أليس قد أمنتَ مما كنتَ تخافه، وتقدم على من ترجوه، وهو أرحم الراحمين؟.

فقال: يا أبا سلمة، أتطمعُ لمثلي أن ينجو من النار؟

قال: إي والله، إني لأرجو لك ذلك[١].

وفي إحياء علوم الدين[٢] أنه جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبدالله، عليك بالرجاء، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك.

فقال: أو على ذنوبي أبكي؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبالِ بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا.

ولما مرض بالبطن كان يخدمه عبدالرحمن بن مهدي، قال: فضجَّ سفيان لما طالت علّته، فقال: يا موت يا موت، ثم قال: لا أتمناه ولا أدعو به. فلما احتضر بكى وجزع، فقلت له: يا أبا عبدالله، ما هذا البكاء؟ قال: يا عبدالرحمن، لشدَّةِ ما نزل بي من الموت، الموتُ والله شديد. فمسسته فإذا هو يقول: روح المؤمنين تخرج رشحاً، فأنا أرجو. ثم قال: الله أرحمُ من الوالدة الشفيقة الرفيقة، إنه جواد كريم، وكيف لي أن أحبَّ لقاءه وأنا أكره الموت؟.

فبكيت حتى كدتُ أن أختنق، أخفي بكائي عنه، وجعل يقول: أوه أوه من الموت.

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ٨٥/١ (تحقيق محمد حامد الفقي).
(٢) ١٧٢/٤.

قال عبدالرحمن: فما سمعته يقول أوه ولا يئن إلا عند ذهاب عقله. ثم قال: مرحباً برسول ربي. ثم أُغمي عليه...[1].

***

{١٣٤} حماد عَجْرَد

شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، اسمه حماد بن عمر السوائي وعُرف بعَجْرَد. كانت بينه وبين بشار بن برد أهاج فاحشة. وقد نزل بالأهواز فأقام مدة مستتراً من «محمد بن سليمان» ثم خرج من عنده يريد البصرة، فمرّ بشيرزاذان في طريقه، فمرض بها، فاضطرّ إلى المقام بها بسبب علّته، فاشتدّ مرضه فمات هناك سنة ١٦١هـ، وكان بشار بلغه أن حماداً عليل لما به، ثم نعي إليه قبل موته، فقال بشار:

لو عاش حمادٌ لهونا به ... لكنه صار إلى النار!

فبلغ هذا البيت حماداً قبل أن يموت وهو في السياق، فقال يردُّ عليه:

نُبِّئتُ بشاراً نعاني وللـ ... ـموتِ براني الخالقُ الباري

يا ليتني متُّ ولم أهجهُ ... نعم ولو صرتُ إلى النارِ

وأيُّ خزيٍ هو أخزى من أن ... يقال لي يا سبَّ بشارِ[2]

***

{١٣٥} لعله رأى موضعه من الجنة

كان عمر بن حسين من أهل الفضل والعفّة والمشورة في الأمور، وكانت القضاة تستشيره.

قال مالك: ولقد أخبرني من حضره عند الموت فسمعه يقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

(١) سير أعلام النبلاء ٧/٢٥٠.

(٢) الأغاني للأصفهاني ١٤/٣٧٤.

قال ابن وهب: فقلت لمالك: أترى هذا القول لشيءٍ عاينه؟ قال: نعم، في رأيي[1].

* * *

{١٣٦} داود الطائي

قال حفص بن عمر: اشتكى داود الطائي أياماً، وكان سببُ علّته أنه مرَّ بآية فيها ذكرُ النار، فكرَّرها مراراً في ليلته، فأصبح مريضاً، فوجدوه قد مات ورأسهُ على لَبِنة...[2].

* * *

{١٣٧} شاعر ماجن

قال محمد بن داود بن الجراح في أخبار مطيع بن إياس الكناني: إنه كان يُرمىٰ بالزندقة[3]. وروي أنه لما حضرتْهُ الوفاة أحاط به أهلُ بيته، فأقبلوا يقولون له: قل يا مطيع، قل لا إله إلا الله. فلا يقول. حتى إذا صارت نفسُه في ثغرتِهِ كرَّ يتنفّس، ثم أهوى إلى الكلام، فقالوا له: قل لا إله إلا الله. فتكلّم كلاماً ضعيفاً، فتسمّعوا له، فإذا هو يقول:

لهفَ نفسي على الزمانِ وفي أيِّ ... زمانٍ دَهَتْـنـيَ الأزمانُ

حين جاء الربيعُ واستُقبلَ الصيـ ... ـفُ وطاب الطِّلاءُ والريحانُ[4]

* * *

(١) المعرفة والتاريخ للفسوي ٣٧٣/١.

(٢) المختار من مناقب الأخيار ٢٨٧/٢. ووفاته ١٦٥هـ. رحمه الله.

(٣) شاعر كوفي ماجن، ما صحبه أحد إلا افتضح. قال أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني: كان ظريفاً خليعاً ماجناً مليح النادرة متهماً في دينه. ت١٦٦هـ. لسان الميزان ٥١/٦.

(٤) أمالي المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد/ الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.. القاهرة: إحياء الكتب العربية ١٤٢/١.

{١٣٨} القارىء الكوفي

سلاَّم بن سليمان المزني، أبو المنذر، القارىء النحوي الكوفي، كان شديداً على القدرية، مات سنة ١٧١هـ.

قال حماد بن زيد: دخلتُ على سلاّم أبي المنذر وهو في النَّزْع، فجعل يُلَقِّنُ، فأبطأ عنه، فغمَّني ذلك، فأذَّن مؤذِّنٌ على المنارة، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، الذي لا يكونُ في السماءِ والأرضِ إلا ما شاء. ثم مات[(١)].

***

{١٣٩} السيد الحميري

السيد الحميري إسماعيل بن محمد شاعر شيعي معروف، أفرط في النيل من بعض الصحابة وأزواج النبي ﷺ، وكان يتعصب لبني هاشم تعصباً شديداً، وأكثر شعره في مدحهم وذم غيرهم...

ذكر صاحب «الأغاني»: أن أبا داود وإسماعيل بن الساحر حضراه عند وفاته بواسط سنة ١٧٣هـ، وقد أصابه كرب شديد، فجلس ثم قال: اللّهم أهكذا جزائي في حبِّ آل محمد[(٢)]؟!.

وقال أبو ريحانة: كان السيد لما حضرته الوفاة جاءنا وليُّه فقال: هذا وإن كان مخلِّطاً فهو من أهل التوحيد، وهو جاركم، فادخلوا عليه فلقّنوه الشهادة.

قال: فدخلنا إليه وهو يجود بنفسه، فقلنا له: قل لا إله إلا الله.

قال: فاسودَّ وجهه، وفتح عينيه ثم قال: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾. فخرجنا، ومات من ساعته[(٣)].

***

(١) تهذيب الكمال ١٢/٢٩٠.
(٢) ينظر الأغاني ٧/٢٩٦.
(٣) الوافي بالوفيات ٩/١٢٢.

{١٤٠} مالك بن أنس

الإمام والعالم الجليل صاحب المذهب المالكي.. مات في سنة (١٧٩هـ) في خلافة هارون الرشيد.

قال ابن أبي أويس: اشتكى مالك بن أنس أياماً يسيرة، فسألتُ بعضَ أهلنا عمّا قال عند الموت، فقال: تشهَّد، ثم قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾(١).

***

{١٤١} استبشار وفرح!

كان قد صيَّر الليل ثلاثة أثلاث: ثلثاً يصلي، وثلثاً يدعو، وثلثاً ينام. هو أبو محمد بشر بن منصور السليمي البصري، المتوفى سنة ١٨٠هـ.

قال عبدُالأعلى بن حمَّاد البرقي: دخلتُ على بشْر بن منصور وهو في الموت، فرأيتُه مستبشراً، فقلتُ له: ما هذا السُّرور؟ قال: أخرجُ من بين الحاسدين والباغين والمغتابين، وأقدَم على ربّ العالمين، ولا أفرح(٢)؟!.

وقال العتبي: حدثني من شهد ابن منصور حين حُضر فقال: كأني أراك تُسَرُّ من الموت؟.

قال: فعجب من تعجبي وقال: أتعجُلُ(٣) قدومي على خالقي أرجو خيره، كمقامي مع مخلوقٍ أخافه(٤)؟!.

***

(١) صفة الصفوة ١٧٩/٢، البداية والنهاية ١٧٤/١٠.

(٢) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٣٧٣/٣.

(٣) لعلها «أتجعل».

(٤) وصايا العلماء ١٠٤/١.

{١٤٢} مع النبيين...

علي بن صالح المكي كان عابداً زاهداً، رُزق علماً وعبادة وقناعة، ورُويت عنه أحاديث.

قال توأمه الحسن: لما احتُضر أخي رفع بصره ثم قال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[١].

ثم خرجت نفسه.

قال: فنظرنا إلى جنبه، فإذا ثقب في جنبه وقد وصل إلى جوفه، وما علم به أحدٌ من أهله[٢]!.

***

{١٤٣} عزُّها.. وذلُّنا

قال ابن الأثير في بداية حوادث سنة ١٨٠هـ حول وفاة هشام بن عبدالرحمن الداخل ثاني ملوك الدولة الأموية بالأندلس:

وبلغ من عزّ الإسلام في أيامه وذلّ الكفر، أن رجلاً مات في أيامه، وكان وصّى أن يفكّ أسيرٌ من المسلمين من تركته، فطُلب ذلك فلم يوجد في دار الكفار أسيرٌ يُشترى ويفكّ؛ لضعف العدوّ وقوّةِ المسلمين[٣]!.

***

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) حلية الأولياء ٣٢٩/٧.

(٣) الكامل في التاريخ ٣٠٨/٥. وسقت هذا للعبرة. اللّهم أقرّ عيوننا بنصر دينك وأذلّ الكفر وأهله.

{١٤٤} سيبويه

شيخ النحاة سيبويه مات شاباً (٣٢) سنة، وكان أنيقاً جميلاً، وفاته سنة ١٨٠هـ.

ولما مرض مرضه الذي مات فيه جعل يجود بنفسه ويقول:

يـؤمِّـل دنـيـا لـتـبـقـى لـه فـمـات الـمـؤمِّـل قـبـل الأمـل
حـشـيـشـاً يـروي أصـول الـنـخـيـل فـعـاش الـفـسـيـلُ ومـات الـرجـل[١]

ولما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه، فقطرت قطرة من دموع أخيه على خدِّه، فأفاق من غشيته وقال:

أُخَـيَّـيْـنِ كـنـا فـرَّقَ الـدهـرُ بـيـنـنـا إلى الأمد الأقصى ومن يأمنُ الدهرا[٢]

* * *

{١٤٥} عبدالله بن المبارك

العالم النبيل والمتعبِّد الزاهد الكبير... عبدالله بن المبارك، رحمه الله ورضي عنه وأرضاه... مما لم يورده ابن أبي الدنيا في احتضاره، أنه قال لنصير مولاه: اجعلْ رأسي على التراب. فبكى نصير، فقال له: ما يُبكيك؟ قال: أذكُر ما كنتَ فيه من النعيم، وأنت تموتُ فقيراً غريباً! فقال له: اسكت، فإني سألتُ الله تبارك وتعالى أن يُحييني حياة الأغنياء، وأن يُميتني ميتة الفقراء. ثم قال: لقِّني ولا تُعِدْ عليَّ إلا أن أتكلَّم بكلام ثان.

وقال أبو القاسم القشيري: فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة فضحك وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾[٣].

* * *

(١) معجم الأدباء ٥٠٣/٤.
(٢) عيون الأخبار ٣١٢/٢، بهجة المجالس ٣٧٤/٣.
(٣) المختار من مناقب الأخيار ٤٨٨/٣. ووفاته ١٨١هـ.

{١٤٦} القاضي أبو يوسف

حُكي عن إبراهيم بن الجراح قال: دخلتُ على القاضي أبي يوسف في مرضه الذي مات فيه، ففتح عينيه وقال: الرمي راكباً أفضل أم ماشياً؟ قلت: ماشياً. فقال: أخطأت. فقلتُ: راكباً. قال: أخطأت! ثم قال: كلُّ رمي بعده وقوفٌ فالرمي فيه ماشياً أفضل، وما ليس فيه وقوفٌ فالرمي فيه راكبًا أفضل.

فقمتُ من عنده، فما انتهيتُ إلى باب الدار حتى سمعتُ الصراخ في بيته! فعجبتُ من حرصه على العلم في مثل تلك الحالة. (كذا في العناية)[(١)].

وقال هشام بن أبي يوسف: لما احتُضر أبي جلسنا عند رأسه، فقلنا له: أفي نفسك من هذا الأمر شيء [يعني القضاء]؟ قال: لا والله، إلا شيءً واحد. وصل نصراني ادَّعى مرَّة على الرشيد، فدعوتُ به، فجاء ومعه مصلًّى فجلس عليه، ولم أدعُ للنصرانيّ بمصلًّى مثله، فذاك في نفسي[(٢)].

* * *

{١٤٧} من زهاد المدينة

كان عبدالله بن عبدالعزيز العمري من زهاد أهل المدينة وعبّادها، من أولاد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، لا يُرى إلا وفي يده كتاب يقرأه، قال عند موته:

---

(١) الصبابات فيما وجدته على ظهور الكتب من الكتابات/ جميل العظم، ص١٢٥، ووفاته رحمه الله: ١٨٢هـ.

(٢) المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري ص٤٩٩.

بنعمة ربِّي أحدِّث: إني لم أُصبحْ أملكُ إلا سبعة دراهم من لحاء شجرٍ فتلته بيديّ، وبنعمةِ ربِّي أحدِّث: لو أن الدنيا أصبحت تحت قدمي لا يمنعني من أخذها إلا أن أزيل قدمي عنها ما أَزَلْتُها[1].

* * *

{١٤٨} وزير الرشيد

عن ثمامة بن أشرس قال: بتُّ ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد[2]، فانتبه من منامه يبكي مذعوراً، فقلت: ما شأنك؟ قال: رأيتُ شيخاً جاء فأخذ بعُضادتي هذا الباب وقال:

كأن لم يكنْ بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامرُ

قال: فأجبته:

بلىٰ نحن كنا أهلَها فأبادنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

قال ثمامة: فلما كان الليلة المقبلة قتله الرشيد، ونصب رأسه على الجسر[3].

ونقل الزمخشري أن أبا زكار المغني قال: كنت عند جعفر بن يحيى، فسألني أن أترنم بقوله:

فلا تَبْعَدْ فكلُّ فتًى سيأتي ... عليه الدهرُ يطرقُ أو يُفادي

ولو فديت من حذر المنايا ... فديتك بالطريف وبالتلادِ

فما تمَّ الصوت حتى دخل مسرور، فقال له: ما شأنك؟ قال: أُمرت بضرب عنقك. قال جعفر: أشهد الله الذي لا إله إلا هو، وأشهدك يا أبا

---

(١) المختار من مناقب الأخيار ٤٦٢/٣. ووفاته سنة ١٨٤هـ.

(٢) وزير الرشيد، أحد مشهوري البرامكة ومقدميهم، قتل سنة ١٨٧هـ.

(٣) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ٢٩٥/٢.

زكار، وإياك يا مسرور، أن كل مملوك لي حر، وكلّ مالي صدقة، وكلّ من كان لي قبله حق أو وديعة فهو في حل، امضِ لما أُمرت به. فأخذ رأسه ومضى[1]!.

* * *

{١٤٩} فقيه العراق

العلامة محمد بن الحسن الشيباني، فقيه العراق، صاحب أبي حنيفة.. كان مع تبحرُّه في الفقه يضرب بذكائه المثل.. توفي سنة ١٨٩هـ بالري.

قيل: إنه لما احتُضر قيل له: أتبكي مع العلم؟.

قال: أرأيت إن أوقفني الله وقال: يا محمد ما أقدمكَ الري، الجهادُ في سبيلي أم ابتغاءُ مرضاتي؟ ماذا أقول[2]؟.

* * *

{١٥٠} يحيى البرمكي

مات يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد في حبس الرافقة ببغداد دون علّة، ودفن في شاطىء الفرات، وذلك في (٣) محرم سنة ١٩٠هـ. ووجد في جيبه رقعة فيها مكتوب بخطّه:

قد تقدَّم الخصم، والمدعى عليه في الأثر، والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بيِّنة.

فحُملت الرقعة إلى هارون الرشيد، فلم يزل يبكي يومه كله، وبقي أياماً يتبيَّن الأسى في وجهه. رحمهما الله تعالى.

---

(١) المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري ص٤٤٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣٦/٩.

وذكر الزمخشري في كتاب «ربيع الأبرار» ما مثاله: إنه وجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة فيها مكتوب:

وحقّ الله إن الظلم لؤمٌ ... وإن الظلمَ مرتعهُ وخيمُ
إلى ديّانِ يوم الدينِ نمضي ... وعند الله تجتمعُ الخصومُ(١)

* * *

{١٥١} احتضار جارية

يعقوب بن الربيع بن يونس شاعر بغدادي ظريف، كان الرشيد يأنس به قبل الخلافة. استنفدَ شعره في رثاء جارية له تسمَّى «مُلك»! وقد توفي نحو سنة ١٩٠هـ.

قال الزركلي: ومن أبدع ما سمعت في الرثاء قوله:

فلو أنني إذ حان وقت حِمامها ... أُحَكَّمُ في أمري لشاطرتها عمري
فحلَّ بنا المقدارُ في ساعةٍ معاً ... فماتت ولا أدري ومتُّ ولا تدري!

وقال في رثاء جاريته:

حتى إذا فترَ اللسانُ وأصبحتْ ... للموتِ قد ذَبُلَتْ ذبولَ النرجسِ
وتسهّلتْ منها محاسنُ وجهها ... وغدا الأنينُ تحثُّهُ بتنفُّسِ
رجعَ اليقينُ مطامعي يأساً كما ... رجع اليقينُ مطامع المتلمِّسِ(٢)

* * *

{١٥٢} الأمر أعجل من ذلك!

قال حسن بن الربيع: حدثنا مَخْلَدُ بن الحسين (ت نحو ١٩١هـ) قال:

---

(١) وفيات الأعيان ٢٢٨/٦ ـ ٢٢٩.

(٢) بهجة المجالس ٣٧٢/٣، الأعلام ٢٥٩/٩.

عدتُ مريضاً. فقلت له: كيف تجدك؟ قال: هو الموت! قلت: وكيف علمتَ أنه الموت؟ قال: أجدني أُجْتَذَبُ اجتذاباً، وكأن الخناجر مختلفة في جوفي، وكأن جوفي تنُور مُحَمّى يتلهب! قلت: فاعهدْ. قال: أرى الأمرَ أعجلَ من ذلك.

فدعا بدواة وصحيفة، فوالله ما أُتي بها حتى شخص بصره فمات[1]!

* * *

{١٥٣} احفظوا ثلاثاً

ذُكر أن أبا نصر بن سلام وأصحابه دخلوا على محمد بن سلمة[2] وهو في النزع، فقالوا له: أوصنا.

فقال: احفظوا ثلاثاً: كفُّوا ألسنتكم عن أهل القبلة، ولا تخالطوا السلطان، ولا تكثروا الكلام إلا بالعلم، فإن من تعلَّم العلم من أجل الدنيا لا ينالُ إلا الدنيا، ومن تعلَّمه لأجل الآخرة ينالُ الدنيا والآخرة[3].

* * *

{١٥٤} شاعر من اليمامة

شاعر غزل رقيق اسمه العباس بن الأحنف اليمامي، لم يمدح ولم يهجُ، بل كان كل شعره غزلاً وتشبيباً. سكن البصرة ومات سنة **١٩٢هـ**.

حدَّث رجل من قريش قال: خرجتُ حاجاً، فخرجنا نصلي في بعض الطريق، فجاءنا غلام فقال: فيكم أحدٌ من أهل البصرة؟ فقلنا: كلنا من أهل

(١) ذم الهوى/ لابن الجوزي، ص٥٩٦.

(٢) لعله محمد بن سلمة الحراني، الفقيه. محدِّث حرّان ومفتيها. قال ابن سعد: كان ثقة فاضلاً، له رواية وفتوى. ت١٩١هـ. العبر ٢٣٩/١.

(٣) تهذيب خالصة الحقائق ١٢٥/١.

البصرة، قال: إن مولاي من أهلها وهو يدعوكم. فقمنا إليه، فإذا هو نازل على عين ماء، فقال: إني أحبُّ أن أوصي إليكم. ثم رفع رأسه يترنَّم:

يا بعيد الدار عن وطنه … مفرداً يبكي على سكنهْ
كلما جدَّ الرحيلُ بهِ … زادتِ الأسقامُ في بدنهْ

ثم أغمي عليه، فأفاق وهو يقول:

ولقد زاد الفؤاد هوى … هاتفٌ يبكي على فَنَنِهْ
شفَّهُ ما شفَّني فبكى … كلنا يبكي على شجنهْ

ثم مات. فقلنا للغلام: من مولاك؟ فقال: العباس بن الأحنف، فأصلحنا من شأنه وصلينا عليه ودفنّاه. رحمه الله[(١)].

* * *

{ ١٥٥ } هارون الرشيد

يحكى أن الرشيد لما اشتد مرضه أحضر طبيباً طوسياً فارسياً، وأمر أن يعرض عليه ماؤه ـ أي بوله ـ مع مياه كثيرة لمرضى وأصحاء، فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد، فقال: قولوا لصاحب هذا الماء يوصي، فإنه قد انحلَّت قواه، وتداعت بِنْيَته ولما استعرض باقي الماء أُقيم فذهب. فيئس الرشيد من نفسه، وأنشد:

إن الطبيب بطبِّه ودوائه … لا يستطيع دفاع نحب قد أتىٰ
ما للطبيب يموت بالداء الذي … قد كان أبرأ مثله فيما مضى
مات المداوي والمداوىٰ والذي … جلبَ الدوا أو باعه ومن اشترى

وبلغه أن الناس أرجفوا بموته. فاستدعى حماراً وأمر أن يحمل عليه،

---

(١) الوافي بالوفيات ٦٤١/١٦، البداية والنهاية ٢١٠/١٠.

فاسترخت فخذاه. فقال: أنزلوني، صدق المرجفون، ودعا بأكفان، فتخيَّر منها ما أعجبه، وأمر فشق له قبر أمام فراشه، ثم اطلع فيه فقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾[1]. فمات من ليلته[2].

وفي تاريخ ابن كثير أنه أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها بطوس، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول: يا ابن آدم، تصير إلى هذا.

ثم أمر أن يقرأوا القرآن في قبره، فقرأوه حتى ختموه، وهو في محفَّةٍ على شفير القبر.

ولما حضرَته الوفاة احتبى بملاءة، وجلس يقاسي سكرات الموت، فقال له بعض من حضر: لو اضطجعت كان أهون عليك، فضحك ضحكاً صحيحاً ثم قال: أما سمعت قول الشاعر:

وإنـي مـن قـوم كـرام يـزيـدهـم شـمـاسـاً وصـبـراً شـدةُ الـحـدثـان[3]

وعند القلقشندي أنه لما حضرته الوفاة غشي عليه، ثم أفاق، فرأى الفضل بن الربيع، فقال: يا فضل:

أحيـن دنـا مـا كـنـتُ أخشـى دنـوَّه رمتني عيونُ الناس من كلِّ جانبِ
وأصبحتُ مرحوماً وكنتُ محمدا فـصـبـراً عـلـى مـكـروه مُرِّ الـعـواقـبِ
سأبكي على الوصل الذي [كان] بيننا وأنـدبُ أيـام الـسـرورِ الـذواهـبِ

ثم مات بعد ذلك[4].

***

---

(١) سورة الحاقة، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص٣١ (طبعة دار المؤيد بالرياض). ووفاة هارون الرشيد ١٩٣هـ. رحمه الله.
(٣) البداية والنهاية ٢١٣/١٠، المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري ص٣٠٩.
(٤) مآثر الإنافة ١٩٤/١.

{١٥٦} يخاف على أبيه

حفص بن غياث النخعي فقيه ثقة، من الكوفة، مات سنة ١٩٤هـ.

ذكر ابنه عمر أنه لما احتضرته الوفاة أغمي عليه، قال: فبكيت عند رأسه، فأفاق وقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لفراقك، ولِما دخلتَ فيه من هذا الأمر، يعني القضاء.

فقال: لا تبك، فإنني ما حللتُ سراويلي على محرَّم قط، ولا جلس بين يديَّ خصمان فباليتُ على من توجَّهَ الحكم عليه منهما[١].

* * *

{١٥٧} حكيم يوصي قبل موته

عن مؤرِّج قال: كنتُ في بادية بني حنيفة، فحدَّثني رجل منهم أن حكيماً من حكمائهم جمع بنيه عند موته، فقال لهم: اتَّقوا الله حقَّ تقاته، وإياكم والغرَّة بتواتر النِّعم، وعليكم فيما فرَّطتم فيه من أمر الله عزَّ وجلَّ بكثرة الندم، فإنكم إنْ تندموا على تفريطكم فيما مضى من عمركم أوشك أن تقيموا فيما بقي من آجالكم، ولا تجعلوا لأنفسكم همّاً سوى الله عزَّ وجلَّ، فإنكم إنْ تفعلوا يجعل الله لكم من أمركم فرجاً ومخرجاً من حيث لا تحتسبون، وخفِّفوا ظهوركم من المظالم تسلم لكم حسناتكم غداً[٢].

* * *

{١٥٨} عبدالله بن وهب

قال خالد بن خداش: قُرِىء على عبدالله بن وهب كتاب «أهوال

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية لابن أبي الوفاء القرشي ٦٤٦/٢ (بتحقيق عبدالفتاح الحلو).

(٢) المجالسة وجواهر العلم للدينوري رقم (٢٧١٨) بتحقيق مشهور سلمان.

القيامة»، فخرَّ مغشياً عليه، فلم يتكلَّم بكلمةٍ حتى مات بعد ذلك بأيام، وذلك بمصر سنة ١٩٧هـ.

وله التصانيف الكثيرة، وكان أعلم الناس برأي مالك بن أنس، روى عن أئمة أعلام، قال أحمد بن صالح: ما رأيتُ حجازياً ولا شامياً ولا مصرياً أكثر حديثاً من ابن وهب(١).

***

{١٥٩} أبو نواس

الشاعر الحسن بن هانيء المعروف بأبي نواس شاعر ماجن معروف، أمضى حياته في اللهو والغزل والخمر... وقد مرض قبل موته وصار يسترجع تلك الأيام ويندم ولم يعد يقدر على فعل الخير... وقد زاره علماء وأدباء وكتبوا كلماته وهو يستعد للدخول إلى القبر، في سنة ١٩٨هـ.

من ذلك ما قاله الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: دخلنا على أبي نُواس وهو يجود بنفسه وقلنا: ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال:

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي، كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّة وتكرّما
ولولاك لم يغو بإبليس عابدٌ ... وكيف وقد أغوىٰ صفيّك آدما

وقال عبدوس راوية أبي نُواس: دخلت علىٰ أبي نُواس الحسن بن هانيء في علته التي مات فيها فقلت له: كيف تجدك يا أبا نُواس؟ فقال: أجدني قائلاً:

سبحانه من خلق الخلْـ ... ـقَ من ضعيف مهين
يسوقه من قرار ... إلىٰ قرار مكين

(١) المختار من مناقب الأخيار ٣/٥١٢.

تحول شيئاً فشيئاً   في الحجب دون العيون
حتى استوت حركاتٌ   مخلوقةٌ من سكون

قال: ثم أطرق ساعة، فتركته وانصرفت، فلما كان من غدٍ دخلت عليه فقلت له: كيف تجدك يا أبا نُواس؟ قال: أجدني قائلاً:

وعظتْكَ أجداثٌ صُمُتْ   ونعَتْكَ أزمنةٌ خفتْ
وتكلمت عن أوجه تبلىٰ   وعن صور سبتْ
وأرتك قبركَ في القبور   وأنت حيٌّ لم تمتْ
لا تشمتن بميّت   إن المنيَّة لم تمتْ
ولربما انقلبَ الشمات   فحلّ بالقوم الشمتْ

قال: ثم أطرق، فتركته وانصرفت، فلما كان في اليوم الثالث دخلت عليه فقلت له: كيف تجدك يا أبا نُواس؟ قال: أجدني قائلاً:

يا نُواسيّ تفكّر   وتعزًا وتصبَّرْ
ساءك الدهر بشيء   ولما سرَّك أكثرْ
يا كثيرَ الذنب عفوُ   الله من ذنبكَ أكبرْ
أكثرُ العصيانِ في   أصغرِ عفو الله يصغرْ

فلما كان في اليوم الرابع قلت: كيف تجدك يا أبا نواس؟ قال: أجدني قائلاً:

كن مع الله يكن لكْ   واتّقيه فلعلكْ
لا تكن إلاّ معدّاً   للمنايا فكأنكْ
إنّ للموت لسهماً   واقعاً دونك أو بكْ
فعلىٰ الله توكّل   وبتقواه تمسّكْ
نحن نمسي بين أسـ   ـباب سكون وتحرّكْ

قال: ثم أطرق، فتركته وانصرفت، فلما كان في اليوم الخامس دخلت

عليه فقلت: كيف تجدك يا يا أبا نُواس؟ قال: أجدني قائلاً:

يا ناظراً ترفو بعيني راقد ... ومشاهداً للأمر غير مشاهدِ
منَّتْكَ نفسُكَ ضلَّةً فأبحتها ... طرف الحمام وأنت غير مراصدِ
تصل الذنوب إلىٰ الذنوب وترتجي ... درك الجنان بها وفوز العابدِ
ونسيت أن الله أخرج آدماً ... منها إلىٰ الدنيا بذنبٍ واحد

قال: ثم أطرق، فتركته وانصرفت، فلما كان في اليوم السادس دخلت عليه فقلت له: كيف تجدك يا أبا نُواس؟ قال: أجدني قائلاً:

دب فيّ السقام سفلاً وعلواً ... وأراني أموت عضواً فعضوا
ليس يأتي من ساعة بي إلاّ ... نقصتني بمرها بي جزوا
ذهبت نفسي بطاعتي نفسي ... وتذكرت طاعة الله نضوا
قد أسأنا كل الإساءة يا ربّ ... فصفحاً عني إلهي وعفوا

ثم أطرق وانصرفت، فلما كان اليوم السابع دخلت عليه فقلت له: كيف تجدك يا أبا نُواس؟ قال: أجدني قائلاً:

إني وما سمعت من صفد ... وحويت من سبد من ولبدِ
همم تصرّفت الخطوب بها ... فغدوت من بلدٍ إلى بلد
يا ذا الذي حسمت قناعته ... كل المطامع من غد فغد
لو لم تكن لله متهماً ... لم تمسِ محتاجاً إلى أحد

ثم أطرق، فتركته وانصرفت. فلما كان في اليوم الثامن جئت لأدخل، فلقيني الغلام ومعه رقعة مختومة، فسألته عنه فقال: أعظم الله أجرك في أبي نُواس توفي، وقد كان كتب إليك هذه الرقعة قبل موته فقرأتها فإذا فيها:

شِعْرُ حيٍّ أتاكَ من لفظِ ميْت ... صار بين الحياة والموت وقفا
لو تأمّلتني وأبصرت وجهي ... لم تجد من مثال رسمي حرفا
نَفَسٌ خافت وجسم نحيل ... أرمضتْهُ الأسقامُ حتىٰ تعفّىٰ

فجئت معه إلىٰ منزل أبي نُواس فإذا به قد مات، ونظرت فيما خلف وإذا ما مقداره ثلاثمائة درهم، وإذا بين مخدتيه رقعة مكتوب فيها هذا الشعر:

يـا ربّ إن عـظُـمـت ذنـوبـي كـثـرة ... فـلـقـد عـلـمـتُ بـأن عـفـوك أعـظـمُ
أدعـوك ربّ كـمـا أمـرت تـضـرّعـاً ... فـإذا رددت يـدي فـمـن ذا يـرحـم
إن كـان لا يـرجـوك إلاّ مـحـسـنٌ ... فمن الذي يرجو ويخشىٰ المجرم
مـالـي إلـيـك وسـيـلـة إلاّ الـرجـا ... وجـمـيـل عـفـوك، ثـم أنّـي مـسـلـم

قال: فوقفت حتىٰ جهزناه وصلّينا عليه ودفناه وانصرفت.

وقال إسماعيل بن نُوبخت: مات عندي أبو نواس وكان يختلف إليه طبيب، فدخلت عليه يوماً ومعي الطبيب، فنظر إليه، ثم غمزني بعينه وقام، فاتبعته أماشيه وأحسب أبا نُواس ليس يفطن بي، فقال لي سراً: إن الرجل ذاهب، فاحتسب نفس أبي نُواس، في بعض ما ناجاني به. فلما رجعت إليه قال: ماذا قال؟ فقلت له: قال: لا بأس عليه، وهو اليوم عندي أصلح منه بالأمس، فأنشأ يقول:

سـألـتـك بـالـمـودة والـجـوار ... وقـرب الـدار مـن قـرب الـمـزار
بـمـا نـاجـاك إذ ولّـىٰ سـعـيـد ... فـقـد أوحـشـت مـن ذاك الـسـرار

وقال حسن بن الداية: دخلت على أبي نواس الحسن بن هانىء في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: عظني، فرفع رأسه إليّ وأنشأ يقول:

تـكـثّـر مـا اسـتـطـعـت مـن الـخـطـايـا ... فـإنـك لاقـيـاً ربّـاً غـفـوراً
سـتـبـصـر إذ وردت عـلـيـه عـفـواً ... وتـلـقـىٰ سـيـداً مـلـكـاً كـبـيـراً
تـعـضّ نـدامـةً كـفّـيـك لـمـا ... تـركـتَ مـخـافـة الـنـار الـسـرورا

فقلت له: ويلك في مثل هذه الحال تعظني بمثل هذه الموعظة، قال: اسكت: حدثنا حمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**.

وقال الحسن بن عبدالسلام الخطيب: دخلت على دعبل الشاعر فسمعته يقول: كان للحسن بن هانىء خاتمان، خاتم فصّه من عقيق مربع عليه مكتوب:

تعاظمني ذنبي فلما عدلته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

والآخر حديد صيني عليه: لا إله إلاّ الله مخلصاً، فأوصى عند موته أن تقلع وتغسل وتجعل في فمه.

وقال أبو جعفر الصايغ: لما حضر أبو نُواس الموت قال: اكتبوا هذه الأبيات على قبري:

وعظتك أجداث صُمُت ... ونعتك أزمنة خفت

وتكلمت عن أوجه ... تبلى وعن صور سبت

وأرتك قبرك في القبور ... وأنت حي لم تمت[1]

وفي مصدر آخر أن الطبيب لما زاره، أحسَّ بما قاله الطبيب لجليسه من عينيه وهيئته، فأقسم عليه أن يصدِّقه الخبر، فأخبره بذلك، وأن أجله قريب. فرفع أبو نواس عينيه إلى السماء، وسالت دموعه على خديه وقال:

يا ربِّ إني لم أزل ... في مثل حال السَّحَرَهْ

حين استلاذوا بعُرى الديـ ... ـن وكانوا كَفَره

فآمنوا يوماً ففا ... زوا بثواب البَرَره

ولم أزل مستشعر الإ ... يمان يا ذا المقدِرَه

فاغفر فإني منك أو ... لَى منهمُ بالمغفرَه[2]

* * *

(١) تاريخ دمشق الكبير ١٥/٢٧٥ ـ ٢٨١ (باختصار).

(٢) ينظر: بهجة المجالس ٣/٣٧٥ ـ ٣٧٦، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت/ عبدالمعين الملوحي، ص١٠٤.

وفي ملحق الأغاني أخبار عنه وعن سبب موته وآخر ما قاله، فيه ما لم أورده هنا.

{١٦٠} ذنوب على ذنوب

هذه وصية عجيبة، صدرت من رجل تراكمت عليه الذنوب حتى ران على قلبه، فلا يرى إلا السواد والذنوب!.

يُقال له «وكيع»، حضرته الوفاة، فدعا بنيه وقال لهم: يا بنيَّ، إني لأعلم أن قوماً سيأتونكم قد أقرحوا جباههم وعرَّضوا لحاهم، يدَّعون أن لهم على أبيكم دَيْناً، فلا تقضوهم، فإن أباكم قد حملَ من الذنوب ما إن غفرَ الله له لم تضرزهُ، وإلا فهي مع ما تقدَّم[١]!!

* * *

{١٦١} نكوص بالجملة!

- قيل لرجلٍ عند موته: قل لا إله إلا الله.

فأعرض. فأعادوا عليه مراراً، فقال: أخبروني عن أبي طالب، أقالها عند موته؟ قالوا: وما أنت وأبو طالب؟ قال: لا أرغبُ بنفسي عنه!.

- وقيل لأوس بن حارثة عند موته: قل لا إله إلا الله.

فقال: لم يأنِ لها بعد!.

- وقيل لآخر عند موته: ألا توصي؟

قال: أنا مغفورٌ لي!

قالوا: قل إن شاء الله.

قال: قد شاء الله ذلك.

---

(١) عيون الأخبار ٦١/٢.

قالوا: لا تَدَعِ الوصيَّة. فقال لبني أخيه:

بـنـي حُـريـثٍ ارفـعـا وسـادي واحـتـفـظـا بـالـجِـلْـةِ الـجِـلاَدِ
فــإنــمــا حــولــكــمــا الأعــادي[1]

***

{١٦٢} قل خيراً..؟

قيل لأبي السفاح عند موته: أوصِهْ. فقال: إنّا لكرامُ قومِ طَخْفَة[2]!.

قالوا: قل خيراً يا أبا السفاح.

فقال: إن أحبَّت امرأتي فأعطوها بعيراً!.

قالوا: قل خيراً.

قال: إذا مات غلامي فهو حر[3]!.

***

{١٦٣} رؤيا في الاحتضار

روى ابن أبي الدنيا عن الحسن بن عبدالعزيز قوله:

كان عندنا شيخ على أمور، ثم أقلع عنها. فلما احتُضر أُغمي عليه، ثم أفاق فقال: إني رأيت كأني متُّ، وكأن آتياً آتاني، فانطلق بي إلى الله عزَّ وجل، حتى وقف بي دون الحجاب، فكأنه أرادني على الدخول، [فتداخلني] الحياء والخوف، فكأنه يقول: ما هو إلا الدخول عليه، أو دخول إلى النار. [فكأني] اخترت دخول النار، للذي أصابني من الحياء.

قال: فانطلق بي، ثم إنه عُرج به، وقيل له: انطلق به إلى الجنة!.

---

(١) المصدر السابق ٤٩/٢.

(٢) يوم طخفة لبني يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء.

(٣) المصدر السابق ٤٨/٢.

قال: فأُتي بي [إلى] الجنة، فقرع حلقة الباب، فارتفعت بصوت ما سمعتُ مثله حُسناً، ففُتح لنا، فدخل ودخلت معه، فرأيتُ صاحباً لنا، فقلت: فلان؟ قال: فلان. قلت: ما أدخلك الجنة؟ قال: حججنا، فانصرفنا من الحج، فانتهينا إلى مبنى، فقعدنا تحته، فحمدنا الله على ما رزقنا، فأدخلت بذلك الجنة.

قال: وسمعنا صوتاً بالقرآن ما سمعتُ أحسن منه، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا إدريس ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧]. قال: فانظروا، فإن متُّ عند العصر، فرؤياي حق. فلما كان أول وقت العصر أُخبرناه قد صار على ما [قال](١).

***

{١٦٤} وصية في الصحبة

أوصى بعض الحكماء ابنه لما حضرته الوفاة فقال:

يا بني، إذا أردت صحبة إنسان فاصحبْ مَنْ إذا خدمتَهُ صانك، وإن صحبته زانك، اصحب من إذا مددتَ يدك للخير مدَّها، وإن رأى منك حسنةً عدَّها، وإن رأى منك سيِّئةً سدَّها(٢).

***

{١٦٥} يفضل الصحراء على الجنة!

وقال أعرابي احتضر، فبشّره أصحابه بالجنة:

قد بشّروني بالجنان وروحها وَلَكِسْرُ بيتي عند نفسي أطيبُ
يا ليت حظي بالذي بُشّرتهُ بيتٌ بصحراء الغبيطِ مطنَّبُ(٣)

***

(١) المنامات لابن أبي الدنيا رقم ٣١٥، وما بين المعقوفتين تصحيحات من قبلي.
(٢) نوادر من التراث ص٦٢.
(٣) الحماسة البصرية ٣٨١/٢ (برمجيات التراث).

{١٦٦} يوسف بن أسباط

كان يوسف بن أسباط من عبّاد الثغور والعواصم، يجاهد ويتعبَّد، واشتهر بالزهد رحمه الله، وفاته سنة **١٩٩هـ**.

قالت زوجته: كان يقول لي: أشتهي من ربي ثلاث خصال. قلت: وما هنَّ؟ قال: أشتهي أن أموت وليس في ملكي درهم، ولا يكون عليَّ دَيْن، ولا على عظمي لحم.

قالت: فأُعطي ذلك كله، ولقد قال لي في مرضه: أبقيَ عندكِ نفقة؟ قلت: لا. قال: فماذا ترين؟ قالت: أخرج هذه الخابية للبيع، فقال: يعلمُ الناسُ بحالنا ويقولون: ما باعوها إلا وثَمَّ حاجة شديدة. فأخرج شيئاً كان أهداه إليه بعض إخوانه، فباعه بعشرة دراهم، فقال: اعزلي منها درهماً لحنوطي وأنفقي باقيها. فمات وما بقي غير الدرهم(١).

(١) المختار من مناقب الأخيار ١٧٨/٥.

القرن الثالث

{١٦٧} معروف الكرخي

معروف بن الفيرزان الكرخي، نسبته إلى كرخ بغداد، عارف زاهد مشهور، أسند عن بكر بن خُنيس وابن السماك وغيرهما، توفي سنة ٢٠٠هـ. كان ينوح ويبكي وينشد في السَّحر:

أيَّ شيءٍ تريد مني الذنوب ... شُغفتْ بي فليس عنّي تغيبُ
ما يضرُّ الذنوبَ لو أعتقتني ... رحمةً لي، فقد علاني المشيبُ

قيل له في علّته: أوصِ.

قال: إذا متُّ فتصدّقوا بقميصي هذا، فإني أحبُّ أن أخرج من الدنيا عُرياناً كما دخلتُ إليها عُرياناً[(١)]!.

* * *

{١٦٨} السخاء

حُكِيَ عَنِ المعتمر قَالَ: كنتُ فيمن حضر الحَكَمَ بن عَبْدِالملكِ حين جَاءهُ الحَقُّ، فقلتُ: اللَّهُمَّ هون عليهِ سَكراتِ الموتِ فإنَّهُ كَانَ وَكَانَ،

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/٣٢١ ـ ٣٢٤.

فذكرت مَحاسنَهُ. فأفَاقَ، فقالَ: مَن المتكلم؟ فقلتُ: أنا، فقالَ:

إن ملك الموتِ عليهِ السلام يقولُ لِي: إني بِكُل سخي رَفيق. ثُمَّ طُفِيءَ[1]!.

* * *

{١٦٩} الإمام الشافعي

قال المزني رحمه الله: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه [سنة ٢٠٤هـ] فقلت له: كيف أصبحت؟

فقال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، وبسوءِ عملي ملاقياً، وبكأسِ المنيَّةِ شارباً، وعلى الله وارداً، فلا أدري: أروحي تصيرُ إلى الجنَّةِ فأهنِّيها، أم إلى النارِ فأعزِّيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي ... جعلتُ رجائي نحو عفوِكَ سُلَّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنتُهُ ... بعفوِكَ ربِّي كان عفوُكَ أعظما
وما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزلْ ... تجودُ وتعفو منَّةً وتكرُّما

وذكر في «الروض الفائق» زيادة في ذلك، وهي:

فللَّه درُّ العارفِ الفردِ إنه ... تسحُّ لفرطِ الوجدِ أجفانهُ دما
يقيمُ إذا ما الليلُ جُنَّ ظلامهُ ... على نفسهِ من شدَّةِ الخوفِ مأتما
فصيحاً إذا ما كان في ذكرِ ربِّهِ ... وفيما سواهُ في الورى كان معجما
ويذكرُ أياماً مضتْ من شبابهِ ... وما كان فيها بالجهالةِ أجرما
فصار قرينَ الهمِّ طولَ نهارهِ ... ويخدمُ مولاهُ إذا الليلُ أظلما
يقول حبيبي أنت سؤلي وبغيتي ... كفى بكَ للراجين سؤلاً ومغنما

---

(١) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٨، إحياء علوم الدين ٧٠١/٤.

ألستَ الذي غذَّيتني وكفلتني ... وما زلتَ منّاناً عليَّ ومنعما
عسى مَنْ له الإحسانُ يغفرُ زلّتي ... ويسترُ أوزاري وما قد تقدّما[1]

* * *

{١٧٠} عابدٌ يحتضر

وَقَالَ الدارَانِي: دَخلتُ على عَابد وقد احتضر وَهُوَ يبكي، فقلنا لَهُ: مَا يبكيك رَحمك الله؟ فأنشأ يقولُ:

وَحُق لمثلي بالبُكَا عند مَوْتِهِ ... وَمَا لِي لاَ أبكِي وَموتي قد اقترَبْ
وَلِي عَمَل فِي اللوحِ أحْصَاهُ خالقِي ... لئن لَمْ يَجُدْ بالصفحِ صِرتُ إلى العَطَبْ[2]

* * *

{١٧١} أم هارون العابدة

أمُّ هارون... إحدى عابدات الشام...

قال لها أحمد بن أبي الحواري: أتحبين الموت؟

قالت: لا.

قال: ولمَ؟

قالت: لو عصيتُ آدمياً ما أحببتُ لقاءه، فكيف أحبُّ لقاء الله وقد عصيته؟

رحمة الله عليها[3].

* * *

(١) سفينة الفرج للقاسمي رقم ١٦٢، تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٩، صفة الصفوة لابن الجوزي ٢٥٨/٢، المختار من مناقب الأخيار ٣٤٠/٤.

(٢) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٣.

(٣) المختار من مناقب الأخيار ٢٨٨/٥.

{١٧٢} حكيمة المكية

قال سلمة بن خالد المخزومي: كانت هاهنا امرأة من بني مخزوم مجاورة، يُقال لها حكيمة، وكانت إذا نظرت إلى باب الكعبة قد فُتح صرخت كما تصرخ الثكلى، فلا تزال تصرخ حتى يُغمىٰ عليها، وكانت لا تكادُ تفارقُ المسجد إلا إلى الأمر الذي لا بدَّ منه، ففُتحت الكعبةُ يوماً وهي في بعض حاجتها، فلمّا جاءت قالت لها امرأةٌ كانت تجالسها: يا حكيمة، فُتحَ اليومَ بيتُ ربِّك، فلو رأيتِ الطائفين يطوفون به والبابُ مفتوح، وهم ينتظرون الرحمة من ملكهم لقد قرَّتْ عينك.

قال: فصرختْ حكيمةُ صرخة، ثم لم تزلْ تضطربُ حتى ماتت. رحمة الله عليها ورضوانه[1].

***

{١٧٣} أبشر واحذر!

عابد زاهد مشهور من داريّا قرب دمشق، اسمه أبو سليمان عبدالرحمن بن عطية الداراني، لمّا احتُضرَ أتاه أصحابه فقالوا له: أبشرْ فإنك تقدمُ على ربٍّ غفورٍ رحيم.

فقال لهم: ألا تقولون: احذرْ فإنك تقدمُ على ربٍّ يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير؟

ومات سنة ٢٠٥هـ. رحمه الله[2].

***

(١) المصدر السابق ٢٤٥/٥.

(٢) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٢، صفة الصفوة ٢٢٣/٤، إحياء علوم الدين ٧٠٠/٤.

{١٧٤} طب وفلسفة.. واحتضار!

قال مَعْمَرُ المتكلم صاحبُ «المعاني»[١]: حضرتِ الوفاةُ رجلاً كان معي في الحبس، وكان داؤه البطن، فقلت له: كيف تجدُك؟ قال: أجد تحرُّرِي أكثر من تبرُّدي، وأجد روحي قد خرج من نصفي الأسفل، وكأن السّماء قد دنت مني فلو شئت أن ألمسها بيدي لفعلت، ومهما شككتَ في شيءٍ فلا تشكَّ أن الموتَ بردٌ ويُبْس، وأنّ الحياة رطوبة وحرارة[٢]!.

* * *

{١٧٥} أبو حفص الشطرنجي

شاعر عليَّة بنت المهدي، اسمه عمر بن عبدالعزيز، انقطع إليها، وكان غزلاً أديباً ظريفاً، شغف بالشطرنج فنسب إليه. مات نحو ٢١٠هـ.

قال عبدالله بن الفضل: دخلتُ عليه أعوده في علّته التي مات فيها، فجلستُ عنده، فأنشدني لنفسه:

نعى لك ظلَّ الشبابِ المشِيبُ ... ونادتك باسم سواك الخطوبُ
فكن مستعداً لداعي الفناءِ ... فإن الذي هو آتٍ قريبُ
ألسنا نرى شهواتِ النفو ... سِ تفنى وتبقى عليها الذنوبُ
وقبلك داوى المريضَ الطبيبُ ... فعاش المريضُ ومات الطبيبُ
يخاف على نفسه من يتوب ... فكيف ترى حال من لا يتوب[٣]

* * *

(١) هو معمر بن المثنى، أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم بالأدب واللغة، ت٢٠٩هـ. صاحب «معاني القرآن» وغيره.
(٢) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٣/٣٧١.
(٣) الأغاني ٢٢/٥٥، الأعلام ٥/٥٠.

{١٧٦} أبو العتاهية

ـ ذكر محمد بن أبي العتاهية، أن آخر شعر قاله والده في مرض موته [٢١١هـ] هو:

إلـهـي لا تـعـذّبـنـي فـإنـي ... مـقـرٌ بـالـذي قـد كـان مـنّـي
فـمـا لـي حـيـلـةٌ إلا رجـائـي ... وعـفـوكَ إن عـفـوتَ وحـسـن ظَنّي
وكـم مـن زلّـةٍ لـي فـي الـبـرايـا ... وأنـت عـلـيّ ذو فـضـل ومـنّ
إذا فـكـرتُ فـي قـدمـي عـلـيـهـا ... عـضـضـتُ أنـامـلـي وقـرعـتُ سنّي
أجـنُّ بـزهـرةِ الـدنـيـا جـنـونـاً ... وأقـطـعُ طـول عـمـري بـالـتـمـنّـي
وبـيـن يـديَّ مـيـقـاتٌ عـظـيـمٌ ... كـأنـي قـد دعـيـتُ لـه كـأنّـي
ولـو أنـي صـدقـتُ الله فـيـهـا ... قـلـبتُ لأهـلـهـا ظـهـرَ الـمـجـنّ[١]

ـ وفي العقد الفريد أنه أوصى بأن تكتب على قبره هذه الأبيات الأربعة:

أُذنَ حـيّ تَـسَـمَّـعي ... اسـمـعي ثـمّ عِـي وعِـي
أنـا رهـنٌ بـمـضـجَـعـي ... فـاحـذَرِي مـثـلَ مَـضـرَعـي
عـشـتُ تـسـعـيـنَ حِـجّـةً ... ثـمّ وافـيـتُ مَـضـجَـعـي
لـيـسَ شـيء سـوى الـتُّـقـى ... فَـخُـذِي مِـنـهُ أوْ دَعـي

وعارضه بعض الشعراء في هذه الأبيات وأوصى بأن تكتب على قبره فكُتبت، وهي:

أصـبـحَ الـقـبـرُ مَـضـجَـعـي ... وَمَـحـلّـي ومَـوْضِـعـي
صَـرَعـتـنـي الـحـتـوفُ فـي الـ ... ـتـربِ يـا ذُلّ مَـصـرَعـي
أيـنَ إخـوانـي الـذيـ ... ـنَ إلـيـهـمْ تَـطَـلُّـعـي

---

(١) سفينة الفرج للقاسمي رقم ٢٧٠.

مِـــتُ وَخَـــدي فَـــلَـــمْ يَـــمُـــتْ واحـــدٌ مـــنـــهـــمُ مَـــعـــي

ـ وذكر الصفدي أنه لما حضرته الوفاة قال: أشتهي أن يجيء «مُخارق» ويغني عند رأسي:

إذا ما انقضتْ عني من الدهر مدَّتي فـإن عـزاء الـبـاكـيـاتِ قـلـيـلُ
سيُعْرَضُ عن ذكري وتُنسىٰ مودَّتي ويـحـدث بـعـدي لـلـخـلـيـل خـلـيـلُ

والبيتان له من جملة أبيات.

وأوصى أن يكتب على قبره:

إن عـيـشـاً يـكـونُ آخـره الـمـو تُ لـعـيـشٌ مـعـجَّـلُ الـتـنـغـيـصِ[1]

ـ وقال أحمد بن علي بن مروان: دخلت مع إسماعيل بن سويد العنبري على أبي العتاهية وهو يجود بنفسه ويقول:

يـا نـفـس قـد مـثـلـت حـا لـي هـذه لـك مـنـذ حـيـن
وشـكـكـت أنـي نـاصـح لـك فـاسـتـلـمـت إلـى الـظـنـون
فـتـأمـلـي ضـعـف الـحـرا كِ ونـجـلـتـي[2] بـعـد الـسـكـون
وتـيـقَّـنـي أن الـذي بـكِ مـن عـلامـات الـمـنـون[3]

* * *

{١٧٧} مشتاق إلى ربّه

عالم محدِّث من الكوفة، كان أبوه يهودياً فأسلم، هو زكريا بن عدي بن الصلت، وكان متقشفاً حسن الهيئة.

---

(١) الوافي بالوفيات ١٩٠/٩، والفقرة الأولى في «العزلة» أيضاً للخطابي... القاهرة: قصي الخطيب، ١٣٩٩هـ، ص٦٦.

(٢) هكذا في الأصل، ولعلها «وجلتي».

(٣) المحاضرات لليوسي ٦٥٤/٢.

قيل: إنه لما احتضر رفع يديه وقال: اللّهم إني إليك لمشتاق.

ومات سنة ٢١١هـ[١].

* * *

{١٧٨} المحدّث الصالح

الهيثم بن جميل البغدادي نزيل أنطاكية كان حافظاً من صلحاء المحدّثين وأثباتهم، وفاته سنة ٢١٣هـ.

قال سفيان المصيصي: شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سجي نحو القبلة، فقامت جاريته تغمز رجله، فقال: اغمزيها، فإنه يعلم أنه ما مشت إلى حرام قط[٢].

* * *

{١٧٩} الحق مع أصحاب الحديث

أخرج الخطيب البغدادي بسنده قال: سمعت أحمد بن سنان قال:

كان الوليد بن أبان الكرابيسي خالي [معتزلياً]، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا. قال: فتتهمونني؟ قالوا: لا. قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟ قالوا: نعم. قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث، فإني رأيت الحق معهم[٣].

* * *

(١) تذكرة الحفاظ ٣٩٥/١، جامع العلوم والحكم ٣٧٤/١.

(٢) تاريخ بغداد ٥٦/١٤.

(٣) تاريخ بغداد ٦١٢/١٥ (بتحقيق بشار معروف)، سير أعلام النبلاء ٥٤٨/١٠، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٢٨٨/٥. ووفاته سنة ٢١٤هـ.

{١٨٠} وصية أعرابي

ذكر الأصمعي أن أعرابياً وصّى ابنه عند موته فقال: يا بني، وصيّتي إياك مع وصيّة الله منجية، وإن الرضا بها القناعة، وعود الخير أحمد، وإني أسترعي لك بعد وفاتي الذي أحسن إليك في حياتي، فأولى الأمور بعد كتابِ الله سنّةُ رسول الله ﷺ... ثم بعد السنّةِ أمثالُ الحكماء، وأقوالُ الشعراء..[1].

***

{١٨١} أرحم من الوالدين

عن الأصمعي قال: احتضرَ فتًى من الحيّ كان فيه زهو، فرفع رأسه، وإذا أبواهُ يبكيان، فقال لهما: ما بكاؤكما؟

قالا: الخوفُ عليك بإسرافِكَ على نفسك.

فقال: لا تبكيا عليّ، فوالله ما يسرُّني أن الذي بيد الله بأيديكما، وإن الذي أصيرُ إليه وأقدم عليه لأرحم وأرأفُ منكما[2].

***

{١٨٢} وصية في الصحبة

قال علقمة العطاردي[3] في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة:

يا بني، إذا عرضتْ لك إلى صحبةِ الرجال حاجةٌ فاصحبْ من إذا

---

(١) باختصار من: الأمثال والحكم للماوردي ص٤٨.

(٢) المجالسة وجواهر العلم (٣٨٨).

(٣) ظننته علقمة بن عمرو بن الحصين العطاردي المتوفى سنة ٢٥٦هـ، ولكن في ثنايا القصة سؤال المأمون: فأين هذا؟ ووفاة المأمون ٢١٨هـ.

خدمتَهُ صانك، وإن صحبتَهُ زانك، وإن قعدتْ بك مؤنة مانَك[1].

اصحبْ مَنْ إذا مددت يدك بخيرٍ مدَّها، وإنْ رأى منك حسنةً عدَّها، وإنْ رأى سيئةً سدَّها.

اصحبْ من إذا سألتَهُ أعطاك، وإن سكتَّ ابتداك، وإن نزلت بك نازلةٌ واساك.

اصحبْ من إذا قلتَ صدَّق قولك، وإن حاولتما أمراً أمَّرك، وإن تنازعتما آثرك[2].

* * *

{١٨٣} الجارية الحسناء

لمّا تجهَّز المأمون للغزو في آخر سفرة سافرها إلى طرسوس، استدعى بجارية كان يحبها، وقد اشتراها في آخر عمره، فضمَّها إليه، فبكت الجارية وقالت: قتلتني يا أمير المؤمنين بسفرك. ثم أنشأت تقول:

سأدعو دعوة المضطرِّ ربّاً ... يثيبُ على الدعاء ويستجيبُ
لعل الله أن يكفيك حرباً ... ويجمعنا كما تهوى القلوبُ

فضمَّها إليه وأنشأ يقول متمثلاً:

فيا حُسنها إذ يغسلُ الدمعُ كحلها ... وإذ هي تذري الدمع منها الأنامل
صبيحة قالت في العتابِ قتلتني ... وقتلي لما قالت هناك تحاول

ثم أمر مسروراً الخادم بالإحسان إليها والاحتفاظ عليها حتى يرجع. ثم قال: نحن كما قال الأخطل:

---

(١) مانك: احتمل مؤونتك وقام بكفايتك.

(٢) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٩.

وقد تكرر هذا مع الفقرة (٢٠٧) سهواً.

قـوم إذا حـاربـوا شـدُّوا مـآزرهـم   دون الـنـسـاء ولـو بـاتـت بـإطـهـارِ

ثم ودَّعها وسار. فمرضت الجارية في غيبته هذه، ومات المأمون أيضاً في غيبته هذه، فلما جاء نعيه إليها تنفست الصعداء، وحضرتها الوفاة، وأنشأت تقول وهي في السياق:

إن الـزمـان سـقـانـا مـن مـرارتـه   بـعـد الـحـلاوة كـاسـاتٍ فـأروانـا
أبـدى لـنـا تـارةً مـنـه فـأضـحـكـنـا   ثـم انـثـنـى تـارةً أخـرى فـأبـكـانـا
إنـا إلـى الله فـيـمـا لا يـزالُ بـنـا   مـن الـقـضـاء ومـن تـلـويـن دنـيـانـا
دنـيـا تـراهـا تُـريـنـا مـن تـصـرُّفـهـا   مـا لا يـدومُ مـصـافـاةً وأحـزانـاً
ونـحـن فـيـهـا كـأنـا لا يـزايـلـنـا   للعيش أحيا وما يبكون موتانا[1]

* * *

{١٨٤} يختم القرآن وهو في الاحتضار

من المصطفين من أهل عسقلان آدم بن أبي إياس، أصله من خراسان ومنشأه ببغداد، وبها طلب العلم، ورحل إلى بلدان عديدة حتى استقرّ بعسقلان، وكان متمسكاً بالسنة، من الصالحين. مات سنة ٢٢٠هـ.

قال أبو علي المقدسي: لما حضرت آدم بن أبي إياس الوفاة ختم القرآن وهو مسجًى، ثم قال: بحبِّي لك إلا رفقت بي في هذا المصرع، كنت أؤمِّلك لهذا اليوم، كنت أرجوك. ثم قال: لا إله إلا الله. ثم قضى[2].

* * *

(١) البداية والنهاية ١٠/٢٨٠.

(٢) جامع العلوم والحكم ٣٧٣/١، صفة الصفوة ٣٠٨/٤، مرآة الجنان ٨٠/٢.

{١٨٥} المعتصم بالله

مما لم يذكره ابن أبي الدنيا عن الخليفة المعتصم بالله العباسي (ت٢٢٧هـ) أنه لما حضرته الوفاة جعل يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

كما روي عنه أنه قال في مرض موته: اللّهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي[١].

* * *

{١٨٦} بشر الحافي

بشر بن الحارث المروزي (الحافي) عالم رباني قدوة، زاهد معروف. صنف العلماء في مناقبه وكراماته رحمه الله. مات سنة ٢٢٧هـ ببغداد.

قيل له لما احتُضر: يا أبا نصر، كأنك تحبُّ الحياة؟.

فقال: القدومُ على الله تعالى شديد[٢]!.

وقد زاره بعض أقاربه في مرضه الأخير، فشكا إليه الحاجة، فنزع قميصه وواساه، ثم استعار ثوباً فمات فيه[٣]!.

* * *

{١٨٧} شاعر لم يكمل حجه

أديب، كاتب، شاعر، ذكره ابن المرزبان في طبقات الشعراء، وكان في أيام عبدالله بن طاهر أمير خراسان.

---

(١) البداية والنهاية ٢٩٦/١٠.

(٢) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٢، العبر للذهبي ٣١٣/١، إحياء علوم الدين ٧٠٠/٤.

(٣) تهذيب خالصة الحقائق ٦٧٧/٢.

قال وهو يجود بنفسه في مرضه الذي مات فيه بطريق مكة...

أطبقتُ للنوم جفناً ليس ينطبقُ وبتُّ والدمعُ في خدِّي يستبقُ
لم يسترح من له عين مؤرَّقةٌ وكيف يعرف طعم الراحةِ الأرِقُ
وددتُ لو تمَّ لي حجِّي ففزتُ به ما كلُّ ما تشتهيه النفسُ يتفقُ[1]

***

{١٨٨} الأمير النبيل

قال محمد بن منصور البغدادي: دخلتُ على عبدالله بن طاهر[2] وهو في سكرات الموت، فقلت: السلامُ عليك أيها الأمير.

فقال: لا تسمِّني أميراً، وسمِّني أسيراً، ولكن اكتب عني بيتين عَرَضَتْ بقلبي ما أراهما إلا آخر بيتين أقولهما. ثم أنشأ يقول:

بادرْ فقد أسمعكَ الصوت إن لم تبادرْ فهو الفَوْتْ
من لم تَزُلْ نعمته قبله زال عن النعمةِ بالموتْ[3]

وورد البيت الأخير في مصدر آخر:

بل كُلْ إذا شئت وعش ناعماً آخرُ هذا كلِّهِ الموت[4]

***

{١٨٩} الواثق بالله

الواثق بالله هو أحد خلفاء الدولة العباسية، دامت خلافته خمس

---

(١) معجم الأدباء ٣٢٨/٣.
(٢) أمير خراسان، من أشهر الولاة في العصر العباسي. كان سيداً نبيلاً. ت٢٣٠هـ.
(٣) المجالسة وجواهر العلم رقم ١٧٣، تاريخ مدينة دمشق ٢٤٠/٢٩.
(٤) عيون الأخبار ٣٢٩/٢.

سنوات، وعلى الرغم من أنه كان كريماً، كثير الإحسان لأهل الحرمين، حتى قيل: إنه لم يوجد بالحرمين في أيامه سائل، إلا أنه كان يذهب مذهب المأمون في كثير من أموره، فشغل نفسه بمحنة الناس في الدين، وأفسد قلوبهم. كما كان مسرفاً في حب النساء، طروباً يميل إلى السماع.

وصف له دواء للتقوية، فمرض منه، وعولج بالنار، فمات محترقاً سنة ٢٣٢هـ. ولما احتضر جعل يردِّد هذين البيتين:

المـوتُ فيه جميعُ الخلق مشتركٌ ... لا سُوقةٌ منهـمُ يبقى ولا مـلِكُ
مـا ضرَّ أهلَ قليلٍ في تفاقرهم ... وليس يُغني عن الأملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبُسُط فُطويت، وألصق خدَّه بالأرض وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه، يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه(١).

* * *

{١٩٠} يحيى بن معين

يحيى بن معين البغدادي سيِّد الحفاظ وإمام الجرح والتعديل، ذكر أنه كتب بيده مليون حديث! توفي بالمدينة المنورة حاجّاً سنة ٢٣٣هـ.

روى ابن الصلاح أنه قيل له في مرضه الذي مات فيه: ما تشتهي؟.

قال: بيتٌ خالي، وإسنادٌ عالي(٢).

لأن العلوَّ يبعد الإسناد من الخلل، كما قال راويه.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٧٥، الأعلام ٤٤/٩، تاريخ الإسلام للذهبي بتحقيق بشار معروف ٩٥٤/٥، البداية والنهاية ٣١٠/١٠، المنتظم ١٨٥/١١.

(٢) مقدمة ابن الصلاح بتحقيق عائشة عبدالرحمن ص٣٨٠.

قال حبيش بن مبشّر: رأيتُ يحيى بن معين في النوم، فقلت: ما فعل الله بك؟.

قال: مهَّد لي بين المصراعين - يعني ما بين بابي الجنة -.

قال: ثم ضرب بيده إلى كمِّه، فأخرج دَرْجاً. يعني فقال: إنما نِلْنا ما نلنا بهذا، يعني بكتابة الحديث[1].

* * *

{١٩١} لقمان هذه الأمة

يقال له «لقمان هذه الأمة»!.

حاتم الأصم، الزاهد المعروف بالورع والتقشف، جاهد في بعض معارك الفتوح، مات سنة ٢٣٧هـ.

ذكر أنه قال في مرضه الذي مات فيه: كانت بطانتي ثلاثة أشياء، لولا خوف الله ما أنبأتكم!.

ما جلستُ على طعام إلا خفتُ الشّبع، وما خرجتُ إلى سفرٍ إلا خفتُ الرجوع، ولا مرضتُ وَقتاً إلا خفتُ البُرء[2]!.

* * *

{١٩٢} آن لك أن تجاوب

أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي زاهد كبير وربّاني شهير، من أصحاب حاتم الأصم، من جلَّة مشايخ خراسان. مات سنة ٢٤٠هـ.

لمّا حضرته الوفاة سئل عن مسألة، فدمعت عيناه وقال: يا بني، بابٌ

(١) تهذيب الكمال ٥٦٧/٣١، تذكرة الحفاظ ٤٢٩/٢.
(٢) تهذيب خالصة الحقائق ٦٧٩/٢.

كنت أدقُّهُ خمساً وتسعين سنة، هو ذا يُفتحُ الساعةَ لي، لا أدري أيُفتحُ بالسعادة أو الشقاوة؟ فآن لي أوانُ الجواب[1].

وكان قد ركبه من الدَّين (٧٠٠) دينار، وحضره غرماؤه، فنظر إليهم فقال: اللّهم إنك جعلتَ الرهونَ وثيقةً لأرباب الأموال، وأنت تأخذ عنهم وثيقتهم، فأدِّ عنّي.

قال: فدقَّ داقٌّ الباب وقال: هذه دار أحمد بن خضرويه؟ فقالوا: نعم. قال: أين غرماؤه! قال: فخرجوا، فقضى عنه، ثم خرجت روحه[2]!.

* * *

{١٩٣} الإمام أحمد بن حنبل

عندما مرض الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ مرضته الأخيرة، وتهافت الناس لزيارته حتى أغلق باب الزقاق، جاء رجل إلى ابنه صالح فقال له: تلطَّف لي بالإذن عليه، فإني قد حَضرتُ ضربه يوم الدار، وأُريدُ أَن أَستحلَّه. فقلتُ له، فأَمسكَ، فلم أزل به حتى قال: أدخِله، فأَدخلته، فقام بين يَديه وجعل يبكي، وقال: يا أَبا عبدالله، أَنا كنتُ ممن حَضر ضربَك يوم الدار، وقد أَتيتُك، فإن أَحببتَ القِصاص فأَنا بينَ يديك، وإن رأَيتَ أَن تُحلَّني فَعلتَ، فقال: على أَن لا تعود لمثل ذلك. قال: نعم، قال: قَد جعلتك في حلٍّ. فخرج يَبكي، وبَكى من حضر من الناس.

ودخل عليه شيخ فكلَّمه، وقال: اذكر وقوفك بين يدي الله، فشهق أَبو عبدالله، وسالت الدموع على خَديه، فلما كان قبل وفاته بيوم أَو يومين، قال: ادعوا الصبيان ـ بلسان ثقيل ـ يعني الصغار، فجعلوا ينضمون إليه، وجعل يشمهم ويَمسح بيده على رؤوسهم، وعينه تَدمع. فقال له رجل: لا

---

(١) إحياء علوم الدين ٧٠١/٤، سير أعلام النبلاء ٤٨٧/١١.
(٢) صفة الصفوة ١٦٤/٤.

تَغتمّ لهم يا أَبا عبدالله، فأَشار بيده، فظننا أَن معناه: إِني لم أُرد هذا المعنى، وكان يُصلي قاعداً، ويصلي وهو مُضطجع، ولا يكاد يفتر، ويرفع يديه في إِيماءِ الركوع.

واشتدت به العلّة، فوضّأه ابنه الخَميس وَوضَّأته، فقال: خَلّل الأَصابع، فلما كانَت ليلة الجمعة ثَقُل، فظننتُ أَنه قد قُبض، وأَردنا أَن نمدده، فجعل يَقبض قدميه وهو موجّه، وجعلنا نلقّنه، فنقول: لا إِله إِلا الله ونردد ذلك عليه، وهو يُهلّل، وتَوجه إِلى القِبلة واستَقبلها بقدميه، فلما كان يوم الجمعة، اجتَمع الناس حتى مَلأوا السُّكَك والشوارع، فلما كان صدر النهار قُبض رَحمه الله، فصاح الناس، وعَلت الأَصوات بالبكاءِ، حتى كأَنّ الدنيا قد ارتَجّتْ.

قال ابنه صالح: لم يزل أَبي يُصلي في مَرضه قائماً أُمسكه فيركع ويَسجد، وأَرفعه في ركوعه وسُجوده، ودخل عليه مُجاهد بن موسى، فقال: يا أَبا عبدالله، قد جاءَتك البُشرى، هذا الخَلق يَشهدون لك، ما تُبالي لو وردت على الله عز وجل الساعة، وجعل يُقبل يده ويَبكي، وجعل يقول: أَوصني يا أَبا عبدالله، فأَشار إِلى لسانه.

ودخل سَوّار القاضي، فجعل يبشره ويُخبره بالرُّخص وذكر له عن مُعتمر، أَنه قال: قال لي أَبي عند موته: حدّثني بالرخص.

واجتمعت عليه أَوجاع الحصر وغير ذلك ولم يزلْ عَقله ثابتاً، وهو في خلال ذلك يقول: كم اليوم في الشهر؟ فأَخبره. وكنتُ أَنام بالليل إِلى جنبه، فإِذا أَراد حاجة حركني فأَناولُه، وقال لي: جئني بالكتاب الذي فيه حَديث ابن إدريس، عن لَيث عن طاووس، أَنه كان يَكره الأنين، فقرأتُه عليه، فلم يَئنّ إِلا في اللَّيلة التي تُوفي فيها.

وقال ابنه عبدالله: لما حضَرت أَبي الوفَاةُ جلستُ عنده وبيدي الخِرْقَة لأَشُدّ بها لَحييه، فجعل يغرق ثم يُفيق، ثم يَفتح عينيه ويقول بيده هكذا، لا بَعْدُ، لا بَعْدُ، لا بَعْدُ، ثلاثَ مرات، ففعل هذا مرة وثانية، فلما كانَ في

الثالثة، قلت له: يا أبة أيُّ شيءٍ هذا قد لهجتَ به في هذا الوقت؟ تغرق حتى نقول: قد قَضَيْتَ، ثم تعود فتقول: لا بَعْدُ لا بَعْدُ، فقال لي: يا بني ما تَدري؟ فقلت: لا، فقال: إبليسُ لعنه الله قائم حِذائي عاضٌ على أنامله، يقول لي: يا أحمد، فُتَّني، وأنا أقول له: لا بَعْدُ، حتى أموت.

قال ابنه صالح: جعل أبي يحرّك لسانه إلى أن توفي(١).

* * *

{١٩٤} شيخ المشرق

الحافظ الجليل محمد بن أسلم الكندي الطوسي كان من حفاظ الحديث، اشتهر بالصلاح، ونعته الذهبي بشيخ المشرق. وفاته سنة ٢٤٢هـ.

كان له صاحب من مرو يكنى أبا عبدالله.. دخل على محمد بن أسلم قبل موته بأربعة أيام في نيسابور، فقال:

يا أبا عبدالله، تعال أبشّرك بما صنع الله بأخيك من الخير، قد نزل بي الموت، وقد منَّ الله عليَّ أنه ليس عندي درهم يحاسبني الله عليه، وقد علم الله ضعفي وأني لا أطيقُ الحساب، فلم يدع عندي شيئاً يحاسبني به الله.

ثم قال: أغلق الباب ولا تأذن لأحدٍ عليَّ حتى أموت، وتدفنون كتبي(٢) وأعلم أني أخرج من الدنيا وليس أدع ميراثاً غير كتبي وكسائي ولبدي وإنائي الذي أتوضأ منه وكتبي هذه، فلا تكلفوا الناس مؤنة.

وكانت معه صرة فيها نحو ثلاثين درهماً فقال: هذا لابني أهداه إليه قريب له ولا أعلم شيئاً أحلَّ لي منه، لأن النبي ﷺ قال: **«أنت ومالكَ**

---

(١) باختصار من كتاب مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي بتحقيق عبدالله التركي ص٥٤١ ـ ٥٤٨. ووفاته رحمه الله ٢٤١هـ.

(٢) فيكون تبرأ مما فيها مما يخالف الحق (هامش المصدر التالي).

لأبيك». وقال: «أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وولده من كسبه». فكفّنوني فيها، فإن أصبتم لي بعشرة دراهم ما يستر عورتي فلا تشتروا بخمسة عشر، وابسطوا على جنازتي لبدي، وغطوا على جنازتي كسائي، ولا تكلفوا أحداً ليأتي جنازتي، وتصدّقوا بإنائي، أعطوه مسكيناً يتوضأ منه. ثم مات في اليوم الرابع[1].

* * *

{١٩٥} عابد يرحل

وفي رحلة لذي النون المصري إلى جبل لبنان، رأى أحد العباد، فطلب منه أن ينصحه، فقال له قبل أن يصرخ صرخة ويموت:

أحبَّ مولاك ولا تحبَّ غيره، ولا تردْ بحبِّه بدلاً، فالمحبُّون لله سبحانه هم تِيجانُ العبّاد، وأعلامُ الزهّاد، وهم أصفياءُ الله وأحبّاؤه[2].

* * *

{١٩٦} القرب أحياني

سُئِلَ ذُو النُونِ المصري (ت٢٤٥هـ) فِي مرضِهِ الذِي مَاتَ فيهِ: مَا تشتهي؟ قَالَ: أنْ أعرفهُ قبل أن أموت بلحظةٍ.

ثُمّ أنشأ يقولُ:

الخوفُ أمْرضَنِي، والشوقُ أحرقني، وَالحبُّ أهلكَنِي، والقُربُ أحيَانِي!

ثُمّ غشي عليهِ بعد ذلك، ثم عَاشَ يَوماً واحداً ثُمّ مَاتَ[3].

* * *

(١) حلية الأولياء ٩/٢٤١.

(٢) بحر الدموع لابن الجوزي ص١١٣ ـ ١١٤.

(٣) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٥، إحياء علوم الدين ٤/٦٩٩.

{١٩٧} المنتصر بالله

مما لم يورده الحافظ ابن أبي الدنيا عن الخليفة المنتصر العباسي (ت٢٤٨هـ)، أنه لما حضرته الوفاة أنشد:

وما فرحتْ نفسي بدنيا أخذتها ولكن إلى الربِّ الكريمِ أصيرُ[(١)]

* * *

{١٩٨} ..بانتظار الموت

شاعر رقيق الشعر من أهل بغداد كان معاصراً لأبي تمام، هو علي بن الجهم من لؤي بن غالب، خُصَّ بالمتوكل العباسي ثم غضب عليه فنفاه إلى خراسان، ثم انتقل إلى حلب، ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو، فاعترضه فرسان فقاتلهم وجرح ومات من جراحه سنة ٢٤٩هـ.

ذكروا أنه لما طُعن قال لغلامه في أول الليل: أطلع النجم أم لا؟ فقال له غلامه: هذا بعدُ وقت العشاء. فأنشأ يقول:

هل زِيْدَ في الليل ليلُ أم سالَ بالصبحِ سيلُ

ذكرتُ أهلَ دُجيلٍ وأين مني دُجيلُ[(٢)]

* * *

{١٩٩} ألا توصي؟

وقيل لصالح بن مسمار عند الموت: ألا توصي بابنك وعيالك؟

فقال: إني لأستحي من الله أن أوصيَ بهم غيرَه[(٣)]!.

---

(١) الكامل في التاريخ ١٤٩/٦، تاريخ الطبري ٣٥٢/٥.

(٢) الزهرة لابن داود الأصبهاني ٣٨٤/١ (بتحقيق إبراهيم السامرائي).

(٣) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٢، إحياء علوم الدين ٧٠٠/٤.

{٢٠٠} حبٌّ.. أم زقّوم؟

سعد بن حميد المعروف بأبي عثمان الكاتب (ت نحو ٢٥٠هـ) كان كاتباً مترسلاً، من الشعراء، من أولاد ملوك الفرس، ووالده من وجوه المعتزلة. أكثر أخباره مناقضات له مع شاعرة تسمى فضل، وكانت تحبه. جاءته رقعة منها فيها هذان البيتان:

الصبرُ ينقصُ والغرامُ يزيدُ ... والدارُ دانيةٌ وأنتَ بعيدُ
أشكوك أم أشكو إليك فإنه ... لا يستطيعُ سواهما المجهودُ

وبعدهما: أنا يا أبا عثمان في حال التلف، لم تعدني ولا سألت عن خبري. فمضى إليها وسأل عنها، فقالت له: هوذا أنا أموت وتستريح مني. فقال:

لا متُّ قبلكِ بل أحيا وأنتِ معاً ... ولا أعيشُ إلى يوم تموتينا
لا بل نعيش لما نهوى ونأملُه ... ويُرغمُ الله فينا أنفَ واشينا
حتى إذا قدَّر الرحمن ميتتنا ... وحان من أمرنا ما ليس يعدونا
مُتنا جميعاً كغصني بانةٍ ذَبُلا ... من بعدما نضرا واستوسقا حينا
ثم السلام علينا في مضاجعنا ... حتى نقوم إلى ميزان منشينا
فإن نَنَلْ خُلْدَهُ فالخلدُ يجمعنا ... إن شاء أو في لظًى إن شاء يلقينا
إذا التظت بَرّدَتْها بيننا قُبَلٌ ... وبَرْدُ رشفٍ على اللوعات يُغرينا
حتى يقول جميعُ الخالدين بها ... يا ليت أنا معاً كنا محبِّينا[1]

* * *

{٢٠١} مات غريباً

عيسى بن محمد بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، أصله من المدينة وسكن دمشق، ثم خرج عنها ومات بكرمان

(١) الوافي بالوفيات ٢١٤/١٥.

وكان من وجوه بني عدي وشعرائهم، ومن رجال قريش لساناً وجلداً. قال بكرمان وهو يموت:

لعمري لئن أمسي بكرمان مضجعي   غريباً لما ناحت عليَّ النوائحُ
بيثرب تبكيني عيون كثيرة   حسانٌ مجاري الدمع عني نوازح[1]

* * *

{٢٠٢} خاف من القضاء.. فمات

وصف الإمام الذهبي نصر بن علي الأزدي الجهضمي الصغير بقوله: الحافظ العلامة الثقة، وأنه من كبار الأعلام، ونبلاء الناس. وقد توفي سنة ٢٥٠هـ.

قال أبو بكر بن أبي داود: كان المستعين بالله بعث إلى نصر بن علي يُشخصه للقضاء، فدعاه عبدالملك أميرُ البصرة وأمره بذلك، فقال: أرجعُ وأستخيرُ الله تعالى.

فرجع إلى بيته نصف النهار، فصلى ركعتين وقال: اللّهم إن كان لي عندك خيرٌ فاقبضني! فنام، فأنبهوه، فإذا هو ميت[2]!.

* * *

{٢٠٣} يا رب

قال الجنيد: دخلت على سري السقطي (ت٢٥٣هـ) أعودهُ في مرض موته، فقلت: كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

كيف أشكو إلى طبيبيَ ما بي   والذي بي أصابني من طبيبي

(١) تاريخ دمشق ٣٤٦/٤٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣٦/١٢، تذكرة الحفاظ ٥١٩/١ رقم (٥٣٦).

فأخذتُ المروحة لأروِّحه، فقال: كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق؟ ثم أنشأ يقول:

القلبُ محترق والدمع مستبق — والكرب مجتمع والصبر مفترقُ
كيف القرار على من لا قرار له — ممّا جناه الهوى والشوق والقلقُ
يا ربِّ إن يكُ شيءٌ فيه لي فرجٌ — فامننْ عليَّ به ما دام بي رمق(١)

وعنه قال: دخلتُ على سري السقطي وهو في النزع، فجلست عند رأسه، فوضعتُ خدِّي على خدِّه، فدمعتْ عيناي، فوقع دمعي على خدِّه، ففتح عينيه، فقال لي: من أنت؟ قلت: أنا خادمك الجنيد. فقال: مرحباً. فقلت له: أيها الشيخ أوصني بوصية أنتفع بها بعدك.

فقال: إياك ومصاحبة الأشرار، وأن تنقطع عن الله بصحبة الأخيار(٢).

***

{٢٠٤} إبراهيم بن هانىء

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: إن يكن أحدٌ ممن يُعرف من الأبدال فإبراهيم بن هانىء. واختفى عنده عندما امتُحن، وكان يقول: لا أُطيق ما يُطيق إبراهيم من العبادة! ويقول: إن كان في البلد رجل من الأبدال فأبو إسحاق النيسابوري.

قال أبو بكر النيسابوري: حضرتُ إبراهيمَ بن هانىء عند وفاته، فقال لابنه إسحاق: أنا عطشان. فجاءه بماء، فقال: غابتِ الشمس؟ قال: لا.

(١) إحياء علوم الدين ٤/٧٠٠.
(٢) صفة الصفوة ٢/٣٨٥.

فردَّه. فقال له: يا أبه، قد رُخِّص لك في الإفطار في الفرض وأنت متطوِّع. قال: أمهلْ. ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]. ثم خرجت نفسه[2]!.

***

{٢٠٥} النبيل الكريم

معلى بن أيوب كان كاتب المتوكل على الله، ابن خالة الوزير الحسن بن سهل، كان جليل القدر، كثير الأدب، جيد الرأي، من نبلاء الرجال.

لما احتُضر قال لولده: أجْروا على من كنتُ أُجري عليه. فعدُّوهم فإذا هم سبعة آلاف من الضعفاء وذوي البيوتات[3]!.

***

{٢٠٦} الإمام البخاري

بعثَ الأمير خالدُ بن أحمد الذُّهلي، والي بُخارى إلى محمد بن إسماعيل البخاري أن احملْ إليَّ كتابَ «الجامع» و «التاريخ» لأسمعَ منك. فقال لرسوله: أنا لا أُذِلُّ العلمَ، ولا أحملُه إلى أبوابِ النَّاس، فإن كانت لكَ إلى شيءٍ حاجةٌ، فاحضُر في مسجدي، أو في داري، وإن لم يُعجبْكَ هذا منِّي، فأنتَ سُلطان فامنعني من المجلس؛ ليكونَ لي عذرٌ عند الله يومَ

(١) سورة الصافات، الآية: ٦١.

(٢) المختار من مناقب الأخيار للمبارك بن الأثير ٢٧١/١، سير أعلام النبلاء ٩٨/١. وكانت وفاته رحمه الله سنة ٢٥٥هـ، أو ٢٦٥هـ.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ٢١٦/٦ (بتحقيق بشار معروف). وكانت وفاته رحمه الله سنة ٢٥٥هـ.

القيامة، فإنّي لا أكتمُ العلمَ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «**من سُئلَ عن علمٍ فكتَمَهُ، أُلجِمَ بلجامٍ من نارٍ**»[1].

وقال غيرُه: كان سببُ مُفارقة البُخاري بُخارى أنَّ خالدَ بن أحمد الأمير خليفة الطَّاهريَّةِ ببخُارى، سأله أن يحضرَ منزله؛ فيقرأ «الجامع» و «التاريخ» على أولاده، فامتنع عن الحضور عنده، فراسله أنْ يَعقد مجلساً لأولاده لا يحضُره غيرهم، فامتنعَ عن ذلك أيضاً، وقال: لا يَسعُني أن أخُصَّ بالسَّماعِ قوماً دون قوم. فاستعانَ خالدُ بحُريثِ بن أبي الورقاء وغيرِهِ من أهل العلم ببخَارى عليه حتى تكلَّموا في مذهبه، ونفاه عن البلد، فدعا عليهم البُخاريُّ، فقال: اللَّهمَّ، أَرهِمْ ما قصدوني به في أنفسهم، وأولادهم وأهاليهم. فأمَّا خالد فلم يأتِ عليه إلاَّ أقلُّ من شهرٍ حتى ورد أمرُ الطَّاهريَّة بأن يُنادى عليه. فنُودي عليه، وهو على أتان، وأُشخص على إكافٍ، ثم صار عاقبتُه إلى ما اشتهرَ وشاعَ. وأما حُريث فإنّه ابتُلي بأهله فرأى فيها ما يجلُّ عن الوصف. وأما فلان ـ أحد القوم وسمَّاهُ ـ فإنّه ابتُلي بأولاده، وأراهُ اللَّهُ فيهم البلايا.

وقال عبدالقدوس السَّمرقنديُّ: جاءَ محمدُ بنُ إسماعيل إلى خَرتَنك، قريةٍ من قرى سمَرقند على فرسخين منها، وكان له فيها أقرباءُ، فنزل عندهم، فسمعتُهُ ليلةً من الليالي، وقد فَرَغَ من صلاةِ الليل يدعو، ويقول في دُعائه: اللَّهمَّ، إنَّه قد ضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبتْ فاقبضني إليكَ. فما تمَّ الشهرُ حتى قَبَضه الله. وقبره بخَرْتَنْك.

وقال عبدالواحد بن آدم الطَّواويسيُّ: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في النوم، ومعه جماعةٌ من أصحابه، وهو واقفٌ في موضعٍ ذَكَرهُ، فسلَّمتُ عليه، فردَّ عليَّ السَّلام. فقلتُ: ما وقوفُكَ يا رسولَ الله؟ فقال: أنتظرُ محمدَ بن إسماعيل البخاريَّ. فلمّا كان بعد أيام بلغنا موتُه، فنظرنا، فإذا هو قد مات في تلك السَّاعة التي رأيتُ النَّبيَّ ﷺ فيها[2].

* * *

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه.

(٢) المختار من مناقب الأخيار ٣٥٤/٤ ـ ٣٥٥. ووفاته سنة ٢٥٦هـ. رحمه الله.

{٢٠٧} يوصي بحسن الخُلق

قال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله:

وأما حسن الخُلق فقد جمعه علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة، قال:

يا بني، إذا عرضت لك إلى صحبة الرجالِ حاجةٌ فاصحبْ من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بلا مؤنة مانك.

اصحبْ مَنْ إذا قلتَ صدَّق قولك، وإن حاولتما أمراً أمرك، وإن تنازعتما آثرك[١].

* * *

{٢٠٨} أبو زرعة الرازي

يعدُّ الحافظ أبو زُرعة عبيدالله بن عبدالكريم الرازي من أئمة الحديث، حتى قيل: كل حديث لا يعرفه أبو زرعة ليس له أصل! وكان يحفظ مائة ألف حديث!.

روى ابن أبي حاتم بسنده في تقدمة «الجرح والتعديل»[٢] عن أبيه قال: مات أبو زرعة مطعوناً (أي بالطاعون) مبطوناً، يعرق جبينه في النزع، فقلت لمحمد بن مسلم: ما تحفظ في تلقين الموتى لا إله إلا الله؟ فقال محمد بن مسلم: يُروى عن معاذ بن جبل... فمن قبل أن يستتمَّ رفع أبو زرعة رأسه وهو في النزع فقال: روى عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرة، عن معاذ، عن النبي ﷺ: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**. فصار البيتُ ضجَّة ببكاء من حضر.

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٩.

وقد مضى قوله أوفى من هنا في الفقرة (١٨٢) وتكرر هنا سهواً.

(٢) ص٣٤٥ ـ ٣٤٦.

وقال: سمعتُ أحمد بن إسماعيل ابن عم أبي زرعة يقول: سمعتُ أبا زرعة يقول في مرضه الذي مات فيه: اللهمَّ إني أشتاقُ إلى رؤيتك، فإن قال لي: بأيِّ عملٍ اشتقتَ إليّ؟ قلتُ: برحمتك يا رب!.

وكانت وفاته رحمه الله سنة ٢٦٤هـ.

***

{٢٠٩} لأهل العلم والأدب

قال أبو العيناء: كان بالبصرة لنا صديقٌ يهودي، وكان ذا مال، وقد تأدّب وقال الشعر، وعرف شيئاً من العلوم. وكان له وُلْدٌ ذكور، فلما حضرته الوفاة جمع مالَهُ وفرّقه على أهل العلم والأدب، ولم يترك لولده ميراثاً. فعوتب على ذلك فقال:

رأيتُ مالي أبرَّ من وَلَدي ... فاليومَ لا نِحلةٌ ولا صدقَهْ

من كان منهم لها فأبعده الله ... ومن كان صالحاً رزقَهْ[1]

***

{٢١٠} أقلني عثرتي

قال مضارب بن إبراهيم: دخلتُ على الحسين بن الفضل وقد احتضر واغرورقت عيناه، فقال لي: اكتب يا مضارب:

أيا من لا يخيبُ إليه راجي ... ولم يرَهُ الحاج المناجي

ويا ثقتي على سرفي وجرمي ... وإيثار التمادي في اللجاجِ

أقلني عثرتي واغفر ذنوبي ... وهب لي منك عفواً واقضِ حاجي

(١) عيون الأخبار ٣٤٤/١.

فما لي غيرُ إقراري بجرمي ... وعفوك حجّةٌ يوم احتجاجي[1]

* * *

{٢١١} ابن الرومي

قال السرّاج: دخلنا على ابن الرومي[2] في مرضه الذي قضى فيه، فأنشدنا:

لقد سئمتُ مآربي ... فكأنَّ أطيبها خبيثُ

إلا الحديث فإنه ... مثلُ اسمهِ أبداً حديثُ[3]

وقال أبو عثمان الناجمة الشاعر: دخلتُ على ابن الرومي أعوده، فوجدته يجود بنفسه، فلما قمتُ من عنده قال لي منشداً:

أبا عثمان أنت حميدُ قومك ... وجودك في العشيرة دون نومك

تزوَّدْ من أخيك فما تراه ... يراك ولا تراه بعد يومك[4]

وقال نفطويه النحوي: رأيتُ ابن الرومي يجود بنفسه، فقلت: ما حالك؟ قال:

غلط الطبيبُ عليَّ غلطة مورد ... عجزت مواردهُ عن الإصدار

والناسُ يلحون الطبيبَ وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

والمقدار هو القدر[5].

* * *

(١) شعب الإيمان للبيهقي رقم (٧٣٠٧).

(٢) الشاعر علي بن العباس بن جريج، أو جورجيس، الرومي، شاعر كبير، رومي الأصل، ولد ونشأ في بغداد، مات مسموماً سنة ٢٨٣هـ.

(٣) ديوانه ١/٣٩٧.

(٤) شذرات الذهب ٢/١٩٠.

(٥) مواسم الأدب للبيتي ١/١٥٥.

{٢١٢} البحتري الشاعر

الوليد بن عبيد البحتري، أبو عبادة، أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تمام، وهو. مات بمنبج سنة ٢٨٤هـ.

زعم ابنه أبو الغوث أن السبب في قلة بضاعة والده في فن الهجاء أنه لما حضره الموت دعا به وقال: اجمع كلَّ شيءٍ قلته في الهجاء. ففعل، فأمره بإحراقه، ثم قال له:

يا بني، هذا شيءٌ قلته في وقتٍ فشفيت به غيظي، وكافأتُ به قبيحاً فُعل بي، وقد انقضى أربي في ذلك، وإن بقي رُوي، وللناس أعقابٌ يورثونهم العداء والمودة، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولي فيه.

قال: فعلمتُ أنه قد نصحني وأشفق علي، فأحرقته[1].

***

{٢١٣} إبراهيم الحربي

إبراهيم بن إسحاق الحربي البغدادي إمام حافظ من أعلام الحديث والزهد، عارف بالفقه بصير بالأحكام، مات سنة ٢٨٥هـ.

ذكر ابن عقيل في كتابه «الفنون»[2] أن جماعة من أصحابه دخلوا إليه في مرضه الذي مات فيه، فقال بعضهم: كيف تجدك يا أبا إسحاق؟.

فقال: أجدني كما قال الشاعر:

دبَّ فيَّ الفناءُ سُفلاً وعلوا ... وأراني أذوبُ عضواً فعضوا

بَليتْ جدَّتي بطاعةِ نفسي ... وتطلَّبتُ طاعةَ الله نِضْوا

(١) الأغاني للأصفهاني ١٠/٤٣، وباختصار في معاهد التنصيص ١/٣٣٤.

(٢) القسم المطبوع بعنوان «نزهة الغصون من كتاب الفنون»، وفوائد من تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٤. ويلاحظ أن هذين البيتين لأبي نواس، كما في ترجمته في «البداية والنهاية».

وكان له طبيب يتعاهده وينفذ إليه جاريته لتنظر إليه، فجاءت الجارية يوماً وقالت: قد مات الطبيب.

فبكى وقال:

إذا مات المعالِجُ من سقامٍ ... فيوشكُ للمعالَجِ أن يموتا

وكان من ورعه رحمه الله أنه ما أنشد بيتاً إلا قرأ بعده: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات!.

كما نقل ابن كثير أنه لما حضرته الوفاة دخل عليه بعض أصحابه يعوده، فقامت ابنته تشكو إليه ما هم فيه من الجهد، وأنه لا طعام لهم إلا الخبز اليابس بالملح، وربما عدموا الملح في بعض الأحيان، فقال لها إبراهيم: يا بنيّة، تخافين الفقر؟ انظري إلى تلك الزاوية فيها اثنا عشر ألف جزء قد كتبتها، ففي كل يوم تبيعي منها جزءاً بدرهم، فمن عنده اثنا عشر ألف درهم فليس بفقير[1].

* * *

{٢١٤} أبو سعيد الخرّاز

أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز الصوفي البغدادي، صاحب كلام وأحوال ومقامات عجيبة، مات سنة ٢٨٦هـ.

قال رويم: حضرتُ وفاة أبي سعيد الخرّاز وهو يقول في آخر نفسه:

حنينُ قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسرّ
أديرتْ كؤوسٌ للمنايا[2] عليهمُ ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السُّكرِ
همومهم جوّالةٌ بمعسكرٍ ... به أهلُ ودّ الله كالأنجمِ الزُّهرِ

(١) البداية والنهاية ١١/٧٩.

(٢) في المصدر الثاني: للوداد.

وأجسامهم في الأرض تبلى بحبّه ... وأرواحهم في الحُجب نحو العلى تسري
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا عن مسّ بؤسٍ ولا ضُرّ[1]

* * *

{٢١٥} الخليفة الشجاع يحتضر

الخليفة العباسي المعتضد بالله كان موصوفاً بالحلم إلا في مواضع الشدَّة، أظهر بسالة ودراية في حروبه مع الزنج والأعراب وهو في سن الشباب، وكان شجاعاً ذا عزم، مهيباً عند أصحابه، يتَّقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه. دامت خلافته نحو عشر سنوات، ومات سنة ٢٨٩هـ. ولما احتضر أنشد:

تمتَّعْ من الدنيا فإنك لا تبقى ... وخذ صفوها ما إن صفتْ ودع الرنقا
ولا تأمننَّ الدهر إني أمنته ... فلم يُبقِ لي حالاً ولم يَرْعَ لي حقّا
قتلتُ صناديد الرجال فلم أدع ... عدوّاً ولم أمهل على ظنَّةٍ خَلْقا
وأخليتُ دُور الملك من كل بازلٍ ... وشتَّتهم غرباً ومزَّقتهم شرقا
فلما بلغتُ النجمَ عزّاً ورفعة ... ودانت رقابُ الخلق أجمع لي رقّا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي ... فها أنا ذا في حفرتي عاجلاً ملقى
فأفسدتُ دنياي وديني سفاهة ... فمن ذا الذي مني بمصرعه أشقى
فيا ليت شعري بعد موتي ما أرى ... إلى نعمةٍ لِلّهِ أم نارَهُ ألقى[2]

* * *

(١) تاريخ دمشق الكبير ٢٠٩/٥، تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٣، إحياء علوم الدين ٦٩٩/٤.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٩٩ ـ ٣٠٠، تاريخ دمشق الكبير ٨٦/٣، مآثر الإنافة ٢٦٣/١.

{٢١٦} داء الهوىٰ

وَقَالَ إبراهيم الخواص: كنتُ فِي بعضِ الطُرقِ، فرأيتُ شَاباً عليلاً فتقدمتُ إليهِ، فقلتُ: يَا هَذَا قُلْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّه، قَالَ: فحولَ وَجْهَهُ عَني، فقلتُ مرّةً أخْرَى: قُل لاَ إله إلاَّ اللّهُ، فقالَ:

أَنا إن مُتُّ فَالهَوَى حشو قلبي ... وَبِدَاء الهوى يموتُ الكِرَامُ
كيفَ أشكُو إلى طبيبي مَا بِي ... وَالَّذِي بِي أصَابني مِنْ طبيبي

فأخذتُ المروحَة لأروِّحَهُ فقالَ: كيف يجد رِيح المروَحَةِ مَنْ جَوفُه يحترقُ؟ ثم أنشأ يقول:

القلبُ محترقٌ وَالدمعُ مستبِقٌ ... وَالْكَرْبُ مجتمعٌ وَالصَّبْرُ مُفْتَرقُ
كيفَ القرَار على مَنْ لا قرارَ لَهُ ... مِمَّا جناهُ الهوى وَالشوقُ والقلقُ
يَا رَبّ إنْ يك شَيءٌ فيهِ لِي فرجٌ ... فامنن علي بِهِ مَا دَامَ بِي رَمَقُ[١]

***

{٢١٧} قاضي القضاة

قاضي القضاة أبو حازم عبدالحميد بن عبدالعزيز الحنفي، كان من القضاة العادلة، له أخبار ومحاسن، مات ببغداد سنة ٢٩٢هـ.

ولما احتُضر كان يقول: يا رب، من القضاء إلى القبر. ثم يبكي[٢].

***

{٢١٨} النفقة فيما لا يُحتاج إليه

الخليفة المكتفي بالله قام بشؤون الملك قياماً حسناً، أنفق الأموال

---

(١) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٤.

(٢) العبر في خبر من غبر ٤٢٣/١، شذرات الذهب ٢١٠/٢.

العظيمة في حروب القرامطة الخارجين على الحجيج حتى أبادهم واستأصلهم. وفي أيامه فتحت أنطاكية وكان الروم قد استولوا عليها. توفي شاباً ببغداد سنة ٢٩٥هـ.

قال الصولي: سمعتُ المكتفي يقول في علّته: والله ما آسىٰ إلا على سبعمائة ألف دينار صرفتها من مال المسلمين في أبنية ما احتجتُ إليها، وكنتُ مستغنياً عنها، أخافُ أن أُسأل عنها، وإني أستغفر الله منها[1].

***

{٢١٩} أبو الحسين النوري

قال أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري في ترجمة أبي الحسين أحمد بن محمد النوري، البغدادي المولد والمنشأ، الخراساني الأصل: كان من جلّة المشايخ وعلمائهم، لم يكن في وقته أحسنُ طريقة منه، ولا ألطفُ كلاماً منه.

قال أبو نصر السرّاج: كان سببَ موتِ أبي الحسين النوري أنه سمع هذا البيت:

لا زلتُ أنزِلُ من ودادِكَ منزلاً　　تتحيَّرُ الألبابُ عند نزوله

فتواجدَ وهام في الصحراء...

وقال الحسين بن الفضل: حضرتُ أبا الحسين النوري وهو في الموت، فقلت له: يا أبا الحسين، إن أردتَ شيئاً أو كان في نفسك شهوة أو ما أحببتَ فقل لي. فرفع رأسه وقد انكسر لسانه فقال: إي والله أشتهي شهوة كبيرة. قلت: وما هي؟ فقال: أشتهي أن أرى الله تعالى!.

ثم تنفَّسَ نفساً عالياً كالواجدِ بحاله، وفارق الدنيا في سنة (٢٩٥هـ)[2].

***

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣٠٢.

(٢) المختار من مناقب الأخيار ١/٣٥٧، ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

{٢٢٠} عالمٌ يخشى

أبو عبدالله عمرو بن عثمان المكي عالم خبير وعارف بصير، أحكم الأصول وأخلص في الوصول، ساح في البلاد وصحب الأصفياء من العباد، مات سنة ٢٩٦هـ.

قال عثمان بن سهل: دخلت على عمرو بن عثمان المكي في علَّته التي توفي بها، فقلت له: كيف تجدك؟.

فقال: أجد سرّي واقفاً مثل الماء، لا يختارُ النُّقلة ولا المقام(١)!.

* * *

{٢٢١} ابن المعتز

روى أحمد بن محمد بن عباس بن مهران أن عبدالله بن المعتز قال في الليلة التي قُتل في صبيحتها من سنة ٢٩٦هـ:

يا نفسُ صبراً لعلَّ الخيرَ عُقباكِ ... خانتكِ من بعدِ طولِ الأمنِ دُنياك
مرَّتْ بنا سحراً طيرٌ، فقلتُ لها ... طوباكِ يا ليتني إياكِ، طوباكِ
إن كان قصدك شرقاً فالسلامُ على ... شاطي الصراة ابلغي إن كان مسراكِ
من موثقٍ بالمنايا لا فكاكَ له ... يبكي الدماءَ على إلفٍ له باكِ
فربَّ آمنة حانت منيَّتُها ... وربُّ مفلتةٍ من بينِ أشراكِ
أظنهُ آخرَ الأيام مِن عمري ... وأوشكَ اليوم أن يبكي لي الباكي

وحدَّث أبو قتيبة قال: لما أن أقاموا عبدالله بن المعتز إلى الجهة التي تلفَ فيها أنشأ قائلاً:

وقل للشامتين بنا رُويداً ... أمامكم المصائبُ والخطوبُ
هو الدهرُ [الذي] لا بدَّ من أن ... يكونَ إليكم منه ذُنوبُ(٢)

---

(١) صفة الصفوة ٢/٤٤١.

(٢) تاريخ بغداد ١١/٣٠٧ (تحقيق بشار معروف).

{٢٢٢} الجنيد

قال الجريري: كنت عند الجنيد في حال نزعه، وكان يوم الجمعة ويوم النوروز، وهو يقرأ القرآن، فختم، فقلت له: وفي هذه الحالة يا أبا القاسم؟.

فقال: ومن أولى بذلك مني؟ هو ذا تطوى صحيفتي[(١)]؟.

قَالَ أبو بكرِ القطيعي: كنتُ عند الجنيد حتى مَاتَ [٢٩٧هـ]، فختم القرآن ثم ابتدأ فقرأ سبعين آية من سورةِ البقرةِ، ثُمَّ مَاتَ.

وَحُكِيَ أنَّ أبَا العباسِ بن عَطَاء دَخَل على الجنيدِ فِي وقتِ نزعِهِ، فسلم عليهِ فلم يَرُدَّ عليهِ، ثُمَّ رَدَّ عليهِ بعد سَاعَةٍ وَقَالَ: اعذرنِي فإني كُنْتُ فِي وِرْدِي، ثُمَّ وَلَّىٰ بوجهِهِ إِلَى القبلة وَكَبَّر وَمَاتَ[(٢)].

***

{٢٢٣} السنّة

لما احتضر أبو عثمان الحيري[(٣)] مزّق ابنه أبو بكر قميصه، ففتح أبو عثمان عينه وقال: خلاف السنة - يا بني - في الظاهرِ علامةُ رياء في الباطن[(٤)].

***

(١) إحياء علوم الدين ٦٩٩/٤ (طبعة دار الهادي).

(٢) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٧، المختار من مناقب الأخيار لابن الأثير ٨٢/٢، سير أعلام النبلاء ٧٦/١٤.

(٣) هو شيخ الإسلام المحدِّث الواعظ سعيد بن إسماعيل الحيري الصوفي، كان مجمع العبّاد والزهاد، وكان للخراسانيين نظير الجنيد للعراقيين. ت٢٩٨هـ. سير أعلام النبلاء ٦٢/١٤.

(٤) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة/ للسيوطي، المطبعة السلفية، ص٤٣.

{٢٢٤} عابدة

والدة عثمان بن سودة الطفاوي كانت من العابدات، يُقال لها «راهبة». ذكر ابنها عثمان أنها لما احتُضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخري وذخيرتي، ويا من عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت، ولا توحشني في قبري[(١)].

***

{٢٢٥} النفس معارة

قال أحمد بن محمد الدمشقي: دخلت على أبي هاشم [أحمد بن محمد] بن تبوك في الساعة التي قُبض فيها، فقلت: كيف تجدك يا أبا هاشم؟ فقال لي:

النفسُ في بدني ما عشتُ جاريةٌ ... وسوف يأخذها مني مُعيريها
بينا بجهدي أداريها وألطفها ... حتى توافيها من لا يدانيها

فقمتُ عنه. فلما صار إلى عتبة الباب، قضى[(٢)].

***

{٢٢٦} شاعر الوعظ والزهد

من أبرز شعراء الوعظ والزهد في العصر العباسي، استشهد الحافظ ابن أبي الدنيا بشعره كثيراً في مصنفاته، وكان معاصراً له. هو محمود بن الحسين (أو الحسن) الوراق، النخاس، من موالي بني زهرة ببغداد، ينقل

(١) البر والصلة لابن الجوزي رقم (١٩٩) بتحقيق عادل عبدالموجود وعلي معوض.
(٢) تاريخ دمشق الكبير ٦/٦١.

أخبار الماضين وحكم المتقدِّمين، فيحلِّي بها شعره ويزيِّنه به، وفاته في القرن الثالث الهجري.

يروى أن آخر [شعر][1] قاله في مرضه الذي مات فيه:

إنّ ظنّي بحسن عفوك يا ربّ ... جميلٌ وأنت مالكُ أمري

صُنت سِرّي عن القرابة والأهـ ... ـل جميعاً وأنتَ موضعُ سِرّي

ثقةً بالذي لَدَيك من السَّرّ ... فلا تُخزِني بِهِ يَوْمَ نَشْرِي

يوم هَتْكِ السُّتُورِ عن حُجُب الغَيْبِ ... فلا تهتكنّ للناسِ سِتْرِي[2]

* * *

{٢٢٧} أعرابي يجود بنفسه

انتهى أعرابيٌ إلى أرض، فقيل له: إنها مفعاة[3] فبات على ظهر راحلته، فتعلَّقت حيةٌ بِنِسْعةٍ[4] كانت في يده، فقال وهو يجودُ بنفسه:

لعمرك ما يدري امرؤٌ كيف يتّقي ... إذا هو لم يجعلْ له الله واقيا[5]

---

(١) في الأصل «بيت».
(٢) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٣/٣٧٦ ـ ٣٧٧.
(٣) أي ذات أفاعٍ.
(٤) سير طويل، مثل الحبل.
(٥) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١/٥٣٢.

القرن الرابع

{٢٢٨} شيخ المعتزلة

أبو علي محمد بن عبدالله الجُبّائي، شيخ المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره، لما حضرته الوفاة سنة ٣٠٣هـ قال أصحابه: من يلقّنهُ التوبة؟.

فلم يتجاسر أحدٌ على ذلك؛ إعظاماً له. فقال أصغرهم سناً: أنا ألقنه. وتقدّم وقرأ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ففتح أبو علي عينيه وقال: اللّهم إني تائبٌ إليك من كل قول نصرته كان الصوابُ عندك غيره، واشتبه عليّ أمره[(١)].

* * *

{٢٢٩} شيخ الريّ

زاهد معروف سمع ابن حنبل وابن أبي الحواري والنخشبي، هو أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي، صاحب ذي النون المصري، شيخ الريّ والجبال في وقته.

قال بعضهم: كان آخرُ كلامه: إلهي، دعوتُ الخلقَ إليك بجهدي،

---

(١) تكملة تاريخ الطبري للهمداني ١/١٧.

وَقصَّرتْ نفسي بالواجبِ لك عليَّ مع معرفتي بك، وعلمي فيك، فهبني لمن شئت من خلقك[1].

وقال أبو عبدالله الخنقاباذي: حضرنا يوسف بن الحسين الرازي وهو يجود بنفسه، فقيل له: يا أبا يعقوب، قل شيئاً. فقال: اللّهم إني نصحتُ خلقك ظاهراً وغششتُ نفسي باطناً، فهب لي غشي لنفسي لنصحي لخلقك. ثم خرجت روحه.

ومات سنة ٣٠٤هـ[2].

* * *

{٢٣٠} بخيل شرس الأخلاق

كان أبو موسى الحامض سليمان بن محمد النحوي البغدادي أحد المذكورين من العلماء بنحو الكوفيين، أوحد الناس في البيان والمعرفة بالعربية واللغة والشعر، لكنه كان ضيق الصدر، سيىء الخلق، فلقب بالحامض! وله تصانيف حسان، مات سنة ٣٠٥هـ.

لما احتضر أوصى بكتبه لأبي فاتك المقتدري بخلاً بها أن تصير إلى أحد من أهل العلم[3]!!.

* * *

{٢٣١} الكلُّ يأتيه أجله

منصور بن إسماعيل الشافعي فقيه من رأس العين، صنف مختصرات في الفقه الشافعي، وكان شاعراً خبيث الهجو، يتشيَّع، وكان جندياً ثم عمي. قال عند موته (٣٠٦هـ):

---

(١) المختار من مناقب الأخيار ١٨٤/٥، تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٤.
(٢) تاريخ بغداد ٣١٨/١٤.
(٣) وفيات الأعيان ٤٠٦/٢.

قـضـيـتُ نـحـبـي فـسُـرَّ قـومٌ حـمـقـى بـهـم غـفـلـةٌ ونـومُ
كــأن يــومــي عــلــيَّ حــتــمٌ ولـيـس لـلـشـامـتـيـن يـومُ[1]

***

{٢٣٢} الحلاّج

الحسين بن منصور الحلاج فيلسوف ومتصوف وجودي، يعدُّ تارة في كبار المتعبدين والزهاد، وتارة في زمرة الملحدين. ذكر ابن النديم أنه كان محتالاً، يتعاطى مذاهب الصوفية ويدّعي كل علم، جسوراً على السلاطين، مرتكباً للعظائم، يروم إقلاب الدول ويقول بالحلول. كثرت الوشايات به إلى أمير المؤمنين المقتدر، فأمر بالقبض عليه، فسجن وعذب وصُلب سنة ٣٠٩هـ.

قال خادم الحلاج:

لما كانت الليلة التي وعد من الغد بقتله، قلت له: يا سيدي أوصني. فقال لي: عليك نفسك، إن لم تشغلها شغلتك.

قال: فلما كان من الغد وأخرج للقتل قال: حسب الواحد إفراد الواحد له، ثم خرج يتبختر في قيده ويقول:

نَـديـمـي غـيـرُ مـنـسـوبٍ إلـى شـيء مـنَ الـحَـيْـفِ
سَـقـانـي مـثـلَـمـا يـشـرَ بُ فـعـلَ الـضَـيـفِ بـالـضَّـيـفِ
فـلَـمّـا دارتِ الـكـأسُ دَعـا بـالـنّـطـعِ والـسـيـفِ
كَـذا مـن يـشـربُ الـراحَ مَـعَ الـتـنـيـنِ فـي الـصّـيـفِ

(أنها الحق)[2] ثم ما نطق بعد ذلك حتى فعل به ما فعل.

---

(١) الفوائد الجامعة في عدة مسائل نافعة/ عبدالسلام السميح ص٥٨، سير أعلام النبلاء ٢٣٨/١٤.

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: ١٧، ١٨].

وقال شاهد غيره:

لما أدني إلى الخشبة ليصلب عليها سمعته يقول:

يـا مـعـيـن الـفـنـا عـلـيّ أعـنـي عـلـى الـفـنـا[1]

* * *

{٢٣٣} مذهب ابن حنبل

إبراهيم بن السري الزجاج، أبو إسحاق النحوي، كان من أهل الدين والفضل، حسن الاعتقاد، له مصنفات حسان، مات في سنة ٣١١هـ.

ذكر أن آخر ما سُمع منه قوله: اللّهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل[2].

* * *

{٢٣٤} ما لا بدّ منه

ومرّ أبو علي الروذباري ببادية فرأى حدثاً يجود بروحه، فقال له: قل لا إله إلا الله. فأنشأ يقول:

أيـا مَـنْ لـيـس لـي مـنـه وإن عـذّبـنـي بـدُّ
ويـا مَـنْ نـال مـن قـلـبـي مـنـالاً مـا لَـهُ حـدُّ[3]

* * *

(١) تاريخ بغداد ٨/١٣٠ فما بعد، الشعراء الذين رثوا أنفسهم ص١١٦.
(٢) معجم الأدباء ١/٨٢.
(٣) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٩.

{٢٣٥} السالك السائح

أبو بكر بن عيسى الأبهري من رجال «حلية الأولياء» وصفه أبو نعيم بأن أحواله تعلو على السالكين والسائحين، ونقل أن أحدهم حضر عنده وهو في النزع، فقال له: أحسن بربِّك الظن. ففتح عينيه مقبلاً عليه وقال: لمثلي يُقال هذا الكلام؟ إنْ تَرَكنا عبدناه، وإن دعانا أجبناه[١].

***

{٢٣٦} فتى من مصر

قال أبو علي أحمد بن محمد الروذباري رحمه الله:

دخلتُ مصر، فرأيتُ الناس مجتمعين، فقالوا: كنّا في جنازة فتى سمع قائلاً يقول:

كَبُرتْ همَّةُ عينٍ   طَمِعتْ في أنْ تراكا
أوَ ما حَسْبٌ لِعَيْنٍ   أنْ ترى مَنْ قد رآكا

فشهق شهقةً ومات[٢].

***

{٢٣٧} أبو علي الروذباري

قالت فاطمة أخت أبي علي أحمد بن محمد بن القاسم الروذباري، الذي سكن مصر وكان شيخها وبها مات سنة ٣٢٢هـ: لما قربت وفاة أخي كان رأسهُ في حجري، ففتح عينه وقال: هذه أبواب السماء قد فُتحت،

(١) حلية الأولياء ١٠/٣٥٣.
(٢) المختار من مناقب الأخيار لابن الأثير ١/٣٧٤.

وهذه الجِنانُ قد زُيِّنت، وهذا قائلٌ يقول لي: يا أبا علي، قد بلَّغناكَ الرتبةَ القصوى وإن لم تسألها، وأعطيناك درجاتِ الأكابر. ثم أنشأ يقول:

وحــقِّــكَ لا نــظــرتُ إلــى ســواكــا　　بــعــيــنِ مــودَّةٍ حــتــى أراكــا[1]

* * *

{٢٣٨} نفطويه النحوي

نفطويه من أحفاد المهلب بن أبي صفرة، اسمه إبراهيم بن محمد الأزدي، كان إماماً في النحو، رأساً في مذهب داود الظاهري، جالس الملوك والأمراء... مع مروءة وفتوة وظرف... مات سنة ٣٢٣هـ.

قال ابن خالويه: قال لي يوماً وقد حضرته الوفاة: قد جالستني فما رأيتُ منك إلا خيراً، فادعُ لي. ثم قال: وضِّئوني. وقد كنت آخذ بيده، فمرّ بمسجد هشام بن خلف البزار، فقال: هذا مسجد هشام مقرىء أهل بغداد، والله ما كان بأعلم مني، ولكنه أطاع الله فرُفع، وعصيتُ الله فوضع مني[2]!.

* * *

{٢٣٩} أبو الحسن الأشعري

العالم الكلامي الجليل علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن الأشعري، الذي ينتسب إليه الأشاعرة، وكانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم، حتى أظهره الله فجَحرهم في أقماع السِّمسم، كما يقول أحد كبار الأئمة الشافعية. وقد توفاه الله تعالى سنة ٣٢٤هـ.

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٧٠٠، المختار من مناقب الأخيار لابن الأثير ٣٧٤/١، تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٦.

(٢) معجم الأدباء ١٦٩/١.

قال زاهر بن أحمد الفقيه: مات الأشعري ورأسه في حِجْري، وكان يقول شيئاً في حال نزعه من داخل حلقه، فأدنيتُ إليه رأسي، فكان يقول: لعن الله المعتزلة، موَّهوا ومخرقوا.

وقال: لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، أتيته فقال: اشهدْ عليَّ أني لا أكفِّر أحداً من أهل القبلة، لأن الكلَّ يشيرون إلى معبودٍ واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات[1].

* * *

{٢٤٠} مقرىء جليل

كبير علماء القراءات في عصرهِ أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد التميمي، من أهل بغداد، كان حسن الأدب، رقيق الخُلق، فطناً جواداً، وفاته سنة ٣٢٤هـ.

روي عن أبي طالب الهاشمي صهر أبي بكر بن مجاهد قال: كنت عند ابن مجاهد وقد حضرته الوفاة فقال لي: أخرجِ من ههنا من أهلنا، قال: ففعلت ذلك. ثم قال لي: وتباعد أنت أيضاً، فوقفت عنه بعيداً، فاستقبل القبلة، وأقبل يتلو آيات من القرآن، ثم خفت صوته، فلم يزل يتشهَّد، إلى أن طُفىء[2].

* * *

{٢٤١} ابن باجه الأندلسي

محمد بن باجه، وقيل: ابن يحيى بن باجه، أندلسي من فلاسفة الإسلام، يُنسبُ إلى التعطيل ومذهب الفلاسفة، كان وزيراً في غرناطة ثم سرقسطة.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٤٩٧/٧.

(٢) معجم الأدباء ٣٩/٢، الأعلام ٢٦١/١.

لما حضرته الوفاة في شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ، وقيل ٣٢٥هـ، وكان قد سُمَّ في باذنجان بفاس، كان يُنشد:

أقولُ لنفسي حين قابلها الردى ... فراغتْ فراراً من يُسرَى ويُمنى
ففي تحملي بعض الذي تكرهينه ... فقد طالما اعتدتِ الفرار إلى هَنا[١]

* * *

{٢٤٢} أبو محمد المرتعش

أبو محمد عبدالله بن محمد المرتعش النيسابوري أحد مشايخ العراق وأئمتهم، من ذوي الأحوال، وكان من أرباب الأموال فتخلَّى منها، وصحب الفقراء، ثم استوطن بغداد إلى أن مات بها سنة ٣٢٨هـ.

قال أبو عبدالله الرازي: حضرت وفاة أبي محمد المرتعش في مسجد الشونيزيّة[٢] فقال: انظروا خُرَيقاتي. فلما قُرِّبت منه قال: اجعلوها في ديوني، وأرجو أن الله يعطيني الكفن. ثم قال: سألتُ الله ثلاثاً عند موتي فأعطانيها.. سألتهُ أن يُميتني على الفقر رأساً برأس، وسألته أن يجعل موتي في هذا المسجد، فقد صحبتُ فيه أقواماً، وسألته أن يكون حولي مَنْ آنسُ به وأحبُّه. وغمَّض عينيه ومات بعد ساعة. رحمة الله عليه[٣].

* * *

{٢٤٣} رويم

رُويم بن أحمد الصوفي، أبو الحسن، من بني شيبان. كان يتفقه لداود الأصبهاني. توفي ببغداد سنة ٣٣٠هـ.

---

(١) الوافي بالوفيات ٢٤١/٢.

(٢) عند مقبرة ببغداد دُفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين.

(٣) المختار من مناقب الأخيار ٥٠٣/٣ باختصار، البداية والنهاية ١٩٢/١١.

قيل له عند الموت: قل لا إله إلا الله.

فقال: لا أحسنُ غيره[1].

***

{٢٤٤} الشبلي

دلف بن جحدر الشبلي الزاهد صاحبُ أحوال وتصوف، برع في مذهب مالك، ثم سلك وصحب الجنيد، وكان أبوه من حجّاب الدولة. مات سنة ٣٣٤هـ.

لمّا حضرته الوفاة قال لخادمه: قد كان عليَّ درهم من مظلمة، فتصدّقتُ عن صاحبه بألوف، ومع هذا ما على قلبي شغلٌ أعظم منه.

ثم أمر أن يوضّئه، فوضّأه وترك تخليلَ لحيته، فرفع يده ـ وكان قد اعتُقل لسانه ـ فجعل يخلّلُ لحية نفسه[2].

ولمّا مرض [لعله في مرض موته] بعث إليه المقتدر طبيباً نصرانياً، فقال له الطبيب: لو علمتُ أنَّ قطعَ بعض جسدي يشفيك لقطعته!

فقال له: يشفيني قطعُ ما هو أيسرُ عليك من ذلك!.

فقال: وما هو؟

قال: قطعُ زُنّارك[3].

فقطعهُ وأسلم. فبلغ ذلك الخليفة فقال: بعثنا طبيباً إلى عليل، فإذا هو عليلٌ إلى طبيب[4]!.

***

(١) إحياء علوم الدين ٤/٧٠١، صفة الصفوة ٢/٤٤٢.
(٢) البداية والنهاية ١٥/١٧٦.
(٣) كان الزنار علامة لأهل الذمة.
(٤) المصدر السابق ١٥/١٨٥.

{٢٤٥} إقبال.. وإدبار

روى أبو الفرج الأصبهاني عن أبي محمد حمزة بن القاسم الشامي قوله: اجتزتُ بكنيسة الرُّها عند مسيري إلى العراق، فدخلتها لأشاهد ما كنت أسمعه عنها، فبينا أنا في طوافي إذ قرأت على ركن من أركانها مكتوباً بحمرة: حضر فلان ابن فلان وهو يقول: من إقبال ذي الفطنة إذا ركبته المحنة انقطاع الحياة وحضور الوفاة، وأشدُّ العذاب تطاول الأعمار في ظل الإدبار، وأنا القائل:

ولي هِمَّةٌ أدنى منازلها السُّها ... ونفسٌ تعالى في المكارمِ والنُّهى
وقد كنتُ ذا حالٍ بمرو قوية ... فبلَّغتِ الأيامُ بي بيعةَ الرُّها
ولو كنتُ معروفاً بها لم أقم حياً ... ولكنني أصبحتُ ذا غربة بها
ومن عادةِ الأيام إبعادُ مصطفى ... وتفريقُ مجموعٍ وتنغيصُ مشتهى[1]

***

{٢٤٦} أبو بكر النقاش

أبو بكر محمد بن الحسن النقاش، الذي كان يتعاطى نقش السقوف والحيطان أولاً، ثم رحل رحلة طويلة في طلب العلم حتى صار عالماً بالقرآن وتفسيره، وصنَّف فأبدع.. وعبد الله حتى كان ناسكاً...

حكى من حضره وهو يجود بنفسه، وهو يدعو بدعاء، ثم رفع صوته يقول: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ يردِّدها ثلاث مرات، ثم خرجت روحه رحمه الله.

وكانت وفاته يوم الثلاثاء ٢ شوال سنة ٣٥١هـ[2].

***

(١) تاريخ دمشق الكبير ١٦٥/١٧.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٤٣/١١، التدوين في أخبار قزوين ٢٥٥/١، تاريخ بغداد ٢٠٥/٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٢٧/٥٢.

{٢٤٧} أبو علي القالي

الأديب والعلامة اللغوي المعروف أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، صاحب «الأمالي»، المتوفى سنة ٣٥٦هـ، حكى ابن الطيلسان عن ابن جابر أنه قرأ هذين البيتين في لوح رخام كان سقط من القبة المبنية على قبره عند تهدمها، وهما:

صلوا لحدَ قبري بالطريق وودِّعوا ... فليس لمن وارى الترابُ حبيبُ
ولا تدفنوني بالعراء فربما ... بكى أن رأى قبر القريبِ غريبُ[1]

* * *

{٢٤٨} معزُّ الدولة البويهي

معزُّ الدولة أحمد بن بويه الديلمي من ملوك بني بويه في العراق، كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وإخوته البلاد، وكان أصغر إخوانه، امتلك بغداد في خلافة المستكفي ودام ملكه في العراق (٢٢) سنة. مات بداء البطن سنة ٣٥٦هـ. وكان حديداً سريع الغضب بذيَّ اللسان.

قيل: إنه لما احتُضر أحضر بعض العلماء وتاب على يده، وسأله عن الصحابة، فذكر له سوابقهم، وأن علياً زوَّج بنته من فاطمة بعمرَ ـ رضي الله عنه ـ فاستعظم ذلك وقال: ما علمتُ بهذا! وتصدَّق بأموال عظيمة، وأعتق غلمانه، وأراق الخمور، وردَّ كثيراً من المظالم. وكان الرفض (أي التشيُّع) في آخر أيامه ظاهراً ببغداد. ويُقال: إنه أُغمي عليه وندم على الظلم[2].

* * *

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٣/٧٢ (بتحقيق إحسان عباس).
(٢) الوافي بالوفيات ٦/٢٧٩.

{٢٤٩} أبو فراس.. يوم مقتله

قال أبو فراس الحَمْدانيُّ يرثي نفسَه، مخاطباً ابنتَه، يوم مقتله (ت٣٥٧هـ):

أَبُـنَـيَّـتـي، لا تَـحـزَنـي ... كُـلُّ الأنـامِ إلـى ذَهـابِ
أبـنـيـتـي، صَـبْـراً جـمـيـ ... ـلاً للجَليلِ مِنَ المُصابِ
نُـوحـيْ عَـلَـيَّ بـحَـسْـرةٍ ... مـن خَـلْـفِ سِـتْـرِكِ والحِجابِ
قُـولـي إذا نـادَيـتِـنِـي، ... وعَـيِـيْـتُ عَـنْ رَدِّ الجَوابِ:
زَيْـنُ الـشَّـبـابِ، أبـو فِـرا ... سٍ، لَـمْ يُـمَـتَّـعْ بـالشَّبابِ[1]

* * *

{٢٥٠} العلم.. والجهل

أبو زكريا يحيى بن عدي انتهت إليه الرئاسة في علم المنطق، ولد بتكريت ومات ببغداد، وهو من النصارى اليعقوبية، مات سنة ٣٦٤هـ ووصى أن يكتب على قبره حين حضرته الوفاة هذين البيتين:

رُبَّ ميتٍ قد صار بالعلم حياً ... ومبقّى قد مات جهلاً وعِيّا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلودا ... لا تعدُّوا الحياة في الجهل شيّا[2]

* * *

{٢٥١} الشاعر الشاب

ذكر الثعالبي أن أبا نصر أحمد بن علي الزوزني كان غرّة في وجه

(١) ديوان أبو فراس الحمداني/ اعتنى به وشرحه عبدالرحمن المصطاوي ص٥٠، شذرات الذهب ٢٥/٣، الوافي بالوفيات ٢٠٢/١١، وفيات الأعيان ٦٠/٢.
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣١٨/١.

«زوزن» وأنه لما استوى شبابه وشعره ورد العراق وانخرط في سلك الشعراء عند عضد الدولة، فهبَّ عليه نسيم الثروة، وتمهَّد له فراش النعمة.

ثم إنه لما احتُضر أحسن ما كان شباباً وأكمل ما كان آداباً، وكتب إلى والده قصيدة وهو في سكرة الموت، أولها:

ألا هل من فتى يهب الهوينى ... لمؤثرها ويعتسفُ السهوبا
فيبلغ والأمور إلى مجاز ... بزوزنَ ذلك الشيخ الأريبا
بأن يد الردى هصرت بالـ ... ـعراق من ابنه غصناً رطيبا[1]

* * *

{٢٥٢} عضد الدولة البويهي

السلطان عضد الدولة البويهي الذي تملَّك بفارس ثم كثرت بلاده واتسعت ممالكه، كان بطلاً شجاعاً، أديباً نحوياً، جباراً عسوفاً، يقول الشعر، بينها أبيات كفرية، وكان شيعياً جلداً، أقام شعار الرفض. كان حساب ممالكه في العام أزيد من (٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم.. وكان يتطلع إلى أن يصير مليون درهم في اليوم!.

مات بعلة الصرع سنة ٣٧٢هـ، ونقل أنه لما احتضر ما انطلق لسانه إلا بقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾[2][3].

* * *

{٢٥٣} أبو العباس البستي

عبدالله بن محمد بن نافع البستي، أبو العباس الزاهد، ورث من آبائه

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ٥١٦/٤.
(٢) سورة الحاقة، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٤٩/١٦، معجم السفر رقم ٥٩١، الكامل في التاريخ ٤٠٤/٧.

أموالاً كثيرة فأنفقها كلها في وجوه الخير والقرب، وكان كثير العبادة، يُقال: إنه مكث سبعين سنة لم يستند إلى حائط ولا إلى شيء ولا اتكأ على وسادة، وحجّ من نيسابور ماشياً حافياً، ودخل الشام، وأقام ببيت المقدس شهوراً... ثم رجع إلى بلاده بُست، وكان له بها بقية أموال وأملاك فتصدّق بها كلها.

ولمّا حضرته الوفاة جعل يتألم ويتوجّع، فقيل له في ذلك فقال: أرى بين يدي أموراً هائلة ولا أدري كيف أنجو منها! توفي سنة ٣٨٤هـ[١].

***

{٢٥٤} الصاحب بن عباد

شاعر عالم كاتب، ثم وزير عند مؤيد الدولة بن بويه، هو إسماعيل (الصاحب) بن عباد، الذي تتناقل كتب الأدب والتاريخ أخباره كثيراً، مات سنة ٣٨٥هـ. وكان يردِّد قبل وفاته هذين البيتين:

أناخَ الشيب ضيفاً لم أُرِدْهُ ... ولكن لا أطيقُ له مردّا
رداءٌ للردى فيه دليلٌ ... تردّى من به يوماً تردّى

ولمّا كنى المنجّمون عما هو بعرَضه في سنة موته قال:

يا مالك الأرواح والأجسامِ
وخالق النجوم والأحكامِ
مدبِّر الضياء والظلامِ
لا المشتري أرجوهُ للإنعامِ
ولا أخافُ الضرَّ من بهرامِ
وإنما النجومُ كالأعلامِ
والعلمُ عند المَلِك العلاّمِ

---

(١) البداية والنهاية ٣١٣/١١.

يــا ربِّ فــاحــفــظــنــي مــن الأســقــامِ
ووقِّــــنــــي حــــوادثَ الأيـــامِ
وهُــــجْــــنــــةَ الأوزارِ والآثـــامِ
هــبــنــي لــحــبِّ الــمــصــطــفــى الــمُــعــتــامِ[1]
وصِــــنْــــوِهِ وآلـــهِ الـــكـــرامِ

ووجد في بعض أيام مرضه التي مات فيه خفَّة، فأذن للناس، وحلَّ وعَقَد، وأمر ونهى، وأملى كتباً تعجَّبَ الحاضرون من حُسنها ومن فرط بلاغتها، وقال:

كــــلامُــــنــــا مــــن غُــــرَرِ وعــــيــــشُــــنــــا مــــن غِــــرَرِ
إنــــي وحــــقِّ خــــالــــقــــي عــــلــــى جــــنــــاحِ الــــســــفــــرِ[2]

وذكر الصفدي أنه لما حضرته الوفاة قال:

وكم شامتٍ بي عند موتي جهالةً بظلم يسلُّ السيف بعد وفاتي
ولو علم المسكين ماذا ينالهُ من الذّلِّ بعدي مات قبل مماتي[3]

وذكر ابن الجوزي: أنه حين حضرته الوفاة جاءه الملك فخر الدولة ابن مؤيد الدولة يعوده ليوصِّيه في أموره، فقال له:

إني موصِّيك أن تستمرَّ في الأمور على ما تركتُها عليه، ولا تغيِّرها، فإنك إن استمررْتَ بها نُسبتْ إليك من أول الأمرِ إلى آخره، وإنْ غيَّرتها وسلكت غيرها نُسبتْ هي والخيرُ المتقدِّمُ إليَّ لا إليك، وأنا أحبُّ أن تكون نسبةُ الخير إليك، وإن كنتُ أنا المشيرَ بها عليك.

فأعجبه منه ذلك، واستمرَّ على ما أوصاه به من الخير[4].

---

(١) المعتام: المختار.
(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ١٤٥/٤ ـ ١٤٦.
(٣) الوافي بالوفيات ٨٣/٩.
(٤) البداية والنهاية ٤٥٦/١٥ ـ ٤٥٧.

{٢٥٥} صاحب قوت القلوب

أبو طالب المكي محمد بن علي بن عطية صوفي معروف، هو صاحب «قوت القلوب»، كان مجتهداً في العبادة، يعظ الناس في جامع بغداد، وفي كتابه المذكور أحاديث لا أصل لها، وصدر منه كلام فهجره الناس. مات سنة ٣٨٦هـ.

قال أبو القاسم بن سرات: دخلتُ على شيخنا أبي طالب المكي وهو يموت، فقلت له: أوص. فقال: إذا خُتم لي بخير فانثر على جنازتي لوزاً وسكراً. فقلت: كيف أعلم بذلك؟ فقال: اجلس عندي ويدك في يدي، فإن قبضتُ على يدك فاعلم أنه قد خُتم لي بخير.

قال ففعلتُ، فلما حان فراقه قبض على يدي قبضاً شديداً، فلما رُفع على جنازته نثرتُ اللوز والسكر على جنازته.

ذكره ابن كثير في تاريخه[١].

* * *

{٢٥٦} نشيد الموت

أديب، من رؤساء الكتّاب ووجوه العمّال بخراسان، ينتسب إلى العباس بن عبد المطلب، هو عبدالله بن عبدالرحمن الدينوري، المتوفى نحو سنة ٣٩٠هـ.

أنشد لنفسه في مرض موته الذي توفي فيه، وهو آخر شعر قاله:

مضى الإخوانُ فانقرضوا ... وها أنا للردى غَرَضُ
مرضتُ فقيل لي لا تجـ ... ـزعنَّ فإنه عَرَضُ
وأولُ منزلٍ للمر ... ءِ نحو مماتهِ المَرَضُ[٢]

(١) البداية والنهاية ١١/٣٢٠.
(٢) خاص الخاص للثعالبي ص١٨٤.

{٢٥٧} وصية شاعر

حسين بن أحمد بن الحجاج النيلي البغدادي شاعر فحل، اتصل بعضد الدولة البويهي وغيره، قال الذهبي: شاعر العصر وسفيه الأدب وأمير الفحش! كان أمة وحده في نظم القبائح وخفة الروح! دفن ببغداد سنة ٣٩١هـ.

يقال: إنه أوصى أن يُدفن عند رجلي الإمام موسى بن جعفر الصادق (سابع الأئمة عند الإثني عشرية) وأن يكتب على قبره: ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[١][٢].

* * *

{٢٥٨} يريد جزاء مصيبته!

«أصيلة» بلدة في المغرب، نُسب إليها المحدِّث الفقيه عبدالله بن إبراهيم الأصيلي، وقد طاف بالأندلس والمشرق طلباً للعلم، حتى مات بقرطبة سنة ٣٩٢هـ.

كان آخر ما سمع منه حين احتُضر: اللّهم إنك وعدت الجزاء على المصيبة، ولا مصيبة علي أعظم من نفسي، فأحسن جزائي فيها يا أرحم الراحمين.

وكان كثيراً ما يذكر الأربعمائة وما يكون فيها من الفتن، ويدعو الله عز وجل أن يقبضه قبلها، فأجاب الله دعاءه[٣].

* * *

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٨.
(٢) الإغراب في أحكام الكلاب لابن المبرد ص٢٥٢.
(٣) الديباج المذهب ١/١٣٩.

{٢٥٩} الأمير الداهية الشجاع

محمد بن عبدالله بن أبي عامر الملقب بالمنصور، أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموي، كان شجاعاً داهية، غزا وفتح، ودامت له الإمرة ٢٦ سنة، غزا فيها بلاد الإفرنج ٥٦ غزاة، لم ينهزم له فيها جيش!.

وكان إذا فرغ من قتال العدو نفض ما عليه من غبار المصاف ثم يجمعه ويحتفظ به، فلما احتُضر أمر بما اجتمع له من ذلك بأن يذرَّ على كفنه... وتوفي مطعوناً شهيداً وهو بأقصى الثغر بقرب مدينة سالم سنة ٣٩٣هـ[١].

* * *

{٢٦٠} الوزير الجزوع

الوزير أبو مروان عبدالملك بن أحمد بن شُهيد (ت٣٩٣هـ) كان أوحد الناس بالتقدم في علم الخبر والتاريخ، وسائر ما يحاضر به الملوك، مع سعة روايته للحديث والآثار، وهو مؤلف كتاب التاريخ الكبير في الأخبار على توالي السنين..

قال ابن حيان: كانت سنُّه يوم توفي السبعين، وكان له بالإنذار بها رؤيا عجيبة، وذلك أنه أُريَ في منامه صدر نشأته أنه كان يبلعُ سبعين ديناراً ذهباً يعدُّها عدّاً، كلما بلع منها واحداً تبعه بآخر، إلى أن تمت السبعون. فقُصَّت له على أحذق معبِّر كان في الوقت، فأوَّلها عُمراً عددَ كلِّ ما بلغ منها، أعجبت عبدالملك في حال الشباب، ثم ساءته لما دنا منها، فجعل يشكِّك نفسه في عدد تلك الدنانير، ويقول لنا: أحسبها كانت أكثر مما سبق إليّ، فيلبس أمرها عليه طالب رضاه، إلى أن عاجلته المنيَّةُ بعد استكمالها بشهور، فجزع للموت جزعاً عظيماً[٢]!.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ١٢٤/١٧، الأعلام ٢٢٦/٦.

(٢) ينظر: الصلة لابن بشكوال ٥٢٢/٢.

{٢٦١} عبدالصمد الواعظ

كان الشيخ أبو القاسم عبدالصمد بن عمر بن محمد الواعظ من أهل الزهد والصلاح، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. مات سنة ٣٩٧هـ.

دخلت عليه أم الحسن بنت القاضي أبي أحمد بن الأكفاني، وكانت أحد من يقوم بأمره ويراعيه، فقالت له: أسألك وأقسم عليك إلا سألتني حاجة.

فقال لها: نعم، كوني لهنيّة ـ يعني ابنته ـ بعد موتي، كما أنت لها في حياتي.

فقالت: أفعل.

ثم أمسك ساعة وقال: استغفر الله، وكررها، اللّهُ لها خيرٌ منك(١).

* * *

{٢٦٢} شاعر بخارى

كان أبو الحسين محمد بن محمد المرادي شاعر بخارى، وله شعر كثير مدون، كما قال الثعالبي.

ولمّا احتضر أنفذ إليه الجبهاني ثياباً للكفن، فأفاق وأنشأ يقول:

كساني بنو جبهان حياً وميتاً ... فأحييتُ آثاراً لهم آخر الزمن
فأول برٍّ منهم كان خلعة ... وآخرُ برٍّ منهم صار لي كفني

ثم أغمي عليه ساعة، فأفاق وقال:

عاش المرادي لأضيافه ... فصارَ ضيفاً لإله السما
والله أولى بقِرى ضيفه ... فليَدَعِ الباكي عليه البكا(٢)

* * *

(١) صفة الصفوة ٤٨١/٢.
(٢) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ٨٧/٤ (برمجيات التراث ـ عمان).

{٢٦٣} عليّ بالمسلمين

روى متوكل بن موسى عن ابن عبدالسلام قوله:

توفّي جارٌ لنا نصراني، فأخذتِ النّصارى في غسله، فبينما هم في غسله إذِ استوى جالساً فقال: عليّ بالمسلمين، عليّ بالمسلمين، قال: فأتانا الصَّريخ، قال: فأتيناه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: ثم توفي ساعتَه، قال: فتولَّينا غسله، والصلاة عليه، ودفناه في مقابر المسلمين(١).

* * *

{٢٦٤} مشهد جنازة

روى أبو الحسين يحيى بن علي العيدي بالثغر قال: سمعت أبا بكر محمد بن إبراهيم الحنيفي الرازي وسُئل في مرض موته أين يُدفن، فقال: الأرض كلها لله أينما اتفق.

قال: وحين توفي لم أرَ قطُّ جنازة مثل جنازته، غلق الثغر والدكاكين، ولم يبق مسلم ولا يهودي ولا نصراني إلا وقد حضر الجنازة بعد أن كان الناس يضرب بعضهم بعضاً لحملها، وضاعت عمائمُ وأمدسة، كأنه يوم القيامة من الضجيج وكثرة الخلق(٢).

* * *

{٢٦٥} العشيرة والأهل

نصح والد أولاده قرب وفاته قائلاً لهم:

فإنْ أنا يوماً غيَّبتني غَيَابتي ... فسيروا بسَيْري في العشيرة والأهلِ

الغيابة: كل موضع ستر شيئاً وغيَّبه عن النظر، يعني القبر وهي نصيحة

---

(١) البلدانيات للإمام السخاوي، بتحقيق حسام القطان، ص١٩٧.

(٢) معجم السفر لأبي طاهر السلفي رقم ١٥٤٤.

في غاية ما يكون من الدقة والحكمة، لكثرة ما يقع بين الأولاد بعد وفاة والدهم من مجادلات تُفضي أحياناً إلى ما لا تُحمد عقباه[1].

* * *

{٢٦٦} شيخ من عسقلان

قال علي بن يحيى في كتاب «لوامع أنوار القلوب»: صحبتُ شيخاً من عسقلان سريع الدمعة، حسن الخدمة، كامل الأدب، متهجّداً بالليل، متنسّكاً في النهار، وكنت أسمع أكثر دعائه الاعتذار والاستغفار. فدخل يوماً في بعض كهوف جبل اللكّام وغيرانه، فلما أمسى رأيت أهل الجبال وأصحابَ الصَّوامع يُهرولُون إليه، ويتبرّكون بدُعائه، فلمَّا أصبحَ وعزَم على الخُروج، قام أحدُهم، وقال: عِظني، فقال: عليك بالاعتذارِ، فإنه إن قبِلَ عذرك وفُزتَ بالمغفرة، سَلَك بك إلى درجات المقامات، فوجدتها أمانيك، ثمَّ بكى وشهقَ وخرج مِنَ الموضعِ، فلم يلبث إلاَّ قليلاً حتَّى مات[2].

* * *

{٢٦٧} دنا الرحيل.. ولا عذر

عَنِ الطلحي قَالَ: كَانَ بأرضِ اليمنِ رَجل يقالُ لَهُ: ضرْغَام بن فايد بن وَائل الحَضرمي، وَكَانَ زاهداً فِي قومِهِ، فقالَ لغلامهِ ذاتَ يوم: اشدد كتافِي وَعَفِّرْ خدي بالثرى، ففعل، فقالَ: مليكي، دَنَا الرحيل إليك وَلا بَرَاءة لِي من ذنبِ، وَلاَ عذر فأعتذرُ، وَلاَ قوة لِي فأنتصِرُ، أنتَ لِي أنتَ لِي فتغمَّدني.

قَالَ: وَصَاحَ صيحة وَخرَّ ميتاً[3].

---

(١) نقايات من غرر الغرر/ أحمد بن شقرون، ص٣١٩.
(٢) بحر الدموع لابن الجوزي ص١٢٠.
(٣) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٤، صفة الصفوة ٢/٢٩٧.

{٢٦٨} ينظر إلى ابنه العاق

عبدالله بن عبدالوارث من أهل قرطبة، لما احتُضر أحاط به أهله وبنوه يبكون، وكان له ابنٌ يسمى محمداً، أكبرُ بنيه، وكان عاقاً له، فأدمن النظر إليه، ثم تنفّس الصعداء وأنشد لأبي يعقوب الخريمي:

لا أعرفنّكَ بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

ثم فاضت نفسه رحمه الله[١].

* * *

{٢٦٩} استعداد

حُكي: أن ملك الموت جاء إلى رجلٍ من الصالحين ليقبض روحه، فقال:

مرحباً! أنا والله منذ خمسين سنة أتأهَّبُ لك[٢].

* * *

{٢٧٠} لا إله إلا الله

قيل لأبي محمد الدبيلي وقد حضر:

قل: لا إله إلا الله.

فقال: هذا شيءٌ عرفناه، وبه نبقى، وعليه نفنى[٣].

* * *

(١) التكملة لكتاب الصلة ٢/٢٣٧.
(٢) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٤.
(٣) المصدر السابق ص٥٤٥.

{٢٧١} رجاء الخير

كان بعضهم في النزع، فضحك، فقيل له: ما أضحكك؟!.

قال: القدومُ على مَنْ يُرجىٰ خيرهُ خيرٌ من المقامِ مع مَنْ لا يُؤمَنُ شرُّه[١].

* * *

{٢٧٢} سفينة تدور

وَعَنْ أَبِي يزيد العدلِ أَنَّهُ قَالَ: دَخلتُ على أبي بكرِ الشّاشي فِي وقتِ وَفاتِهِ فَقُلْتُ: كيفَ تجِدُك يَا أَبَا بَكْرٍ؟

قَالَ: يَا أخِي، السفينَةُ تَدُورُ حَوْلَ الغَرقِ فإمَّا في الغُرفَاتِ، وإمّا فِي الدَرَكَاتِ[٢].

* * *

{٢٧٣} الله وحده

لما احتضر حجّاج الزاهد قيل له: ما تشتهي؟ قال: الله. ثم خرجت نفسه!.

فرآه بعضُ إخوانه في النوم يمشي على حائط، قال: فرفعت رأسي إليه وأنا أمشي بالأرض، فقلت له: أبا يوسف، كيف حالك، وفيم أنت وعلام قدمت؟.

قال: فضحك وقال: ما الأمر إلا سهل، ما رأيت شيئاً مما كنت أخافه، والحمد لله رب العالمين[٣].

(١) المصدر السابق ص٥٤٥.

(٢) المصدر السابق ص٥٤٧.

(٣) العاقبة في ذكر الموت/ عبدالحق الإشبيلي، ٢٢٦/١.

{٢٧٤} حارس أمين

قِيل للكناني لما حضرتْهُ الوفَاةُ: مَا كَانَ عملك؟

فقالَ: لَوْ لَمْ يقترب أجلي مَا خبرتكُمْ بِهِ! وَقفت على بَابِ قلبي أربعين سنةً، فكلما مَرّ فيهِ غير اللّهِ حجبتهُ عَنْهُ(١).

* * *

{٢٧٥} نحوي حتى الموت

دخل أبو القاسم القصاب على الصيدلاني النحوي في مرض موته، فقال له: ما وزنُ «ليس»؟.

فقال: «فعَل» بالضم أو الفتح.

فقال له: أخطأت. قال: فما وزنها؟ قال: فَعِلَ بالكسر. ومات.

قال: فبقي في نفسي ما السبب؟ فرأيته في المنام، فسألته، فقال: إن «فعل» المفتوحة لا تخفف، وإنما يسكن المضموم أو المكسور، ولا يكون هنا مضموماً؛ لأن ذوات الياء لا تأتي على «فعُل» مضموماً، ولانتفائه في المتعدّي، فتعيَّن كسره، وخفف تخفيف كيف(٢).

* * *

{٢٧٦} تنبيه وتحذير

يبدو أن يحيى بن معمر ـ قاضي قرطبة ـ قد عُزل من القضاء، بسبب

---

(١) تهذيب الأسرار للخركوشي ص٥٤٨، إحياء علوم الدين ٧٠١/٤ (واسمه في المصدر الأول (الكتاني) بالتاء).

(٢) مواسم الأدب وآثار العجم والعرب للبيتي ١٢٧/١ ـ ١٢٨ (طبعة مطبعة السعادة ١٣٢٦هـ).

من يحيى بن يحيى، كما يستفاد من قول الخشني في «قضاة قرطبة»[1]، حيث روى أن ابن معمر لما احتضر بإشبيلية وأيقن بالموت، قال لمولى له كان قد صحبه من أهل الخير: حرجتُ عليك بالله العظيم إلا إذا متُّ فاذهب إلى قرطبة ثم قف بيحيى بن يحيى وقل له: يقول لك يحيى بن معمر: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فلما مات يحيى بن معمر أتى مولاه إلى يحيى فبلغه ذلك، فبكى يحيى حتى أخضل لحيته، ثم قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] ما أظن الرجلَ إلا خُدعنا فيه، ووُشي بيننا وبينه. ثم ترحَّم عليه واستغفر له!.

* * *

{٢٧٧} القاضي الحصيف

كان محمد بن سلمة الكلابي، أخو النضر، رجلاً صالحاً، شديد السلامة في طبعه، مع الزهادة والتنسك، راغباً في إقامة السنة، وقد ولي القضاء. ولما اشتدَّ به المرض ولم يستطع الخروج إلى الخطبة بالناس يوم الجمعة، سأله ولده أن يكتب إلى الأمير ويسأله أن يستخلفه على الصلاة، فقال: والله ما أفعل، ولا أختار لصلاة المسلمين، وأشيرُ بتقديمه على الأمير إلا من يستحقُّها، ومن هو أهل لها. وكتب إلى الأمير يشير عليه بمحمد بن عمر بن لبابة، فقبل الأمير ـ رحمه الله ـ رأيه، وأمر ابن لبابة بالصلاة[2].

* * *

{٢٧٨} أبيات على قبور

جعل الإمام الغزالي في أواخر كتابه «إحياء علوم الدين» فصلاً أو مبحثاً بعنوان: «أبيات وجدت مكتوبة على القبور» وجعل في آخرها موعظة، وهي:

---

(١) ص١١٤، بتحقيق إبراهيم الأبياري.

(٢) قضاة قرطبة للخشني ص١٩٣، ٢٠٢.

وجد مكتوباً على قبر:

تناجيك أجداث وهنَّ صموت | وسكانها تحت التراب خفوتُ
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه | لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

أيا غانم أما ذراك فواسع | وقبرك معمور الجوانب محكمُ
وما ينفع المقبور عمران قبره | إذا كان فيه جسمه يتهدَّم

وقال ابن السماك: مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب:

يمرُّ أقاربي جنبات قبري | كأنَّ أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي | وما يألون أن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا | فيالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوباً:

إنَّ الحبيب من الأحباب مختلس | لا يمنع الموت بواب ولا حرسُ
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها | يا من يعدّ عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً | وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرّته | ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به | عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف | فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

وقفت على الأحبة حين صفت | قبورهم كأفراس الرهان
فلمّا أن بكيت وفاض دمعي | رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوباً:

قد قلت لما قال لي قائل | [قد] صار لقمان إلى رمسه

فأين ما يوصف من طبه وحذقه في الماء مع جسّه
هيهات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

يا أيُّها الناس كان لي أمل قصر بي عن بلوغه الأجلُ
فليتَّق الله ربه رجل أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترىٰ كل إلى مثقله[1] سينتقل

قال الإمام الغزالي:

فهذه أبيات كُتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت، والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره، فيرىٰ مكانه بين أظهرهم، فيستعد للحوق بهم، ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحبَّ إليهم من الدنيا بحذافيرها، لأنهم عرفوا قدر الأعمار، وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنَّما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره، فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب، فإنَّهم إنَّما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة، وأنت قادر على تلك الساعة، ولعلَّك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها، فوطن نفسك على التحسر على تضييعهما عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار[2].

(١) هكذا في الأصل، ولعلها «مثلِهِ» أي مثل القبر.
(٢) إحياء علوم الدين ٤/٨٠٧ ـ ٨٠٨ (طبعة دار الهادي، بيروت).

القرن الخامس

{٢٧٩} عالم.. خائف

كان إبراهيم بن محمد بن شنطير الأموي من أهل طليطلة، وكان زاهداً فاضلاً ناسكاً، صوّاماً قوّاماً، كثير التلاوة للقرآن، يغلب عليه علم الحديث والتمييز له، والمعرفة بطرقه والرواية والتقييد، وكان سنيّاً منافراً لأهل البدع والأهواء، ما رؤي أزهد منه في الدنيا ولا أوقر مجلساً منه، وكان وقوراً مهيباً في مجلسه، وكانت له ولصاحبه أبي جعفر أحمد بن محمد بن ميمون حلقة في المسجد الجامع يُقرأ عليهما فيها كتب الزهد والرقائق والكرامات، ورحل الناس إليهما من الآفاق.

ولما توفي ابن ميمون صاحبه، انفرد هو في المجلس، إلى أن جاء يوماً أبو محمد بن عفيف، الشيخ الصالح، وهو في الحلقة، فقال له: كنت أرى البارحة في النوم أحمد بن محمد صاحبك، وكنت أقوله له: ما فعل بك ربك؟ فكان يقول لي: ما فعل معي إلا خيراً بعد عتاب.

فلما سمع إبراهيم قول أحمد ترك ما كان فيه، وقصد إلى منزله باكياً على نفسه، ومكث يسيراً، وتوفي سنة ٤٠١هـ[١].

* * *

(١) الصلة لابن بشكوال ١/١٥١ (باختصار).

{٢٨٠} استشهاد علامة زمانه

الحافظ أبو الوليد عبدالله بن محمد بن الفرضي قاضي بلنسية، كان علاّمة زمانه، سمع الكثير، وجمع وحصَّل وصنَّف «التاريخ»، وفي المؤتلف والمختلف، ومشتبه النسبة، وغير ذلك.

قتل شهيداً على يد البربر، فسُمع، وهو جريح طريح، يقرأ على نفسه الحديث في الصحيح: **«ما يُكْلَمُ أحدٌ في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وكَلْمُه يَدْمىٰ، اللونُ لونُ الدم، والريحُ ريحُ المسك»**.

وقد كان سأل الله تعالى الشهادة عند أستار الكعبة، فأعطاه الله ذلك.

ومن شعره قوله:

أسير الخطايا عند بابِكَ واقفُ ... على وجلٍ مما به أنت عارفُ
يخافُ ذنوباً لم يَغِبْ عنك غيبُها ... ويرجوك فيها فهْو راجٍ وخائفُ
ومَنْ ذا الذي يُرجىٰ سواكَ ويُتَّقىٰ ... وما لك في فصل القضاءِ مخالفُ
فيا سيِّدي لا تُخزني في صحيفتي ... إذا نُشرت يومَ الحسابِ الصحائفُ
وكنْ مؤنسي في ظلمة القبرِ عندما ... يصُدُّ ذوو القربى ويجفو المؤالفُ
لئن ضاق عني عفوك الواسعُ الذي ... أُرَجِّي لإسرافي فإني تالفُ[1]

* * *

{٢٨١} الوزير المغربي

عُرف بالوزير المغربي، وهو الحسين بن علي بن الحسين، وزير من الدهاة العلماء الأدباء، يُقال: إنه من أبناء الأكاسرة، ولادته في مصر

(١) جذوة المقتبس للحميدي بتحقيق الأبياري ٣٩٧/١، البداية والنهاية ٥٥١/١٥. ووفاته رحمه الله سنة ٤٠٣هـ.

واستوزره مشرف الدولة البويهي، مات بميافارقين سنة ٤١٨هـ ودُفن في تربة مجاورة لمشهد الإمام علي، وأوصى أن يُكتب على قبره:

كنتُ في سَفْرة الغواية والجهـ ـلِ مقيماً فحان مني قدومُ
تبتُ من كل مأثم فعسى يُمْـ ـحىٰ بهذا الحديث ذاك القديم
بعد خمسٍ وأربعين لقد ما طلتُ إلا أن الغريمَ كريمُ(١)

* * *

{٢٨٢} ابن شُهيد

أحمد بن عبدالملك بن شُهيد وزير من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً، من أشجع قيس عيلان. طال به الألم وتزايد سقمه وغلب عليه الفالج الذي عَرض له في مُستهل ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يعدمه حركةً ولا تقلّباً، وكان يمشي إلى حاجته على عَصا مَرّة، واعتماداً على إنسان مرة، إلى قبل وفاته بعشرين يوماً، فإنه صار حجراً لا يبرح ولا يتقلّب، ولا يحتمل أن يحرك لِعَظيم الأوجاع، مع شدّة ضغط الأنفاسِ وعدم الصبر، حتّى همّ بقتلِ نفسه، وفي ذلك يقول من قصيدة:

أَنوحُ على نفسي وأندبُ نُبلَها إذا أنا في الضرّاء أزمعتُ قتلَها
رضيتُ قضاءَ اللّهِ في كلّ حالةٍ عليّ وأحكاماً تيقنتُ عَدلها
أظلّ قعيدَ الدّار تجنُبني العصا على ضعفِ ساق أوهنَ السقمُ رجلَها
وأنعى خَسيساتِ ابنِ آدم عاملاً براحة طِفل أحكم الضرّ نصلَهَا
ألا رُبّ خَصم قد كَفيتُ، وكُربة كشفتُ، ودارِ كنتُ في المَحلِ وَبْلَها
ورُبّ قريضٍ كالجريض(٢) بعثتُه إلى خطبةٍ لا ينكرُ الجمع فضلَها
فمن مبلغُ الفتيان أن أخاهم أخو فتكةٍ شنعاءَ ما كان شِكلها

(١) وفيات الأعيان ١٧٦/٢.
(٢) الجريض: الغصّة.

عليكم سلامٌ من فتًى عضَّهُ الردى ولم ينسَ عيناً أثبتت فيه نَبْلَها
يُبينُ وكفُّ الموتِ يخلعُ نفسَهُ وداخلُها حبٌّ يهوِّنُ ثُكلها[1]

* * *

{٢٨٣} يفضِّل الهوى على رحمة الله!

هناك أديب وشاعر مشهور اسمه أحمد بن كليب النحوي (ت٤٢٦هـ) عشق شخصاً اسمه أسلم، وكان جميلاً جداً، وكلف به حتى مرض ولازم الفراش، وقاطعه ذلك الشخص وقال: لا أدخل مدخل الرِّيب ولا أعرض نفسي لمواقع التهم. فزاد مرضه لابتعاده عنه حتى بدت عليه علائم الموت، وقال لصاحب له يعرف سرَّه: بالله اسمع. وأنشد:

أسلمُ يا راحةَ العليل رفقاً على الهائمِ النحيلِ
وصلُكَ أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالقِ الجميل

فقال له صاحبه: اتّقِ الله، ما هذه العظيمة؟ فقال: قد كان ما كان. فخرج من عنده، فما توسَّطَ الدرب حتى سمع الصراخ عليه وفارق الدنيا.

قال الحميدي: وهذه قصة مشهورة عندنا، والرواة ثقات، وأسلم هذا من بيت جليل، وهو صاحب الكتاب المشهور في «أغاني زرياب»[2].

قال المؤرخ والحافظ الجليل ابن كثير رحمه الله:

وهذه زَلَّةٌ شَنْعاءُ، وعَظيمةٌ صَلْعاءُ، وداهيةٌ دَهْياءُ، ولولا أنَّ هؤلاءِ الأئمةَ ذكَروها لما ذكَرْتُها، ولكن فيها عِبْرةٌ لأُولي الألبابِ، وتَنبيهٌ لذَوِي

---

(١) من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام؛ اختيار وتقديم محمد رضوان الداية، ص١٠٧.
وكانت وفاته سنة ٤٢٦هـ.

(٢) الوافي بالوفيات ٣٠٠/٧، وأورده السفاريني في كتابه «قرع السياط في قمع أهل اللواط» ص٨٢ (بتحقيق راشد الغفيلي).

العقولِ أن يَسْأَلوا اللّهَ رحمتَه ولُطْفَه بهم أن يُثَبِّتَهم على الخيرِ والإسلامِ والسُّنّةِ عندَ المَماتِ، إنه كريم جواد(١).

* * *

{٢٨٤} ابن سينا

ذكر تقي الدين الغزي في ترجمة ابن سينا (ت٤٢٨هـ) أن الناس في اعتقاده فرقتان، له وعليه، والظاهر أنه تاب قبل موته، والله أعلم.

وذكر ابن خلكان في ترجمته أنه اغتسل وتاب، وتصدَّق بما معه على الفقراء، وردَّ المظالم على من عرفه، وأعتق مماليكه، وجعل يختم كل ثلاثة أيام ختمة، ثم مات بهمذان.

وورد أنه قال وهو يجود بنفسه:

أقام رجالاً في معارجه مُلْكا ... وأقعدَ قوماً في غوايتهم هلكىٰ
نعوذُ بك اللّهم من شرّ فتنة ... تُطرِّقُ مَنْ حلَّتْ به عيشةً ضنكا
رجعنا إليك الآن فاقبل رجوعنا ... وقلِّبْ قلوباً طالَ إعراضُها عنكا
فإن أنت لم تُبرىء سَقامَ نفوسنا ... وتشفِ عماياها إذاً فلمن يُشكىٰ
فقد آثرتْ نفسي لِقاكَ وقطَّعتْ ... عليك جفوني من مدامعها سِلْكا(٢)

* * *

{٢٨٥} آخر الأعياد!

مدينة اسمها طلمنكة بالأندلس، منها عالِمٌ مقرىء اسمه أحمد بن عبدالله بن قزلمان المعافري، سكن قرطبة.. وكان حافظاً للسنن، جامعاً

(١) البداية والنهاية ص١٥/٦٥٤.
(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ٣/١٤٣ ـ ١٤٦.

لها، إماماً فيها.. وكان سيفاً مجرّداً على أهل الأهواء والبدع، غيوراً على الشريعة، شديداً في ذات الله تعالى.

روى إسماعيل بن عيسى بن محمد الحجاري عن أبيه قوله: خرج علينا أبو عمر الطلمنكي يوماً ونحن نقرأ عليه، فقال: اقرأوا وأكثروا، فإني لا أتجاوز هذا العام!.

فقلنا له: ولم يرحمك الله؟ فقال: رأيت البارحة في منامي منشداً ينشدني:

اغتنموا البرَّ بشيخٍ ثوىٰ ترحمهُ السُّوقةُ والصَّيدُ
قد خَتَم العُمر بعيدٍ مضىٰ ليس له من بعده عيدُ

قال: فتوفي في ذلك العام، سنة ٤٢٩هـ[1]!.

* * *

{٢٨٦} شراء الموت؟

صاحب الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع في طليطلة عبدالرحمن بن محمد بن الحصّار، كان واحد عصره في الرواية، وكانت الرحلة في وقته إليه، ثقة صدوق.

ذكر ابن مطاهر أن ثقة رآه في مرضه الذي توفي فيه، فسأله عن حاله، فتمثّل:

لو كان موتٌ يُشترى لكنتُ أرجو شاريا

وكانت وفاته سنة ٤٣٨هـ[2].

* * *

(١) ينظر الصلة لابن بشكوال بتحقيق الأبياري ٨٤/١.
(٢) الصلة لابن بشكوال ٤٩٠/٢ (باختصار).

{٢٨٧} موت.. طيب!

كان العالم المتفنن إسماعيل بن علي بن زنجويه إماماً بلا مدافعة، في القراءات والحديث ومعرفة الرجال والأنساب والفرائض والحساب والشروط والمقدَّرات.. ويقول رحمه الله: من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام!.

مات ولا فاته في مرضه فريضة، ولا واجبٌ من طاعةِ الله تعالى، من صلاة ولا غيرها، ولا سال منه لعاب، ولا تلوَّث ثيابه، ولا تغيَّر لونه.

وكان يجدِّد التوبة، ويكثر الاستغفار، ويقرأ القرآن.

مضى لسبيله وهو يتبسَّم، كالغائب يقدم على أهله، وكالمملوك المطيع يرجع إلى مالكه.

مات وقت العتمة من ليلة الأربعاء ٢٤ شعبان سنة ٤٤٥هـ قرب مدينة الري.. عليه رحمة الله[١].

* * *

{٢٨٨} أبو عثمان الصابوني

أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني، الخطيب المفسِّر المحدِّث الواعظ، وعظ المسلمين في مجالس التذكير سبعين سنة، وخطب وصلى في الجامع نحواً من عشرين سنة، أصيب بوجع البطن ولم ينفعه دواء، واشتد عليه الوجع فودَّع أولاده وأوصاهم بالخير ونهاهم عن لطم الخدود وشق الجيوب والنياحة ورفع الصوت بالبكاء، ثم دعا بالمقرىء أبي عبدالله خاصته حتى قرأ سورة يس، وتغير حاله وطاب وقته، وكان يعالج

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ١٩٩/٢.

سكرات الموت، إلى أن قرأ إسناد ما روي أن رسول الله ﷺ قال: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»** ثم توفي رحمه الله من ساعته عصر يوم الخميس ٣ محرم سنة ٤٤٩هـ(١).

* * *

{٢٨٩} أخو سكرة

وكان عبدالله بن فلاح بن رشيق المغربي متصدِّراً للقرآن، مشهوراً بذلك، ذكياً، مليح الشعر.

ومن مشهور شعره ما كُتب في رخامة عند رأسه في قبره:

أيا من رأى قبراً تضمَّن رمسه ... أخا سكرةٍ ما إن يُفيقُ إلى الحشرِ
وما ساءني الأحبابُ في برزخ البلى ... فأصبحتُ لا أزدادُ إلا على عقْرِ
وأصبح وجهي بعد أيِّ نضارةٍ ... كساهُ البِلى ثوباً يجدُّ مع الدهرِ(٢)

* * *

{٢٩٠} ولله الأسماء الحسنى

قال أبو صالح الحافظ: دخلتُ على أبي بكر اللّباد ساعة موته، فسمعتهُ يقول وهو يجودُ بنفسه: الملك القدوس السلام المؤمن... فعدَّ الأسامي إلى آخرها(٣).

* * *

---

(١) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور ١/١٤٠، بغية الطلب في تاريخ حلب ٤/١٦٨٣، تاريخ مدينة دمشق ٩/١١، طبقات الشافعية الكبرى ٤/٢٧٨.

(٢) الوافي بالوفيات ١٧/٤٠٣.

(٣) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور ١/٣٥.

{٢٩١} الإمام الماوردي

كان العلاّمة علي بن محمد الماوردي متبحراً في فقه الشافعية خاصة، وله تصانيف حسان في كل فن، مثل «الحاوي» و «الأحكام السلطانية» و «أدب الدنيا والدين» و «قانون الوزارة وسياسة الملك» وتفسير للقرآن الكريم سماه «النكت». بصري سكن بغداد، أقضى القضاة، عظيم القدر، وكان متقدِّماً عند السلطان، مات سنة ٤٥٠هـ.

قيل إنه لم يُظْهِرْ شيئاً من تصانيفه في حياته، وجمعهما في موضع، فلما دنت وفاته قال لمن يثق به: الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أُظهرها لأني لم أجد نيَّة خالصة، فإذا عاينتُ الموت، ووقعتُ في النزع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضتُ عليها وعصرتُها فاعلم أنه لم يُقبلْ منِّي شيءٌ منها، فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة، وإن بسطتُ يدي فاعلم أنها قُبلت.

قال الرجل: فلما احتُضر وضعتُ يدي في يده، فبسطها، فأظهرتُ كتبه[١]!.

* * *

{٢٩٢} زعيم المرابطين

زعيم المرابطين الأول عبدالله بن ياسين المصمودي كان من طلبة العلم أولاً، شديد الورع في المطعم والمشرب، حريصاً على صلاة الجماعة، ومن فاتته فيها صلاة ضُرب عشرين سوطاً، ومن فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط! مات سنة ٤٥١هـ.

ولما حضرته الوفاة قال لهم: يا معشر المرابطين، إني ميت من يومي

(١) سير أعلام النبلاء ٦٦/١٨.

هذا لا محالة، وإنكم في بلاد عدوّكم، فإياكم أن تجبنوا، أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا أعواناً على الحق، وإخواناً في ذات الله، وإياكم والتحاسد على الرئاسة، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده[1].

* * *

{٢٩٣} الملك السلجوقي

في سنة ٤٥٥هـ توفي أول ملوك السلجوقية أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق... وكان قد رأى رؤيا وأنه سيعمَّر سبعين عاماً... فلما حضرته الوفاة قال:

إنما مثلي مثلُ شاة شدَّت قوائمها بحبل الصوف، فتظن أنها تُذبح فتضطرب، حتى إذا أُطلقت تفرح، ثم تشدُّ للذبح فتظنُّ أنها تشدُّ بحبل. فمات منه رحمه الله تعالى وعمره سبعون سنة[2].

* * *

{٢٩٤} ما تشتكي؟

قيل لبعضهم وقد احتضر: أيَّ شيءٍ تشتكي؟

قال: تمامَ العِدَّة، وانقضاءَ المدَّة[3].

* * *

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٩/٢.

(٢) مرآة الجنان ٧٧/٣.

(٣) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٣٧٢/٣.

مؤرخ بغداد الكبير أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣هـ، كان يقول:

شربتُ ماء زمزم على نية أن أدخل بغداد وأروي بها التاريخ، وأن أحدِّث بها وأُدفن بجنب بشر بن الحارث. وقد رزقني الله تعالى دخولها ورواية التاريخ بها، وأنا أرجو الثالثة.

وأوصى أن يُدفن إلى جانب بشر. ولما توفي حمل جنازته أبو إسحاق الشيرازي وعبر به على الجسر، وجاوزوا به الكرخ، وحُمل إلى جامع المنصور، وحضر الأماثل والفقهاء والخلق الكثير... ودُفن إلى جانب بشر.

وكان أحمد بن الطريثيثي قد حفر هناك قبراً لنفسه، فكان يمضي إلى ذلك الموضع ويختم فيه القرآن عدة سنين، فلما أرادوا دفن الخطيب هناك منعهم، وقال: هذا قبري أنا، حفرته وختمت فيه ختمات، ولا أمكِّنكم.

فقال له أبو سعد الصوفي: يا شيخ، لو كان بشر الحافي في الحياة، ودخلت أنت والخطيب عليه، أيكما يقعد إلى جانبه؟ قال: الخطيب! فقال: كذا ينبغي أن يكون في حالة الموت.

فطاب قلبه ورضي، فدُفن الخطيب هناك. رحمه الله تعالى(١).

وقال ابن كثير رحمه الله في تاريخه: وحين احتُضر كان عنده قريبٌ من مائتي دينار، فأوصى بها لأهل الحديث، وسأل السلطان أن يمضيَ ذلك فإنه لا يترك وارثاً، فأجيب إلى ذلك(٢).

* * *

(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب، مقدمة محمد الحافظ التيجاني ص٢٩ ـ ٣٠.

(٢) البداية والنهاية ١٠٢/١٢.

{٢٩٦} كاتب أندلسي

كان أحمد بن أيوب اللمّاي شاعراً وأديباً ماهراً وكاتباً نبيلاً، من أئمة الكتاب وشُهب الأدب، وحاز بذلك صيتاً شهيراً. أصيب بداء الصدر وأعياه علاجه، وقد دخل عليه بعض أصحابه يروِّح عليه، فقال له بديهة:

روَّحني عائدي فقلتُ له ... لا تزدني على الذي أجِدُ
أما ترى النار وهي خامدةٌ ... عند هبوب الرياح تتَّقدُ؟

مات بمالقة سنة ٤٦٥هـ وأمر أن يُكتب على قبره بهذه الأبيات:

بنيتُ ولم أسكن وحصَّنتُ جاهداً ... فلما أتى المقدور صيَّره قبري
ولم يكُ حظي غير ما أنتَ مبصرٌ ... بعينك ما بين الذراعِ إلى الشبرِ
فيا زائراً قبري أوصِّيك جاهداً ... عليك بتقوى الله في السرِّ والجهر
فلا تُحسننْ بالدهر ظناً فإنما ... من الحزم ألا يُستنامَ إلى الدهرِ(١)

* * *

{٢٩٧} إمام الحرمين

كان إمام الحرمين ـ عبدالملك بن عبدالله الجويني، (ت٤٧٨هـ) ـ يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وهاأنذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور(٢).

* * *

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة/ لسان الدين بن الخطيب، بتحقيق عنان، ١/٢٣٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/٧٣، شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص٧.

{٢٩٨} ابن ناقيا

عبدالله، وقيل عبدالباقي بن محمد بن الحسين بن ناقيا المعروف بالبُندار، شاعر مشهور، عذب الألفاظ، من أهل بغداد، كان كثير المجون، ينسب إلى مذهب المعطلة ويتهم بالطعن على الشريعة، وهو صاحب كتاب «الجمان في تشبيهات القرآن».

ذكر مغسّلهُ بجامع المنصور علي بن محمد الدهان أنه دخل إليه ليغسّله، فوجد يده اليسرى مضمومة، قال: فاجتهدتُ على فتحها، فإذا فيها كتابةٌ بعضُها على بعض، فتمهّلتُ حتى قرأتها، فإذا فيها:

نزلتُ بجارٍ لا يُخيِّبُ ضيفَهُ ... أُرَجّي نجاتي من عذابِ جهنَّمِ
وإني على خوفي من الله واثقٌ ... بإنعامهِ والله أكرمُ منعمِ

وكانت وفاته سنة ٤٨٥هـ(١).

* * *

{٢٩٩} تذلُّل

قال بعض السّادة الأخيار لولده لما حضرته الوفاة: يا بني، اسمع وصِيَّتي، واعمل ما أوصيك به. قال: نعم يا أبتِ. قال: يا بنيَّ، اجعل في عُنقي حبلاً، وجرَّني إلى محرابي، ومرِّغ خدي على التُّراب، وقل: هذا جزاءُ مَنْ عصى مولاه، وآثرَ شهوتَه وهواه، ونام عن خدمة مولاه.

قال: فلما فعل ذلك به، رفع طرفَه إلى السّماء، وقال: إلهي وسيدي ومولاي، قد آنَ الرَّحيلُ إليك، وأزِفَ القُدومُ عليك، ولا عُذْرَ لي بين يديك، غير أنّك الغفورُ وأنا العاصي، وأنت الرَّحيم وأنا الجاني، وأنت

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ٤/٢٢٥، الأعلام ٤/٢٦٧.

السَّيِّدُ وأنا العبدُ، ارحم خضوعي وذِلَّتي بين يديك، فإنَّه لا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بك.

وخرجت روحه في الحال[1].

* * *

{٣٠٠} وانقطع الكلام

روى ابن حزم الظاهري أن أبا الوليد بن حَريش قال: لمّا احتُضر أبو العباس بن جهور قال:

أأرجو بالحياة وقد نأيتم ... تقضَّى النحبُ وانقطعَ الكلامُ

ثم مات على إثر ذلك[2].

* * *

{٣٠١} السكرة الحقيقية

قالوا: السكر ثلاث: سكرة الشباب، وسكرة الولاية، وسكرة الشراب، وهي أهونها. وقد خمسها من قال:

سكراتٌ خمسٌ إذا مُنِي المر ... ءُ بها صار خلسة الشيطان

سكرة المال والحداثة والعشـ ... ـشق وسكر الشراب والسلطان

وسمعه بعض الزهَّاد فقال: أين هو من سكرة الموت؟ وقرأ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[3].

* * *

(١) بحر الدموع لابن الجوزي ص٢٠.

(٢) جذوة المقتبس للحميدي ٢/٦٣٧ (بتحقيق الأبياري).

(٣) المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري ص٥٧٨.

{٣٠٢} آه من الهوى!

عن علي بن إسماعيل قال: صحبتُ رجلاً من إخواني إلى الكعبة، فمرض في بعض الطريق، فلما حُضِرَ قلت له: يا أخي قل لا إله إلا الله، فرفع رأسه إلي وهو يقول:

فويلي من الحمّى وويلي من الهوى   وما منهما إلا عليَّ شديدُ

فأعدتُ عليه: قل لا إله إلا الله. ففتح عينيه ثم قال:

أنا إن متُّ فالهوى حشوُ قلبي   فبداءِ الهوى يموتُ الكرام

ثم قال: يا مَنْ لا يموتُ أبداً، ارحمْ مَنْ يموتُ غداً. ثم مات[١].

* * *

{٣٠٣} جبلان من نار!

احتضر رجل، فإذا هو يقول: جبلين من نار، جبلين من نار!.

فسُئل أهله عن عمله، فقالوا: كان له مكيالان، يكيلُ بأحدهما، ويكتالُ بالآخر![٢].

(١) الطيوريات/ انتخاب السِّلفي؛ تحقيق الصاغرجي وزميله رقم ٧٨١.
(٢) المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري ص٤٥٠.

القرن السادس

{٣٠٤} حجة الإسلام

حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، كتب أبياتاً قبيل وفاته ووضعها تحت وسادته، وهي:

قل لإخوان رأوني ميتاً ... فبكوني ورثوا لي حزنا
أتظنون بأني ميتكم؟ ... لست ذاك الميت واللّهِ أنا
أنا في الصور وهذا جسدي ... كان بيتي وقميصي زمنا
أنا درّ قد حواه صدف ... كنت ممحوناً فعفت المحنا
أنا عصفور وهذا قفصي ... طرت عنه وبقي مرتهنا
أحمد الله الذي خلصني ... وبنى لي في المعالي سكنا[١]

وذكر الحافظ ابن كثير في تاريخه[٢] أن بعض أصحابه سأله وهو في السياق أن يوصيه، فقال له: عليك بالإخلاص. فلم يزل يكررها حتى مات رحمه الله (٥٠٥هـ).

* * *

(١) المجتمع ع ١٣٦٨ ص٤٣.
(٢) البداية والنهاية ٢١٥/١٦ (بتحقيق عبدالله التركي).

{٣٠٥} ابن القيسراني

المحدِّث الحافظ، الرحالة المؤرخ محمد بن طاهر المقدسي، المعروف بابن القيسراني، مولده ببيت المقدس ووفاته ببغداد، صاحب مؤلفات، مات سنة ٥٠٧هـ.

ذكر ابن الجوزي أنه لما احتُضر جعل يردِّدُ هذا البيت:

وما كنتم تعرفون الجفا فممن تُرى قد تعلمتمُ[١]

* * *

{٣٠٦} المستظهر بالله

أمير المؤمنين المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن عبدالله العباسي، كان موصوفاً بالسخاء والجود ومحبَّة العلماء وأهل الدين والتفقد للمساكين، مع الفضل والنبل والبلاغة وعلوّ الهمَّة.

قيل إنه أنشد قبل موته بقليل، وبكى:

يا كوكباً ما كان أقصرَ عمره وكذاك عمرُ كواكب الأسحارِ

وكان قد استخلف عند وفاة أبيه وله (١٦) سنة، وتوفي وله (٤١) سنة، سنة ٥١٢هـ[٢].

* * *

{٣٠٧} الطُّغرائي

هو أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني الطُّغرائي، مؤيد الدين،

(١) البداية والنهاية ١٧٧/١٢، الوافي بالوفيات ١٤٠/٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٩٩/١٩.

شاعر، من الوزراء الكتاب، اتصل بالسلطان مسعود بن محمد السلجوقي (صاحب الموصل) فولاه وزارته، ثم اقتتل السلطان المذكور مع أخ له اسمه محمود، فظفر الأخير وقبض على رجال أخيه، ورأى تأخير الطغرائي لما اشتهر به من العلم والفضل، ثم أوعز إلى من أشاع اتهامه بالإلحاد والزندقة، فتناقل الناس ذلك، فاتخذه السلطان محمود حجة فقتله سنة ٥١٣هـ.

ولما عزم على قتله بإشارة من السلطان، أمر به أن يشد إلى شجرة، وأن يقف تجاهه جماعة ليرموه بالسهام ففعل به ذلك، وأوقف إنساناً خلف الشجرة من غير أن يشعر به الطغرائي وأمره أن يسمع ما يقول، وقال لأرباب السهام، لا ترموه إلا إذا أشرت إليكم. فوقفوا والسهام في أيديهم مفوقة لرميه، فأنشد الطغرائي في تلك الحالة:

ولقد أقولُ لمن يسدِّدُ سهمه ... نحوي وأطرفُ المنيَّةِ شُرَّعُ
والموتُ في لحظاتِ أحورَ طرفُه ... دوني، وقلبي دونه يَتَقَطَّعُ
بالله فَتِّشْ في فؤادي هَلْ ترىٰ ... فيه لغير هَوى الأحبَّةِ مَوْضِعُ
أهْونْ بِهِ لَوْ لم يكُنْ في طَيِّهِ ... عهدُ الحبيبِ وسِرُّه المُسْتَوْدَعُ

فرقَّ له وأمر بإطلاقه في ذلك الوقت، ثم إن الوزير عمل عليه بعد ذلك وقتله، ثم وثب على الوزير عبدٌ من عبيد الطغرائي فقتله بعد سنة![1].

* * *

{٣٠٨} واعظ كذّاب

أبو الفتح محمد بن محمد بن علي الحريمي الواعظ (ت٥١٤هـ) كان مليح الإيراد، ولكنه كان كذاباً، مرض بالري مرضة موته، فاشتدَّ جزعه عند الموت، فقيل له في ذلك فقال: القدوم على الله شديد!.

(١) الوافي بالوفيات ١٢/٤٣٢.

قال الصفدي: لا سيما قادمٌ يكذبُ على الله تعالى وعلى جبريل[1]!.

* * *

{٣٠٩} شيخ شافعي

شاعر محسن دخل دمشق ثم خراسان وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك، اسمه إبراهيم بن عثمان الكلبي الغزي، وقد مات سنة ٥٢٤هـ.

قال ابن السمعاني: بلغني أنه كان يقول: أرجو أن الله تعالى يعفو عني ويرحمني، لأني شيخ سني جاوزت السبعين، ولأني من بلد الإمام المطلبي الشافعي، يعني غزَّة[2].

* * *

{٣١٠} القاضي الحليم

قاضي الجماعة محمد بن أحمد التجيبي، المعروف بابن الحاج، دارت الفتوى في وقته عليه، وتقلَّد القضاء مرتين، وكان من جلَّة الفقهاء وكبار العلماء، معدوداً في المحدِّثين والأدباء، قُتل ظلماً بالمسجد الجامع بقرطبة يوم الجمعة وهو ساجد.

وقد نقل ابن الأبار عن أبي عمر بن عياد في مقتله أن السبب كان من ابن إمام مسجد في بلنسية، حيث توفي والده وهو لم يكن أهلاً للإمامة، فطلب منه هذا القاضي أن ينتقل من البيت المخصص للإمام ليشغله آخر أحقُّ به، فتعرَّض له ذلك الشخص عدة مرات فلم يأبه به، إلى أن قتله في

(١) المصدر السابق ١/١٢٧.

(٢) تاريخ دمشق الكبير ٣٨/٧، شذرات الذهب ٦٧/٤.

المسجد، واحتُمل إلى منزله وبه رمق، فسأل عن ضاربه، وقصده الإبقاء على حياته، فقيل: قُتل، فما زال يستغفر له إلى أن قضى نحبه! رحمه الله[1].

* * *

{٣١١} الفارسي المتعبّد

روى الحافظ أبو طاهر السلفي رحمه الله قال: سمعتُ أبا المعالي رافع بن عثمان بن إبراهيم اللخمي الوكيل بالإسكندرية يقول: سمعتُ حمزة بن عبدالله الفارسي المتعبِّد في جزيرتنا يقول: ما احتلمتُ في عمري قط إلا مرَّةً واحدة.

ولما حضرته الوفاة أرسل إلي، وكنتُ كثيراً ما أزوره، وتمنى العنب، فحملتُ إليه عنقودين في غير أوانه، فلم يتناول سوى حبة واحدة. وقال لي: ادعوا لي فلاناً. فأحضرناه، وأخرج ألف دينار أو دوين ألف، وقال: هذه أودعها عندي فلانٌ لابنه الصغير عند موته، فسلِّمْها إليه بحضور جماعةٍ كثيرة.

وقال: إذا كان غداً افتقدوني، وأنا خصمكم في القيامة إن كفنتموني في غير ثيابي التي علي. وكانت عليه ثياب صوف. فبكيت، فضحك وقال: أينفعني بكاؤكم؟ سلوا الله تعالى لي المغفرة.

فافتقدناه في اليوم الثاني، فإذا هو قد مات، فغسلناه وكفناه في ثيابه ودفناه كما وصى رحمه الله[2].

* * *

(١) المعجم في أصحاب القاضي الصدفي ص١٢٣. وكانت وفاته سنة ٥٢٩هـ.
(٢) معجم السفر رقم ٢٥٩.

{٣١٢} أسلمت في آخر لحظة!

روى أبو طاهر السلفي في معجمه أنه كانت في دار بني الأبرقي عجوزٌ رومية نصرانية تذهب كل أحد إلى البيعة، وأبغضُ مَنْ إليها الذي يعرِّضُ لها بالدخولِ في الإسلام! وكانت مجتهدة في النصرانية عدة سنين. فلما حضرتها الوفاة قالت لمواليها: أحضروا لي الجيران. فأحضروا نفراً منهم، فأشهدتهم على إسلامها، وتشهَّدت وماتت عقيب ذلك!.

فجاء النصارى ليدفنوها في مقابرهم، فشهد المسلمون بإسلامها، فغسلت وكفنت وصلي عليها ودُفنت في مقابر المسلمين، ولم تركع لله قط ركعة واحدة[(١)]!.

* * *

{٣١٣} ابن حمُّوَيه

وكان محمد بن حمُّوَيه شيخاً صدوقاً مشهوراً بالعلم والزهد، شيخ الصوفية بخراسان، وكان الملوك يزورونه، ولا يغشى أبوابهم ولا يقبل صِلاتهم... مات سنة ٥٣٠هـ.

ابتنى رباطاً، وكان عنده فيه جماعة من المتعبِّدين والزهاد، ولما احتُضر أوصاهم بتقوى الله عزَّ وجل، والإخلاص لله والدين. فلما فرغ شرع في النزع، وعرق جبينه، فمدَّ يده وقال بيتاً لغيره:

ها قد بسطتُ يدي إليك فردَّها ... بالفضل لا بشماتة الأعداءِ

ثم قال: أرى المشايخ بين أيديهم الأطباق وهم ينتظرونني. ثم مات[(٢)].

---

(١) المصدر السابق ٢٩١/١.

(٢) البداية والنهاية ٢١١/١٢، الكامل في التاريخ ٢٩٥/٩، الوافي بالوفيات ٢٧٩/٣.

{٣١٤} شاعر وقصيدة للقبر

من شعراء الأندلس إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الهواري، من جزيرة شَقْر من عمل بلنسية، من الكتّاب البلغاء، غلب على شعره الغزل ووصف الطبيعة، وفاته سنة ٥٣٣هـ.

روى ابن الأبّار أنه أعدَّ قصيدة لتُكتب على قبره، وهي:

خليليَّ هل من وقفةٍ بتألُّمِ ... على جدثي أو نظرةٍ بترحُّمِ
خليليَّ هل من بعد الردى من بقيةٍ ... وهل بعد بطن الأرضِ دارُ هَمِ
وإنّا حَيِينا أو رَدِينا لإخوةٌ ... فمن مرَّ بي من مسلم فليسلِّمِ
وماذا عليه أن يقول محيِّياً ... ألا عِمْ صباحاً أو يقولَ ألا اسْلَمِ
وفاءٌ لأشلاءٍ كَرُمْنَ على البِلَى ... فعاج عليها من رُفاتٍ وأعظم
يردِّدُ طوراً آهةَ الحزن عندها ... ويذرفُ طوراً عبرة المترحِّمِ(١)

* * *

{٣١٥} إفريقي صالح

أبو محمد عبدالله بن أبي الطيب الينونشي المعروف بالسائح (ت٥٣٣هـ) إفريقي من الصالحين، له آثار حسنة، قال خادمه: قلتُ له وهو في السياق: أما تذكر الله؟.

فقال: وهل في قلبي سواه(٢)؟!.

* * *

{٣١٦} مسند الدنيا

هو محمد بن عبدالباقي الأنصاري المعروف بابن قاضي مارستان،

---

(١) المعجم في أصحاب القاضي الصدفي لابن الأبار بتحقيق الأبياري ص٦٨.
(٢) معجم السفر لأبي طاهر السلفي رقم (٤٤٨ ـ ٤٤٩).

مشهور معمَّر عالي الإسناد، هو آخر من كان بينه وبين النبي ﷺ ستة رجال ثقات مع اتصال السماع على شرط الصحيح. سمعه أبو الفضل بن سافع يقول: نظرت في كل علم وحصلته كله أو بعضه إلا هذا النحو فإني قليل البضاعة فيه!.

وسُمع غير مرّة يقول: تبتُ من كل علم تعلمته إلا الحديث وعلمه.

مات ـ رحمه الله ـ سنة ٥٣٥هـ.

قال ابن السمعاني: حصلت له خاتمة حسنة، بقي ثلاثة أيام لا يفتر عن قراءة القرآن من حفظه إلى أن مات، وأوصى أن يُكتب على لوح قبره: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾[(١)].

* * *

{٣١٧} رَوْح وريحان

شيخ الشيوخ أبو البركات إسماعيل بن أحمد بن دوست النيسابوري، كان وقوراً مهيباً، من بغداد. مات سنة ٥٤١هـ.

قال ابن سُكينة: كنت حاضراً لما احتضر، فقالت له أمي: يا سيدي ما تجد؟ فما قدر على النطق، فكتب على يدها: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ ومات[(٢)].

* * *

{٣١٨} مسند الدنيا أبو الوقت

مسند الدنيا، الشيخ الإمام الزاهد الصوفي أبو الوقت عبدالأول بن

(١) لسان الميزان ٥/٢٤١ ـ ٢٤٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/١٦١.

عيسى الهروي، قدم بغداد فازدحم الخلق عليه، وكان خيِّراً متواضعاً متودِّداً، حسن السمت، متين الديانة، محبًّا للرواية، مات سنة ٥٥٣هـ.

قال يوسف بن أحمد الشيرازي في «أربعين البلدان»: لما احتضر سندته إلى صدري، وكان مستهتراً بالذكر (أي كثيره)، فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي، وأكبَّ عليه وقال: يا سيدي، قال النبي ﷺ: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**، فرفع طرفه إليه وتلا: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب، ولم يزل يقرأ حتى ختم السورة وقال: الله الله الله، وتوفي وهو جالس على السجادة[1].

* * *

{٣١٩} السلطان السلجوقي

توفي السلطان السلجوقي محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٥٥هـ وقد حاصر بغداد فامتنعت عليه، فرحل عنها ومرض بالسل إلى أن توفي بباب همذان.

ولما حضره الموت أمر العساكر فرُكبت، وأحضر أمواله وجواهره وحظاياه، فنظر إلى الجميع من طيارة تشرف على ما تحتها، فلما رآه بكى وقال: هذه العساكرُ والأموال والمماليك والسراري ما أرى يدفعون عني مقدار ذرَّةٍ ولا يزيدون في أجلي لحظة.

وأمر بالجميع فرُفع، بعد أن فرَّق منه شيئاً كثيراً. وكان عظيماً كريماً عاقلاً كثير التأني في أموره[2].

* * *

(١) المصدر السابق ٢٠/٣٠٩.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/٤٣٤.

{٣٢٠} عبدالقادر الجيلاني

استوصى عبدالوهاب والدَهُ الشيخَ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله في مرض موته (ت٥٦١هـ)، فقال:

عليك بتقوى الله وطاعته، ولا تخف أحداً ولا ترجه، وكِلِ الحوائج كلها إلى الله عزَّ وجلَّ واطلبها منه. ولا تثق بأحد سوى الله عزَّ وجلَّ، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه. التوحيد، التوحيد، التوحيد، وجماعُ الكلِّ التوحيد(١).

* * *

{٣٢١} ابن قرقول الأندلسي

محدِّث وأديب أندلسي يُعرف بابن قرقول، اسمه إبراهيم بن يوسف الحمزي، صاحب كتاب «مطالع الأنوار على صحاح الآثار» ضاهى به «مشارق الأنوار» للقاضي عياض.

صلى الجمعة في الجامع، ثم حضرته الوفاة، فتلا سورة الإخلاص وكررها بسرعة، ثم تشهَّد ثلاث مرات، وسقط على وجهه ميتاً ساجداً، رحمه الله تعالى(٢).

* * *

{٣٢٢} شاعر يرثي نفسه

شاعر سكن مالقة وتوفي بمراكش في الطاعون الواقع بها سنة **٥٧٢هـ**، هو أبو الحكم إبراهيم بن علي بن هردوس الأنصاري الكاتب، وأنشد لنفسه:

---

(١) مواعظ الشيخ عبدالقادر الجيلاني/ جمعها صالح أحمد الشامي، ص١٣٩.

(٢) مرآة الجنان ١٧١/٤، شذرات الذهب ٣٢٩/٥. ووفاته سنة ٥٦٩هـ.

أإبـــراهـــيـــم إنَّ الـــمـــوتَ آتِ وأنــت مــن الـغــوايــة فــي سُـبـاتِ
رجـاؤكَ مـثـلُ ظـلِّ الـرمـح طـولاً وعُـمـركَ مـثـلُ إبـهـام الـقـطـاةِ[1]

* * *

{٣٢٣} زاهدة وولدها

كانت الزاهدة العابدة علم بنت عبدالله بن المبارك تضاهي رابعة العدوية في زمانها، مرض ولدها أحمد بن الزبيدي، فاحتضر، وجاء وقت الصلاة، فقالت: يا بني، ادخل في الصلاة. فدخل وكبَّر، ومات، فخرجت إلى النساء وقالت: هنينني. قلن: ماذا؟ قالت: ولدي مات في الصلاة.

فتعجب الناس من ذلك.

وكانت وفاتها ببغداد سنة ٥٧٥هـ وعمرها (١٠٦) سنوات[2].

* * *

{٣٢٤} الأمير الشجاع يبكي

أمير شجاع جواد محبٌّ للخير، كثير الصدقات، كان يميل إلى العلماء والفقهاء، وبنى مدرسة بحلب لأصحاب أبي حنيفة، هو صاحبُ الرقَّة طمان بن عبدالله النوري، الذي كان السلطان يحبه ويعتمد عليه.

ولما احتُضر والسلطانُ في مقاتلة الفرنج، طلب حصانه وزرديته ليركب، من حرصه على الغزاة، فلم يقدر لضعفه، فجعل يبكي ويتأسف على موته على فراشه!.

توفي سنة ٥٨٥هـ، وحزن السلطان والمسلمون عليه. رحمه الله[3].

---

(١) المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار بتحقيق إبراهيم الأبياري (ط٢) ص١٠٧.

(٢) النجوم الزاهرة ٨٥/٦.

(٣) الوافي بالوفيات ٤٩٧/١٦.

{٣٢٥} صاحب «بدائع الصنائع»

أبو بكر بن مسعود الكاساني فقيه حنفي مشهور، صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»، وهو صهر علاء الدين السمرقندي صاحب كتاب «التحفة»، والأول شرح للثاني، وقَبِلَ شرحه هذا مهراً لابنته، فقال فقهاء العصر: شرح تحفته وتزوَّجَ ابنته!.

قال ابن العديم: سمعت ضياء الدين محمد بن خميس الحنفي يقول: حضرتُ الشيخ الكاساني عند موته، فشرع في قراءة سورة إبراهيم، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾[1]، فخرجت روحه عند فراغه من قوله: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

وكانت وفاته رحمه الله سنة ٥٨٧هـ[2].

* * *

{٣٢٦} عالم وأديب متفنن

أديب وعالم متفنن عُرف بابن مغاور، اسمه عبدالرحمن بن محمد السلمي، له شعر وفنون أدبية مع مشاركة في الفقه والحديث، من شاطبة بالأندلس، صاحب «نور الكمائم وسجع الحمائم» ديوان نظمه ونثره. مات سنة ٥٨٧هـ.

ذكر ابن دحية أنه دخل عليه منزله بمدينة شاطبة في اليوم الذي توفي فيه وهو يجود بنفسه، فأنشد بديهاً:

أيها الواقف اعتباراً بقبري ... استمع فيه قول عظمي الرميمِ
أودعوني بطنَ الضريح وخافوا ... من ذنوب كلومُها بأديمي

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٢) تاج التراجم لابن قطلوبغا ص٣٢٩ (بتحقيق محمد خير يوسف).

تركوني بما اكتسبتُ رهيناً غلِق الرهنُ عند مولًى كريمِ[1]

* * *

{٣٢٧} صلاح الدين الأيوبي

بطل الإسلام وقاهر الصليبيين صلاح الدين الأيوبي، أصابته الحمّى ولم يظهر ذلك للناس. وحين عرفوا بمرضه غشيَهم ومسَّهم الجزع. وفي ليلة السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٩هـ اشتدَّ مرضه، وكان حوله القاضي الفاضل، وابن شداد، وابن الزكي، والشيخ أبو جعفر، وهو شيخٌ صالح كان يبيت في القلعة.

روي أنه لما بلغ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ تبسَّم صلاح الدين وتهلل وجهه، وصعدت روحه إلى بارئها. وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله.

وفي مصدر أن أبا جعفر حضر بالليل وحال بينه وبين النساء، وذكَّره بالشهادة وذكرِ الله تعالى، ففعل ذلك... وبات تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ يقرأ عنده القرآن ويذكِّره بالله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع، لا يكاد يفيق إلا في الأحيان.

وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ سمعه وهو يقول: صحيح.

وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعنايةٌ من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك[2].

* * *

(١) بدائع البدائع لابن ظافر الأزدي بتحقيق أبي الفضل، ص٣٩١ ـ ٣٩٢، الأعلام ٣٢٨/٣.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٣٦٣/٤ وغيره.

{٣٢٨} الطبيب الحفيد

كان الحفيد ابن زُهر، واسمه محمد بن عبدالملك الإيادي، أعلم أهل زمانه بالطب، وكان نابغة في ذلك، وله شعر رقيق وموشحات انفرد في عصره بإجادتها، مات سنة ٥٩٥هـ، وأوصى إذا مات أن يُكتب على قبره هذه الأبيات، وفيها إشارة إلى طبه ومعالجته للناس، وهي:

تأمَّل بحقِّك يا واقفاً ... ولاحظْ مكاناً دُفعنا إليه
ترابُ الضريح على وجنتيَّ ... كأني لم أمشِ يوماً عليه
أداوي الأنامَ حذار المنون ... وها أنا قد صرتُ رهناً لديه[(١)]

* * *

{٣٢٩} ابن الجوزي

ذكر سبط ابن الجوزي أن جده العالم الموسوعي عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ) توفي بداره، قال: وحكت لي أمِّي أنها سمعته يقولُ قبل موته: أيش أعمل بطواويس؟ يردِّدها، قد جبتُم لي هذه الطواويس[(٢)]!.

قلت: لعله رئي طيور الجنة؟

وذكر ابن كثير رحمه الله أنه أوصى أن تكتب على قبره هذه الأبيات:

يا كثيرَ العفو عمَّن ... كثُرَ الذنبُ لديهِ
جاءك المذنبُ يرجو الصفـ ... ـحَ عن جرمٍ يديهِ
أنا ضيفٌ وجزاءُ الضيـ ... ـفِ إحسانٌ إليهِ[(٣)]

* * *

(١) وفيات الأعيان ٤/٤٣٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/٣٨٠، تاريخ الإسلام: حوادث ووفيات ٥٩١ ـ ٦٠٠ ص٢٩٧.

(٣) البداية والنهاية ٦/٧١٠.

{٣٣٠} مصيبتان

قيل لرجلٍ حين حضره الموت: لا تذهبْ بشرٍّ وتتركْ عقبكَ بخير. وكان قد بقي عنده مائة ألف درهم.

فقال عالم: مصيبتان عظيمتان عند موته: يؤخذُ منه، ويُسألُ عنه![1].

* * *

{٣٣١} وصية الحكيم

ومما قاله البوصيري في رائيته:

وكنتُ وصيتهمْ أن يحذروك كما ... وصّى الحكيمُ بنيهِ وهو محتضرُ
وقلت لا تقربوا مالاً حوت يدهُ ... فالفخُّ يهربُ منه الطائر الحذرُ
وحاذروا معه أن تركبوا غَرَراً ... فليس يحمدُ من مركوبهِ الغررُ
ولا تصدوا لما لم يرضَ خاطرهُ ... إن التصدّي لما لم يرضَهُ خَطَرُ
فبان نُصحي لهم إذ مات ناظرهم ... وقد بدتْ للورى في موتهِ عِبَرُ

* * *

{٣٣٢} إخلاص.. في الندم

ذُكر أن رجلاً ناجىٰ ربَّه عند الموت بهذين البيتين:

إلهي قد ندمتُ من المعاصي ... أجرني يوم يؤخذُ بالنواصي
عصيتُكَ غيرَ أنْ أخلصتُ ... فهبْ جميل إخلاصي خلاصي[2]

---

(١) تهذيب خالصة الحقائق ٢/٥٦٨.

(٢) تهذيب خالصة الحقائق للفارابي/ محمد خير يوسف ٢/٥٨٦.

القرن السابع

{٣٣٣} العالم الورع

زاهد من أهل مرتلة ثم سكن إشبيلية، هو أبو عمران موسى بن حسين القيسي، كان منقطع القرين في الورع والزهادة والعبادة والانقباض والعزلة، مشاراً إليه بإجابة الدعوة، له وصايا وحكم توقظ الغافل وتعظ العاقل، لم يتزوَّج ولم يتسرَّ، وإنما كانت همَّته ورغبته في العلم والعبادة، حتى توفي سنة ٦٠٤هـ رحمه الله.

روى أصحاب له أنه لما حضرته الوفاة توضأ قبل ذلك، وصلى ركعتين، ثم قال: سلموا عني على من عرفني وعلى من لم يعرفني. ثم جعل يتلو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ ويرددها حتى ضعف، قالوا: فكنا لا نفهمه لضعفه، وكنا نرى لشفتيه حركة بهما حتى قضى نحبه[١].

* * *

{٣٣٤} الفخر الرازي

وللإمام الأصولي والمفسِّر الكبير فخر الدين محمد بن عمر الرازي،

(١) التكملة لكتاب الصلة ١٨١/٢.

المتوفى سنة ٦٠٦هـ وصية جليلة، ذكرها ابن أبي أصيبعة، وقد أملاها عندما أحسَّ بدنوِّ الأجل وهو في شدَّة المرض، وامتدَّ مرضه بعدها.

وممّا جاء فيها:

يقول العبد الراجي رحمةَ ربِّه، الواثقُ بكرمِ مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازيُّ، وهو في آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس، ويتوجَّه إلى مولاه كل آبق:

إنِّي أحمد الله ـ تعالى ـ بالمحامد الَّتي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات مشاهداتهم، بل أقول كل ذلك من نتائج الحدوث والإمكان، فأحمده بالمحامد التي تستحقُّها ألوهيَّتُهُ. ويستوجبُها كمال ربوبيّته، عرفتها أو لم أعرفها، لأنَّه لا مناسبة للتراب، مع جلال ربِّ الأرباب.

وأصلِّي على الملائكة المقرَّبين، والأنبياء المرسلين، وجميع عباد الله الصالحين.

ثم أقول ـ بعد ذلك ـ: اعلموا إخواني في الدين، وإخواني في طلب اليقين أنَّ الناس يقولون: الإنسان إذا مات انقطع تعلُّقه عن الخلق، وهذا العامُّ مخصوص من وجهين:

الأول: أنَّه إن بقي منه عمل صالح صار ذلك سبباً للدعاء، والدعاء له أثر عند الله.

والثاني: ما يتعلَّق بمصالح الأطفال، والأولاد، والعورات، وأداء المظالم والجنايات.

أما الأول: فاعلموا أنّي كنت رجلاً محبّاً للعلم، فكنتُ أكتب في كل شيء شيئاً لا أقف على كمّيّة وكيفيّة، سواء كان حقّاً أو باطلاً أو غثّا أو سميناً، إلا أنَّ الذي نظرته في الكتب المعتبرة لي: أنَّ هذا العالم المحسوس

تحت تدبير مدبِّر منزَّه عن مماثلة المتحيِّزات والأعراض، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة.

ولقد اختبرتُ الطرق الكلاميّة، والمناهج الفلسفيّة، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم؛ لأنَّه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكليّة لله تعالى ويمنع عن التعمُّق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا العلم بأنَّ العقول البشريَّة تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفيَّة.

فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزليّة، والتدبير والفعّاليّة، فذاك هو الَّذي أقول به، وألقى الله تعالى به.

وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقَّة والغموض، فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتَّفق عليها بين الأئمَّة المتَّبعين للمعنى الواحد فهو كما هو، والَّذي لم يكن كذلك، أقول:

يا إلهَ العالمين إنِّي أرى الخلق مطبقين على أنَّك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فكل ما مرَّ به قلمي، أو خطر ببالي، فأستشهد علمك وأقول: إنْ علمتَ منِّي أنِّي أردت به تحقيق باطل، أو إبطالَ حق فافعل بي ما أنا أهله، وإن علمتَ منِّي أنِّي ما سعيتُ إلا في تقرير ما اعتقدت أنَّه هو الحق، وتصوَّرتُ أنَّه الصدقُ، فلتكن رحمتُك مع قصدي لا مع حاصلي، فذاك جهد المقلّ، وأنتُ أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلَّة، فأغثني، وارحمني، واسترْ زلَّتي، وامحُ حوبتي، يا من لا يزيدُ ملكهُ عرفانُ العارفين ولا ينتقص بخطأ المجرمين.

وأقول: ديني متابعة محمَّد سيِّد المرسلين، وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما.

اللَّهمَّ يا سامعَ الأصوات، ويا مجيبَ الدعوات، ويا مقيلَ العثرات، ويا راحم العبراتِ، ويا قيام المُحدَثاتِ والممكِنَاتِ، أنا كنتُ حسنَ الظن

بك، عظيمَ الرجاء في رحمتك، وأنت قلتَ: «أنا عند ظن عبدي بي»[1] وأنت قلت: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[2] وأنت قلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[3]، فهب أنّي ما جئتُ بشيء فأنتَ الغنيُّ الكريم، وأنا المحتاجُ اللّئيم.

وأعلَمُ: أنّه ليسَ لي أحد سواك، ولا أجد مُحسناً سواك، وأنا معترف بالزلّةِ والقصور، والعيب والفتور فلا تُخَيِّب رجائي، ولا تردَّ دعائي واجعلني آمناً من عذابِك قبلَ الموت، وعند الموتِ، وبعد الموتِ. وسهِّل عليَّ سكراتِ الموتِ وخفِّف عنّي نزولَ الموتِ، ولا تُضيِّق عليَّ بسببِ الآلامِ والأسقامِ فأنت أرحم الراحمين.

وأمّا الكتبُ العلميّة الّتي صَنّفتُها، أو استكثرتُ في إيراد السؤالات على المتقدِّمينَ فيها، فمن نظر في شيء منها، فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه على سبيل التفضُّل والإنعام، وإلا فليحذِف القول السيِّءَ فإنّي ما أردتُ إلاّ تكثير البحث، وتشحيذَ الخاطر، والاعتماد في الكلِّ على الله تعالى[4].

* * *

{ ٣٣٥ } الملك الظاهر

الملك غازي بن صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الظاهر، كان ذا غور ودهاء ومكر، كان حازماً مهيباً، عمِّرت دولته بالعلماء والعظماء، صاحب حلب، مات سنة ٦١٣هـ.

---

(١) حديث قدسيٌّ، وهو متفق عليه من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة به مرفوعاً عن الله عز وجل.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٦.

(٤) نقلته من مقدمة تحقيق كتاب «المحصول في علم الأصول» للفخر الرازي، بتحقيق طه جابر العلواني، ص٧٩ ـ ٨٢.

لما اشتدَّ به المرض، قيل إنه كان يُفيق ويتشهَّد ويقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩)﴾[١]. اللّهم بك أستجير، وبرحمتك أثق[٢].

* * *

{٣٣٦} العماد المقدسي

الشيخ الإمام العالم الفقيه عماد الدين إبراهيم بن عبدالواحد المقدسي الجماعيلي، نزيل سفح قاسيون، أخو الحافظ عبدالغني. كان يُقرىء القرآن والعلم، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة. وكان ورعاً داعية للسنة، من أكثر الناس تواضعاً واحتقاراً لنفسه. توفي سنة ٦١٤هـ.

حُكي عنه أنه لما جاءه الموت جعل يقول: يا حيُّ يا قيُّوم لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث. واستقبلَ القبلة وتشهَّد[٣].

* * *

{٣٣٧} شيخ للشافعية

شيخ الشافعية بالشام الإمام فخر الدين عبدالرحمن بن محمد بن عساكر[٤]. كان لا يملُّ الشخصُ من النظر إليه، لحُسْنِ سَمْتَه، واقتصاده في لباسه، ولُطفه، ونور وجهه، وكان لا يخلو لسانه من ذكر الله في قيامه وقعوده. وكان الملك المعظَّم قد أرسل إليه ليولِّيه القضاء فأبىٰ.

---

(١) سورة الحاقة، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) تاريخ الإسلام: حوادث ووفيات ٦١١ ـ ٦٢٠هـ/ للذهبي، ص١٦١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥١/٢٢، تاريخ الإسلام: حوادث ووفيات ٦١١ ـ ٦٢٠ ص١٨٩.

(٤) وهو ابن أخي الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق.

قال الإمام الذهبي: وكان يتورَّع من المرور في رواق الحنابلة (بالجامع الأموي) لئلا يأثموا بالوقيعة فيه، وذلك أن عوامَّهم يبغضون بني عساكر، لأنهم أعيان الشافعية الأشعرية.

قال أبو شامة: أخبرني من حضرَ وفاته قال: صلَّى الظهر، ثم جعل يسأل عن العصر، فقيل له: لم يقرب وقتها. فتوضأ، ثم تشهَّد وهو جالس، وقال: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، لقَّنني الله حجَّتي، وأقالني عثرتي، ورحمَ غُربتي، ثم قال: وعليكم السلام. فعلمنا أنه قد حضرت الملائكة. ثم انقلب على قفاه ميتاً[1].

* * *

{٢٣٨} أمير متعسف ظالم

حسن بن قتادة من آل أبي طالب كان صاحب مكة، أميرها، قصته طويلة مع الظلم والإجرام، انتهى إلى أن مات طريداً غريباً، فقد استولى الملك المسعود بن الكامل على مكة وهرب هو إلى بغداد ومرض بها، وكان قد قتل أباه، فكان يراه في النوم، يجيء إليه ويضع يده في خناقه، فينتبه مذعوراً، ويسمعه مَنْ في البيت وهو يقول: «بالله لا تفعل»، وهو كالمتخبِّط، وكان في الزقاق الذي سكن فيه امرأة مشهورة بالصلاح، فسأل أن يُحمل إليها على سرير، فلما حصل بين يديها قال لها: أريد منكِ دعوة وأنا على مفارقة الدنيا. قالت: وما هي؟ قال: أن يغفر الله لي، فقد قتلتُ أبي، وسفكتُ دماء الحُجَّاج في الحرم، وصلبتُ أميرهم في المسعى، وعصيتُ الخليفة، وقطعتُ السُّبل، وظلمتُ الخلق، وما صليتُ للخالق ركعة قط.

---

(١) ذيل الروضتين ص١٣٩، تاريخ الإسلام حوادث ووفيات ٦١١ ـ ٦٢٠، للذهبي، ص٥٠٢. وكانت وفاته رحمه الله سنة ٦٢٠هـ.

قال الريحاني: فضرطت له بملء فيها! فقال: ما هذا، وأين الذي شُهرَ منكِ الصلاح؟

فقالت: كل شيء في مكانه مليح!.

فقال: احملوني، فأنا الجاهل الذي حسبتُ أنه يجيء من نساء بغداد صالحةٌ أبداً!.

ومات سنة ٦٢٣هـ[١].

* * *

{٣٣٩} الملك الأزعر!

أقسيس السلطان الملك المسعود، ابن الكامل الأيوبي، صاحب اليمن ومكة، ملكهما (١٩ سنة). وكان فارساً شجاعاً مهيباً ذا سطوة وزعارة وعسف وظلم، لكنه قمع الخوارج باليمن، وطرد الزيدية عن مكة، وأمَّن الحاج. ونقل عنه أنه كان سيىء السيرة، يرتكب المعاصي ولا يهاب مكة، بل يشرب ويرمي البندق!.

ولمّا بلغه موت عمه المعظّم تجهّز ليأخذ الشام... وسار من اليمن إلى مكة فدخلها وقد أصابه فالج ويبست يداه ورجلاه. ولما احتُضر قال: والله ما أرضى من مالي كفناً[٢]! وبعث إلى فقيرٍ مغربي فقال: تصدّق عليَّ بكفن!.

وتوفي بمكة سنة ٦٢٦هـ، وسُرَّ أبوه بموته![٣].

* * *

(١) الوافي بالوفيات ١٢/٢٠٧.

(٢) يعني: أن ماله كله من حرام.

(٣) الوافي بالوفيات ٩/٣١٦، سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٣١.

{٣٤٠} الشاعر الحاجري

الشاعر عيسى بن سنجر الحاجري (ت٦٣٢هـ) شاعر ذو حاشية رقيقة، حُبس في قلعة إربل لأمر يطول شرحه، ومما قال في ذلك من أبيات:

قيدٌ أكابده وسجنٌ ضيِّقُ ... يا ربَّ شابَ من الهمومِ المفرقُ

ولما خرج أقام مُديدة عند الأمير شمس الدين أبي الفضائل باتكين[1] في إربل، وكان وراءه من يقصده، فاتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهر، فوثب عليه شخص وضربه بسكين فأخرج حشوته، فكتب في تلك الحال إلى باتيكن المذكور وهو يكابد الموت:

أشكوك يا ملك البسيطة حالةً ... لم تبقِ رعباً فيَّ عضواً ساكنا
إن تستبخ إبلي لقيطةُ معشرٍ ... ممن أؤمّلُ غير جاشك مازنا[2]
ومن العجائب كيف يُمسي خائفاً ... مَنْ بات في حرمِ الخلافة آمنا

ثم توفي بعد ذلك من يومه[3].

***

{٣٤١} جزاء تعليم القرآن

كان الشيخ عبدالرحمن بن محمد المقدسي الحنبلي كثير الخير والعبادة، يلقِّن القرآن بالجبل احتساباً لله تعالى نحو ٤٠ سنة، وختم عليه القرآن خلقٌ كثير. توفي سنة ٦٣٥هـ.

قال ولده أبو العباس أحمد: كنا عنده قبل موته، فإذا هو كأنه ينظر

(١) وهو أرمني الجنس، مملوك أم الخليفة الناصر لدين الله.
(٢) يشير إلى قول الحماسي:
لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان
(٣) وفيات الأعيان ٣/٥٠٤.

إلى أحدٍ ويبشُّ إليه كأنه يريدُ القيامَ له، فقلنا له في ذلك فقال: جاءني رجلٌ حسنُ الوجه، ووصفه، فقال: أنا أؤنسك في قبرك.

قال: وكان قبل ذلك قد صار لفمه رائحة، فطابت رائحته، ولما وضعناه في قبره وجدنا له رائحة طيبة[1].

* * *

{٣٤٢} الأشرف الأيوبي

الملك الأشرف مظفر الدين شاه أرمن ابن الملك العادل الأيوبي، صاحب القدس وحرّان والرُّها وخِلاط، كسرَ الخوارزمية والروم.. كان مليح الشكل، حلو الشمائل، وافر الشجاعة، إلا أنه كان منهمكاً في الخمر والملاهي.. ثم تاب في مرضه وأظهر الابتهال والاستغفار والذكر إلى أن توفي تائباً وخُتم له بخير، في سنة ٦٣٥هـ.

ذكر ابن الجوزي أنه مرض مرضين مختلفين، في أعلاه وأسفله، فكان الجرائحي يُخرج العظام من رأسه وهو يسبِّح الله تعالى ويحمده، واشتدَّ به ألمه، فلما يئسَ من نفسه قال لوزيره ابن جرير: في أي شيء تكفِّنوني! فما بقي فيَّ قوّةً تحملني أكثر من غد.

فقال: عندنا في الخزانة نصافي.

فقال: حاشَ لله أن أكفَّنَ من الخزانة.

ثم نظر إلى ابن موسك الأمير فقال: قم وأحضر وديعتي. فقام وعاد وعلى رأسه مئزر صوف، ففتحه، فإذا فيه خِرَقٌ من آثار الفقراء، وطاقياتُ قوم صالحين، مثل الشيخ مسعود الرُّهاوي، والشيخ يونس البيطار، وفي ذلك إزارٌ عتيقٌ يُساوي نصف درهم أو نحوه، فقال: هذا يكون على جسدي أتَّقي به حرَّ جهنم، فإن صاحبه كان من الأبدال، كان حبشياً أقام

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١٧٩/١٤.

بجبل الرُّها مدَّة يزرع قطعة أرض زعفراناً، ويتقوَّت منها، وكنتُ أزوره فأعرض عليه المال فيمتنع، فهو وهبني هذا الإزار وقال لي: أحرمتُ فيه عشرين حجَّة.

قال ابن الجوزي: وكان آخر كلامه: لا إله إلا الله[1].

***

{٣٤٣} علم الدين السخاوي

عالم بالقراءات والأصول والتفسير، هو علم الدين علي بن محمد السخاوي، أصله من مصر لكنه سكن دمشق وبها توفي سنة **٦٤٣هـ**.

لما حضرته الوفاة أنشد لنفسه:

قالوا غداً تأتي ديار الحمى ... وينزلُ الركبُ بمغناهم
فكل من كان مطيعاً لهم ... أصبح مسروراً بلقياهم
قلتُ فلي ذنبٌ فما حيلتي ... بأي وجهٍ أتلقاهم
قالوا وليس العفو من شأنهم ... لا سيما عمَّن ترجّاهم[2]

***

{٣٤٤} القاضي التقي

كان القاضي صدر الدين عبدالرحيم بن نصر الشافعي فقيهاً عالماً وزاهداً جواداً، كثير البرّ، يقوم الليل ويكثر الصوم، وكان قاضي بعلبك. مات سنة **٦٥٥هـ**.

قال خطيب زملكا: توفي صدر الدين وهو في السجدة الثانية من

(١) المصدر السابق ١٤/١٩٩.

(٢) شذرات الذهب ٥/٢٢٣، مرآة الجنان ٤/١١١، الوافي بالوفيات ٢٢/٤٣.

الركعة الثالثة من الظهر، سجدها وكان يصلي بالمدرسة إماماً، فانتظره مَنْ خلفَهُ أن يرفع رأسه، ثم رفعوا رؤوسهم وحرّكوه فوجدوه قد مات[1]!.

***

{٣٤٥} الملك الناصر

الملك الناصر داود هو ابن الملك المعظم عيسى الأيوبي. كان صاحب الكرك، ثم أخذ منه ملكه، وصار مشرداً في البلاد، إلى أن مات بالطاعون قرب دمشق عام ٦٥٦هـ. وكان فقيهاً أديباً، له عناية بتحصيل الكتب النفيسة، وله شعر.

روي أنه كان يقول: أشتهي أن يرزقني الله الشهادة. فطُعن[2] في جنبه الأيسر. فأصبح وهو يشكو ألماً مثل الطعن بالسيف، وداوم على ذلك إلى آخر النهار، فلما أمسى نام، ثم انتبه وقال: إني رأيتُ جنبي الأيسر يقول لجنبي الأيمن: أنا قد جاءت نوبتي فصبرت، والليلة نوبتك فاصبر كما صبرت. فأصبح وقد طُعن في جنبه الأيمن.

فلما كان بين الصلاتين وقد سقطت قواه، نام ثم انتبه وهو يرعد، فقال: إني رأيت النبي ﷺ والخضر عليه الصلاة والسلام قد جاءا إليَّ وجلسا عندي ثم انصرفا.

فلمّا كان آخر النهار قال لولده الأكبر شهاب الدين غازي: يا بني، ما بقي فيَّ رجاء، فتهيأ في تجهيزي. فبكى، وبكى الحاضرون، فقال له: لا تكن إلا رجلاً، ولا تعمل عمل النساء ولا تغيِّر هيأتك. وأوصاه بأهله وأولاده ثم اشتدَّ به الضعف، ثم أفاق فقال: بالله تقدَّموا إلى جانبي، فإني أجد وحشة.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٨٢٤/١٤ (بتحقيق بشار معروف).

(٢) أي أصيب بالطاعون.

ثم قال: أرى صفًا عن يميني فيهم أبو بكر وسعد، وصورهم جميلة، وعليهم ثياب بيض، وصفًا عن شمالي، وصورهم قبيحة، أبدان بلا رؤوس، ورؤوس بلا أبدان، وهؤلاء يطلبونني، وهؤلاء يطلبونني، وأنا أريد أروح إلى أهل اليمين.

ثم أغفىٰ إغفاءة، ثم استيقظ وقال: الحمد لله خلصت، خلصت منهم. ثم مات رحمه الله![1].

* * *

{٣٤٦} الفيلسوف الرافضي

الحسن بن محمد الرافضي الفيلسوف الضرير، المعروف بعز الدين الإربلي (ت٦٦٠هـ) كان مشهوراً بالزندقة، لا يصلي، خبيث الهجو، قذراً، يتردَّدُ عليه أهل الملل كلها فيأخذون منه.

قال عز الدين بن أبي الهيجا: لازمتُ العزَّ الضرير يوم موته فقال: هذه البنية قد تحللت وما بقي يرجى بقاؤها.

واشتهى أرزاً بلبن، فعُمل له وأكل منه، فلما أحسَّ بشروع خروج الروح منه قال: قد خرجت الروح عن رجلي. ثم قال: قد وصلت إلى صدري. فلما أراد المفارقة بالكلية تلا هذه الآية: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. ثم قال: صدق الله العظيم وكذب ابن سينا. ثم مات.

* * *

{٣٤٧} أبو شامة المقدسي

العلاّمة الأخباري عبدالرحمن بن إسماعيل، المعروف بأبي شامة، كان مقرئاً نحوياً وفقيهاً شافعياً، من دمشق، صاحب كتاب الروضتين، المتوفى سنة ٦٦٥هـ.

---

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ٣/٢٢٤، الأعلام ٣/١٠.

جاءه اثنان، سماهما الذهبي «جبليّة»، فدخلا عليه في صورة صاحب فُتيا، فضرباهُ ضرباً مبرحاً كاد أن يتلف منه، وراحا، ولم يدرِ بهما أحد، ولا أغاثه أحد. وطُلب منه أن يشتكي إلى ولاة الأمر فأبى وقال: أنا قد فوّضتُ أمري إلى الله وهو يكفينا، وقال في ذلك:

قلتُ لمن قال أما تشتكي ... ما قد جرى فهو عظيمٌ جليلُ
يقيِّضُ الله تعالى لنا من يأخذ ... الحق ويشفي الغليلُ
إذا توكلنا عليه كفى ... فحسبنا الله ونعم الوكيلُ

أصيب في شهر جمادى الأخرى، ومات في تاسع عشر من شهر رمضان[١].

* * *

{٣٤٨} رؤيا وإشارة

أديب فاضل نحوي بحث في كتاب سيبويه وغيره، هو عبدالله بن أحمد القرموني المعروف بابن الأخرس، وكان له اعتناء بالتفسير. مات بعد ٦٧٠هـ.

ذكر بعضهم أنه رآه في النوم فقال له: أنشدني شيئاً من أبياتك المزدوجة. قال: فأنشدني:

يا دار ميَّة كلّما دَنَتِ انقَضَتْ ... لمحبِّها من وَصْلِها أشياءُ
الله يعلمُ أنني بكِ هائمٌ ... ويصدُّني من أن أزورَ حياءُ!

قال: فتأوّلتُ أنه يشير إلى الدنيا ومفارقتها، فلم يكُ إلا أيام قلائل فنُعي إلينا[٢]!.

* * *

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١١٥/١٥ (تحقيق بشار عواد معروف).
(٢) الوافي بالوفيات للصفدي ٥٩/١٧ ـ ٦٠ (باختصار).

{٣٤٩} جلال الدين الرومي

محمد بن محمد القونوي المعروف بجلال الدين الرومي (ت٦٧٢هـ) فقيه حنفي بارع ومصنف كبير، ثم ترك الدنيا والتصنيف وتصوَّف، نشأ وترعرع في بغداد. وهو صاحب «المثنوي» المشهور بالفارسية، وهو منظومة صوفية فلسفية في (٢٥٧٠٠) بيت!.

قال وهو في سياق الموت: إن كنتُ مؤمناً وحلواً طاب الموت وكان الموت مؤمناً، وإن كنت كافراً ومرّاً كان موتاً كافراً ومرّاً[(١)].

***

{٣٥٠} الإمام النووي

روي أن الإمام النووي رحمه الله أنشد أبياتاً عند الوفاة، منها هذان البيتان، وزيد ما بعدهما:

تباشر قلبي في قدومي عليهمُ　　وبالسير روحي يوم تسري إليهمُ
وفي رحلتي يصفو مقامي وحبَّذا　　مقامٌ به حطُّ الرحالِ لديهمُ
ولا زادَ لي إلا يقيني بأنهم　　لهم كرمٌ يُغني الوفودَ عليهمُ[(٢)]

***

{٣٥١} سلطان تلمسان وما جاورها

كان يَغْمَراسَن بن زيّان العبد الوادي أول من استقلَّ بتلمسان من سلاطين بني عبدالواد، وكان شجاعاً حليماً متواضعاً، يكثر من مجالسة العلماء والصالحين، ومدة إمارته ٤٤ سنة، مات في عام ٦٨١هـ.

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام/ أبو الحسن الندوي، ص٢٦١ (ط٢)، الأعلام ٧/ ٣٠ (ط٨).

(٢) الغرر على الطرر ج٢ رقم ٧٨. ووفاته رحمه الله سنة ٦٧٦هـ.

ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه عثمان وقال: يا بني، إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم، فإياك أن تحاربهم، فإن مددهم موفور ومددك محصور، ولا يغرَّنك أني كنتُ أحاربهم ولا أنكص عن لقائهم، لأني كنت أخشى معرَّة الجبن عنهم بعد التمرُّس بهم، فعليك بالتحصُّن ببلدك متى زحفوا إليك، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين أصحاب تونس يستفحل بها ملكك وتكافىء حشد العدوّ بحشدك.

قال ابن خلدون: فعمل ابنه عثمان على وصيته...[1].

* * *

{٣٥٢} قاضي القضاة

قاضي القضاة عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبدالقادر الأنصاري، المعروف بابن الصائغ، دمشقي شافعي. كان بارعاً في الأصول والمناظرة، عُزل عن القضاء وانقطع بمنزله في بستانه، إلى أن توفي سنة ٦٨٣هـ.

ولمّا حضرته الوفاة جمع أهله وتوضأ وصلّى بهم، ثم قال: هلّلوا معي. وبقي يهلّل بهم إلى أن توفي، مع قول لا إله إلا الله. ذكره البرزالي[2].

* * *

{٣٥٣} الشاب الصالح ودار السعادة

ذكر الإمام الذهبي أن إسماعيل ابن شيخه بهاء الدين محمد بن يوسف البرزالي الشافعي، كان شاباً فاضلاً ديِّناً.

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٥٦/٣.

(٢) شذرات الذهب ٣٨٤/٥.

قال: ومرض بالسل ستة أشهر، وحصل له في المرض إقبال على الطاعة وملازمة للفرائض، حتى كان يصلي إيماء. وقال له والده قبل موته بيوم: أيش تريد؟ قال: أشتهي أن يغفر الله لي، وأن تقرأ وتهدي إليّ. فكان أبوه يقرأ كلّ يوم سُبعاً ويهديه إليه إلى أن مات أبوه.

قال: ولمّا احتُضر كان يقرأ معهم بمشقّة سورة يس، ثم قال لوالده: الساعة أموت فأحضروا المغسّل. فقال له أبوه: إنه لا يحضر معنا إلا بعد الموت، فقال: أنا والله ميّتٌ في هذه الساعة فأسرعوا. ثم أذّنت العصر، فأجابَ المؤذّن، وقال: إني والله أحبُّ لقاء الله، وأنا أروح إلى دار السعادة، وكرّرها. ثم قال: هذه دار الشقاء تُتعب وتقتل. ثم غمّض عينيه ومات، في ذي الحجة [من سنة ٦٩١هـ][١].

* * *

{٣٥٤} وزير.. نائب

الأمير الكبير سنجر المعروف بعلم الدين الشجاعي، كان وزير الديار المصرية ونائب سلطنة دمشق، ذا خبرة بالسياسة والعمارة، وفي أخلاقه شراسة وفي طبيعته جبروت، له ميل إلى أهل الدين وتعظيم الإسلام، ويبدو أنه ظلم فقُتل شرَّ قتلة، فقد طيَّر أحدهم يده وطيَّر آخر رأسه سنة ٦٩٣هـ.

ووُجد بخطه بعد موته:

إن كانت الأعضاءُ خالفتِ الذي ... أُمرتْ به في سالفِ الأزمانِ
فسَلوا الفؤادَ عن الذي أودعتمُ ... فيه من التوحيد والإيمانِ
تجدوهُ قد أدّى الأمانةَ فيهما ... فهَبُوا له ما زلَّ بالأركانِ[٢]

* * *

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ١٥/٧٢٥ (بتحقيق بشار معروف).
(٢) الوافي بالوفيات ١٥/٤٧٧.

{٣٥٥} شيخ المشايخ

شيخ المشايخ أحمد بن إبراهيم بن غنيمة المصطفوي الشافعي، ذكر الإمام الذهبي أنه كان فقيهاً سلفياً مفتياً مدرّساً، عارفاً بالقراءات ووجوهها، وأنه كان خطيباً واعظاً زاهداً صوفياً، له أصحاب ومريدون يقتدون بآدابه، وله محبّة في القلوب ووقعٌ في النفوس، توفي بواسط سنة ٦٩٤هـ.

ولمّا قدم واسط من الحجاز قيل له: كيف تركت الأرض المقدّسة وجئت؟ فقال: رأيت النبيّ ﷺ يقول لي: تحوّلْ إلى واسط لتموت بها وتُدفنَ عند والدك.

قال ابن مؤمن: وآخر درس عمله، عمله بداره، فطلب إليه الفقهاء وأنا حاضر، فبقي يُلقي الكلمات من درسه ثم يغيب من قوّة الضعف، وبقي يطلب إليه الفقهاء ويودّعهم ويقول: قد عرضَ لنا سفرٌ فاجعلونا في حلٍّ. وبقينا نتعجّب من سفره وقد كبر وضعف، فلما كان بعد ثلاثة أيام أو نحوها توفي إلى رحمة الله، وعُدَّ ذلك من كراماته[١]...

* * *

{٣٥٦} شاعر غريب

الأديب العلاّمة مالك بن عبدالرحمن بن المرحّل (ت٦٩٩هـ) شاعر أهل المغرب في زمانه، ولادته بمالقة ووفاته بفاس.

أصرَّ أن تنقش على قبره أبيات، هي:

زُرْ غريباً بمغرب ... نازحاً ما له ولي
تركوهُ مجدلاً ... بين تُربٍ وجندلِ
ولتقلْ عند قبره ... بلسان التذلُّلِ
رحم الله عبده ... مالك بن المرحّلِ

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٧٨٣/١٥ (بتحقيق بشار معروف).

وكان من محسني الشعراء، ولي القضاء بأعمال من الأندلس، تلا على أبي جعفر الفحام بأكثر القراءات، وأجاز له أبو القاسم بن بقي[1].

***

{٣٥٧} أديب فاضل

عبدالله بن محمد بن الفتي، أبو طالب النهرواني، كان فاضلاً أديباً شاعراً، أمر أن يُنقشَ على لوح قبره:

شربنا بكأسٍ سوف تُسْقَوْن مثلها ... قريباً لعمري والكؤوس تدورُ
فقلْ للذي أبدى شماتتَهُ بنا ... إلى مثلِ ما صرنا إليه تَصيرُ
فلو دامت الدنيا على ذي مهابة ... لدمتُ، ولكنَّ الزمانَ مبيرُ[2]

(١) معرفة القرّاء الكبار للذهبي بتحقيق طيار قولاج ١٤١٨/٣ (باختصار).
(٢) الوافي بالوفيات ٥٩٦/١٧.

القرن الثامن

{٣٥٨} شكراً لله

قاضي طرابلس أحمد بن أبي بكر الإسكندري، ويلقب بشمس الدين، كان فاضلاً في أنواع من العلوم، شجاعاً، عنده عُدَدٌ لقتال الفرنج، مع رأي جيد وحزم.

مات بعد مرض طويل في سنة ٧٠٧هـ.

قال شهاب الدين بن مري: لما احتُضر اجتمعنا حوله فأظهر فرحاً واستبشاراً، وكرَّر كلمتي الشهادة، وقال: ساعدوني وآنسوني، فإن للنفس انزعاجاً عند الفراق، وإذا رأيتموني متُّ مسلماً فاشكروا ربكم على الهداية لهذا الدين العظيم.

ثم كرَّر الشهادة نحو ثلاثين مرة، ومات[١].

* * *

{٣٥٩} نائب مصر

الأمير سيف الدين التتري الصالحي المنصوري، المعروف بسلاّر، كان

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/١٣٠.

نائبَ مصر للسلطان حسام الدين لاجين، وجمع من الذهب قناطير مقنطرة حتى اشتهر بغناه وموارده الكثيرة. ثم خُذل واعتقله السلطان ومُنع من الزاد حتى مات جوعاً، قيل إنه أكل كعاب سرموزته، وقيل خُفّه.

وقيل إنهم دخلوا إليه وقالوا له: عفا السلطان عنك، فقام من الفرح ومشى خطوات وسقط ميتاً[1]!.

* * *

{٣٦٠} أبو الفداء

ملك حماة ومؤرخها وعالمها أبو الفداء إسماعيل بن علي، المتوفى سنة ٧٣٢هـ، أعدَّ قبره بنفسه منذ سنة ٧٢٧هـ، فكان ـ فيما يظهر ـ ممن زهد في الدنيا. ودام مرضه اثني عشر يوماً قبل أن يموت، ففرَّق كثيراً من كتبه، ووقف بعضها. وفي ليلة الخميس التي توفي في سحرها، قال لغلامه الملازم خدمته: هلِّل، واذكر الله. فما زال الغلام يذكر الله ويهلِّل، وهو معه يهلِّل ويذكر الله تعالى، حتى فارق. رحمه الله[2].

* * *

{٣٦١} لم ينس التوحيد

عمر بن علي الشهير بتاج الدين الفاكهاني كان على حظ وافر من الدين المتين والصلاح العظيم واتباع السلف الصالح، صحب جماعة من الأولياء وتخلّق بأخلاقهم وتأدب بآدابهم، وله مؤلفات.

---

(١) باختصار من الوافي بالوفيات ٥٦/١٦، الدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٧/٢. وقد قضى عليه سنة ٧١٠هـ، فلعله مات في تلك السنة. وهو في المطبوع من المصدر الأخير: البيري، بدل التري.

(٢) الملك المؤيد أبو الفداء صاحب حماة/ عبدالله بن محمد النايل، ماجستير، ص٩٠ ـ ٩١ (باختصار).

لما حضرته الوفاة جعل بعض أقاربه يتشهد بين يديه ليذكّره، ففتح عينيه وأنشد:

وغدا يذكّرني عهوداً بالحمى ومتى نسيتُ العهدَ حتى أُذْكرا؟

ثم تشهّد وقضى نحبه (٧٣٤هـ)[١].

* * *

{٣٦٢} الجزولي.. العالم الفذّ

كان العالم المالكي عبدالرحمن بن عفان الجُزُولي أعلم الناس في عصره بمذهب مالك، يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه!.

عاش أكثر من ١٢٠ سنة وتوفي سنة ٧٤١هـ.

ذكر أحد تلامذته أنه دخل عليه وهو يجودُ بنفسه، قال: وكنتُ قد رأيته قبل ذلك معافى، فسألته عن السبب، فأخبرني أنه خرج إلى لقاء السلطان فسقط عن دابته فتداعت أركانه، فقلت: ما حملك أن تتكلف مثل هذا في ارتفاع سنّك؟ فقال: حبُّ الرئاسة آخر ما يخرج من قلوب الصّديقين[٢]!.

* * *

{٣٦٣} شمس الدين ابن قدامة

ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله أن الفقيه الحنبلي الجليل شمس الدين محمد بن أحمد بن عبدالهادي بن قدامة المقدسي (ت٧٤٤هـ) مرض قريباً

(١) الديباج المذهب ١٨٧/١.

(٢) نفح الطيب ٢٦٠/٥.

من ثلاثة أشهر بقرحة وحمّى سلّ، ثم تفاقم أمره وأفرط به إسهال، وتزايد ضعفه إلى أن توفي...[1].

قال: فأخبرني والده أن آخر كلامه أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، اللّهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين[2].

* * *

{٣٦٤} ابن الوردي

الشاعر والأديب المعروف عمر بن مظفر الكندي، المعروف بابن الوردي، من معرة النعمان، ولي القضاء بمنبج ومات بحلب سنة ٧٤٩هـ، وكان قد رأى عجائب الطاعون بها، وعمل فيه رسالة، أنشأها وأبدع فيها، وسماها «النبا عن الوبا»، ولكنه خُتم به الوباء، وكان قد قال قُبيل وفاته:

ولستُ أخافُ طاعوناً كغيري ... فما هو غير إحدى الحسنيينِ
فإن متُّ استرحتُ من الأعادي ... وإن عشتُ اشتفَتْ أذني وعيني[3]

* * *

{٣٦٥} شحاذون وتجار

قال ابن القيم رحمه الله:

أخبرني مَنْ حضرَ بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله فُليس، لله فُليس. حتى قُضي.

---

(١) حضر الإمام الذهبي جنازته، وكان يبكي ويقول: ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه، رحمه الله تعالى. ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص٤٩.

(٢) البداية والنهاية ٢٢١/١٤ (طبعة دار الكتب العلمية).

(٣) من مقدمة «ابن الوردي أديب بلاد الشام»/ محمود سالم محمد، ص١٠.

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، فجعلوا يلقنونه (لا إله إلا الله) وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشتر جيد، هذه كذا. حتى قُضي.

قال: وسبحان الله، كم شاهد الناسُ من هذا عبراً، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم[1].

* * *

{٣٦٦} شيخ المالكية

إمام المالكية في عصره الشيخ الجليل محمد بن أحمد العلويني المعروف بالشريف التلمساني، المتوفى سنة ٧٧١هـ. لمّا وصل في تفسيره إلى قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مرض ثمانية عشر يوماً ثم مات. ذكر ولده أبو يحيى أنه في مرضه قبّل المصحف ومسح به وجهه وقال: اللّهم كما عززتني به في الدنيا فاعززني به في الآخرة[2].

* * *

{٣٦٧} بشرى في الاحتضار

ولي الدين محمد بن أحمد الديباجي، المعروف بابن المنفلوطي الشافعي، تفقه وبرع في فنون، نشأ بدمشق ثم طلب إلى الديار المصرية، وكان فصيحاً حلو العبارة حسن الوعظ كثير العبادة والتأله، جمع وألف وأفتى ووعظ وانتفع الناس به.

ذكر أنه لما حضرته الوفاة قال: هؤلاء ملائكة ربي قد حضروا ويبشروني بقصر في الجنة. وشرع يردِّد: السلام عليكم. ثم قال: انزعوا

---

(١) الجواب الكوافي ٦٢/١ (دار الكتب العلمية).

(٢) نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي ص٤٤٠.

ثيابي عني فقد جاؤوا بحُلَل من الجنة، وظهر عليه السرور، ومات في الحال (سنة ٧٧٤هـ)(١).

* * *

{٣٦٨} إلى الجنة إن شاء الله

شهاب الدين أحمد بن محمد بن جمعة، المعروف بابن الحنبلي الشافعي، كان عالماً مع الزهد والورع، ولي خطابة جامع حلب مدة تزيد على عشرين سنة. مات سنة ٧٧٤هـ.

ذكر موسى بن مملوك، وكان من الصالحين، أنه حضره حين احتُضر، فبدأ بقراءة سورة الرعد، فلما انتهى إلى قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ خرجت روحه(٢).

* * *

{٣٦٩} كتاب مدفون مع صاحبه!

أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بابن أبي حجلة أديب موهوب، كثير الحطِّ على الاتحادية، صنَّف كتاباً عارض قصائد ابن الفارض بقصائد كلها نبوية، وكان يحطُّ عليه لكونه لم يمدح النبيَّ ﷺ، ويحطُّ على نحلته، ويرميه ومن يقول بمقالته بالعظائم.

ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني أنه قرأ بخط ابن القطان، وأجازه به: كان ابن أبي حجلة يبالغ في الحط على ابن الفارض، حتى إنه أمر عند موته - فيما أخبرني به صاحبه أبو زيد المغربي - أن يوضع الكتابُ الذي عارض

(١) شذرات الذهب ٦/٢٣٣.

(٢) الدرر الكامنة ١/٣١٠.

به ابن الفارض وحطَّ عليه فيه في نعشه، ويُدفنَ معه في قبره؛ ففُعل به ذلك.

وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة ٧٧٦هـ[١].

* * *

{٣٧٠} أبو عبدالله بن عباد

كان الشيخ محمد بن إبراهيم النفزي، المعروف بابن عباد، متصوفاً من أهل «رندة» بالأندلس، وقد استقرَّ خطيباً للقرويين بفاس، وله مؤلفات عديدة، مات سنة **٧٩٢هـ**.

حُكي أنه لما احتضر جعل رأسه في حجر أبي القاسم الصدفي، وأخذ في قراءة آية الكرسي، إلى قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، ثم يقول: يا الله، يا حي يا قيوم. فيلقِّنه مَن حضر: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فيمتنع الشيخ من قراءتها ويقول: يا الله، يا حيُّ يا قيوم. فلما قربت وفاته سمع منه هذا البيت، وكان آخرَ ما تكلم به:

ما عوَّدوني أحبابي مقاطعةً   بل عوَّدوني إذا قاطعتهم وصلوا[٢]

* * *

{٣٧١} ابن رجب الحنبلي

ذكر ابن ناصر الدين في كتابه «الرد الوافر»[٣] أن العالم الحنبلي الجليل زين الدين عبدالرحمن بن أحمد الحنبلي، المعروف بابن رجب **(ت٧٩٥هـ)** مضى إلى أحدهم وقال له: احفر لي هنا لحداً، وأشار إلى

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ١٢٥/٢.
(٢) نفح الطيب ٣٤٩/٥.
(٣) في ص١٠٧.

البقعة التي دُفن فيها، قال: فحفرتُ له، فلما فرغ نزلَ في القبر، واضطجعَ فيه، فأعجبه، وقال: هذا جيِّد! ثم خرج، قال: فوالله ما شعرتُ به بعد أيام إلا وقد أُتي به ميتاً محمولاً في نعشه، قال: فوضعته في ذلك اللحد وواريتهُ فيه!.

* * *

{٣٧٢} بشارة قبيل الرحيل

وفي آخر «**الأنوار لعمل الأبرار**» لجمال الدين يوسف بن إبراهيم الأردبيلي الشافعي (ت٧٩٩هـ) نسخة مكتبة المرعشي في قم:

قال شارح «الغاية القصوى في الفتوى»[1] في آخر شرحه: إني سمعت ممن حضر وقت احتضار المولى السعيد ناصر الحق والدين إمام الإسلام والمسلمين قاضي قضاة الإسلام حجة الله تعالى على كافة الأنام أبي الخير عبدالله بن عمر البيضاوي ـ كساه الله حلل رضوانه وأسكنه في أعلى جنانه ـ بتبريز: أنه أصابه غشية حتى ظُنَّ مفارقاً عن الدنيا، فلما أفاق فتح عينيه وقال لابنه من صلبه المولى المرحوم السعيد فخر الدين محمد سقاهما الله شآبيب رضوانه: أبشر يا محمد فإني بُشِّرتُ بأن لي مع الأنبياء عليهم السلام مشاركة. ثم غضَّ بصره ومات رحمه الله رحمة واسعة، ورضي عنه وأرضاه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً. اللّهم أصلح شأننا واغفر لنا ولوالدينا ولكافة المسلمين والمسلمات.

(١) الغاية القصوى في دراية الفتوى هو للقاضي البيضاوي نفسه. وله أكثر من شرح. ووفاته سنة ٦٨٥هـ.

القرن التاسع

{٣٧٣} علاء الدين العطار

عالم عارف نقشبندي، صاحب أحوال وأقوال، هو الشيخ علاء الدين محمد بن محمد البخاري الخوارزمي العطار، توفي سنة ٨٠٢هـ ودفن في جغانيان ببخارى.

كان مدة مرضه يتكلم بالوصايا تارة، والحكمة تارة، والدعاء للخلق آونة، والرضا والمحبة والوجد آونة، وينشد:

ذواتنا القصبُ الزاوي[١] وحبُّكم   نار، فمنُّوا بها تحرق لذا القصبِ

وقال في مرضه الأخير لأصحابه: لا تقلدوني بما يصدر مني من التفرقة الظاهرة، بل عليكم بالجمعية ظاهراً وباطناً، وإلا تحصَّل لكم التفرقة الحقيقية[٢].

* * *

{٣٧٤} أعمال.. بعد الممات

عبدالرحمن بن علي الفارسكوري الشافعي (ت٨٠٢هـ) كان من أهل

(١) هكذا، ولعلها «الذاوي».

(٢) الكواكب الدرية على الحدائق الوردية في أجلاء السادة النقشبندية للخاني/ محمد خالد الخرسة، ص٤٥٣.

العلم والتصنيف، وذا حظٌ من العبادة والمروءة والسعي في حوائج الغرباء، خصوصاً أهل الحجاز، ولي قضاء المدينة المنورة ولم يتهيأ له مباشرته، ثم درَّس في المنصورية ونظر الظاهرية القديمة وعمَّرها أحسن عمارة، وحمدت مباشرته لها، جاور بمكة المكرمة ومات بالقاهرة، وكانت بينه وبين ابن حجر العسقلاني مودَّة.

سئل في مرض موته أن ينزل عن بعض وظائفه لبعض من يحبُّه من رفقته؟ فقال: لا أتقلَّدها حيّاً وميْتاً[1]!.

***

{٣٧٥} عبدالرحيم البرعي

الشيخ عبدالرحيم بن أحمد البُرَعي شاعر يماني متصوف، أفتى ودرَّس، من سكان النيابتين في اليمن. مات سنة ٨٠٣هـ. قال رحمه الله عندما مرض مرض الموت وهو في طريقه إلى الحج:

يا راحلينَ إلىٰ مِنىً بقيادِيْ ... هيَّجتُمُ يومَ الرحيلِ فؤادِيْ
سِرتُمْ وسار دليلكم، يا وَحْشَتي ... الشوقُ أقلقني وصوتُ الحادِيْ
أَحْرمتمُ جفنيْ المنامَ ببُعْدكمْ ... يا ساكنينَ المنحنىٰ والوادِيْ[2]
فإذا وَصَلتُمْ سالمينَ فبلِّغُوا ... منِّيْ السلامَ إلى النبيِّ الهادِيْ
ويلُوْحُ ليْ ما بين زمزمَ والصَّفا ... عند المقام سمعتُ صوت مُنادِيْ
ويقول لي: يا نائماً جِدَّ السُّرىٰ ... عَرفاتُ تَجْلي كلَّ قلبٍ صادِ
من نال من عرفات نظْرة ساعةٍ ... نال السرورَ ونال كلَّ مُرادِ
باللَّهِ، ما أحلى المَبِيْتَ على منىً ... في ليلِ عيْدٍ، أَبْرَكِ الأعيادِ
ضَحَّوا ضحاياهمْ وسال دِماؤها ... وأنا المُتَيَّمُ قد نَحرتُ فؤادِيْ

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي ٩٦/٤ ـ ٩٧ (باختصار).

(٢) المنحنى: موضع، والوادي: لعله وادي الأراك.

لَبِسُوا الثيابَ البِيْضَ شاراتِ الرضا
وأنا مِن أَجْلِهِمُ لبستُ سوادي[1]

يا ربِّ، أنتَ وصَلتَهُمْ وقَطَعْتَني
فبحقِّكمْ[2] يا ربِّ حُلَّ قِيادي

باللَّهِ، يا زوّارَ قبرِ محمَّدٍ
من كانَ منكمْ رائحاً أو غادي

فَلْيُبْلغ المختارَ ألفَ تحيةٍ
من عاشقٍ متفتتِ الأكبادِ

قولوا لهُ: عبدالرحيم متيَّمٌ
ومفارقُ الأحبابِ والأولادِ

صلَّى عليكَ اللَّهُ يا عَلَمَ الهدى
ما سار ركْبٌ أو ترنَّم حادي[3]

***

{٣٧٦} خطيب تونس وإمامها

عالم تونس وخطيبها الشيخ الجليل محمد بن محمد الورغمي : (ت٨٠٣هـ) كان شديد الخوف من أمر الخاتمة، يطلب كثيراً الدعاء له بالموت على الإسلام ممن يعتقد فيه خيراً. وقد تصدَّق قرب موته بمال كثير، وكان قدر تركته ثمانية عشر ألفاً ذهباً دنانير ما بين عين وحلى ودرهم وطعام وكتب، وقال يوماً: لولا خوف الحاجة في الكبر ما بتُّ وعندي عشرة دنانير!.

ومن نظمه قرب وفاته:

بلغت الثمانين بل جُزْتُها
فهان على النفسِ صعبُ الحِمامِ

وآحاد عصري مضوا جملةً
وعادوا خيالاً كطيفِ المنامِ

وأرجو به نيل صدر الحديث
بحبِّ اللقاء وكره المقامِ

وكانت حياتي بلطف جميل
لسبق دعاء أبي في المقامِ[4]

***

(١) الشارات: جمع شارة، وهي العلامة.

(٢) في الأصل: فبحقهم.

(٣) شرح ديوان البرعي في المدائح الربانية والنبوية والصوفية/ عبدالرحيم البرعي، ص٣٢٥ (طبعة مكتبة المعارف بالطائف).

(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص٤٦٣ فما بعد.

{٣٧٧} بركة ذكر الله

عبدالله بن علي بن أبي المعالي البهاء الكازروني، رئيس المؤذنين بمكة المكرمة، وناب بالحسبة فيها. مات سنة ٨٠٨هـ.

صح عمَّن حضره وقت الاحتضار أنه سمعه وهو في النزع يقول أنه ما أعرفك يا شيطان؟ أو أنت شيطان؟ أشهد ألاَّ إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم فاضت روحه.

قال الإمام السخاوي: ولعل ذلك ثمرة ذكره لله في الأسحار(١).

* * *

{٣٧٨} عشق اللغة

علي بن محمد بن هُطيل، ساكن صنعاء، طار صيته في الآفاق، كما يقول الشوكاني، وكان مديماً لمطالعة شرح الرضى على كافية ابن الحاجب، لا يفارقه في غالب أوقاته. توفي سنة ٨١٢هـ.

ويُحكى أنه لما حضرته الوفاة أمر من يدفعُ إليه شرح الرضي، فدفعه إليه، فوضعه على صدره ثم أنشد:

تمتَّعْ من شميم عرار نجد ... فما بعد العشيَّةِ من عرار(٢)

* * *

{٣٧٩} قبرٌ.. على الطريق

خطيب صدّاع بالحق اسمه عبدالرحمن بن محمد بن النقاش (ت٨١٩هـ)، خطب بجامع ابن طولون بمصر، عالي الهمة، شديد السعي

(١) الضوء اللامع ٥/٣٤.

(٢) البدر الطالع ١/٤٩٣.

والقيام مع من يقصده، عارفاً بأمر دنياه، يتكسّب غالباً من الزراعة، ويبرُّ أصحابه. وكان لوعظه تأثير في النفوس، محبباً للأكابر، محظوظاً منهم، وللناس فيه اعتقاد وحسن ظن، مع النزاهة والديانة، ومكتوب على قبره بوصية منه:

بقارعة الطريق جعلتُ قبري لأحظى بالترحُّم من صديقِ
فيا مولى الموالي أنت أولى برحمةِ من يموتُ على الطريقِ(١)

* * *

{٣٨٠} قائد نادم

كان مغامس بن أحمد الحميضي من بني عجلان، قائداً كبيراً متقدّماً بالشجاعة والفصاحة عندهم، وكانوا ولاة مكة، وكان هو ممن ظلم الحاج، ثم تاب وتطلّب براءة الذمة، وساح باكياً على ما فرط منه، وصحب الشيخ عمر العرابي ورافقه إلى اليمن، ثم رجع إلى مكة وخيّر نساءه، وتعلّل، وأصابته جراحة في رجليه، وتوجّه إلى الله أن لا يموت إلا بحضرة شيخه العرابي، فأجيب، فإنه تمادى في الضعف خمسة أشهر، ووصل الشيخ لمكة فمات بحضرته في رابع ذي الحجة(٢).

* * *

{٣٨١} قبيل الوفاة

أحمد بن أبي بكر المعروف بابن الردّاد، مكي، ثم زبيدي، صوفي وقاض شافعي، له شعر جيد، اهتم بكتب الفلاسفة والمتصوفة، ولم يرض عنه، مات سنة ٨٢١هـ. قال قبل وفاته بيوم:

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي ١٤١/٤ (باختصار)، سفينة الفرج للقاسمي رقم ١١٠٧.

(٢) ينظر الضوء اللامع ١٦٤/١٠. وقد مات شيخه المذكور سنة ٨٢٧هـ.

تعبنا من الدنيا ومن طول غمِّها وما بعدها خيرٌ وأبقى وأفضلُ
فعجِّلْ لنا بالخير يا خير مفضل ويا خير مأمولٍ عليه المعوَّلُ[1]

* * *

{٣٨٢} ورقة.. في القبر

كان علي بن محمد بن الشحنة قاضياً في إحدى مناطق حلب، فاضلاً له نظم حسن، ومن العجيب كونه لم يكن يلحن، مع عدم اشتغاله بالعربية، ولكنه كان يحكي أنه رأى النبيَّ ﷺ وسأله في إصلاح لسانه، فأطعمه حلوى عجمية، فكان لا يخطىء العربية!.

وقد مات رحمه الله سنة ٨٣١هـ، وقد أوصى ابن أخيه أن يلقي بهذين البيتين في قبره، فنفذ وصيته، وهما:

إلهي قد نزلتُ بضيقِ لحدٍ بأوزارٍ ثقالٍ مع عيوبِ
وعفوك واسعٌ وحماك حصن وأنت الله غفَّارُ الذنوب[2]

* * *

{٣٨٣} ابن خطيب الدهشة

العالم والقاضي الجليل محمود بن أحمد الشافعي، المعروف بابن خطيب الدهشة، ولي قضاء حماة، وتقدَّم في الفقه وأصوله والعربية واللغة وغيرها، واشتهر ذكره، وصنَّف الكثير، وانفرد بمشيخة حماة، وكان صالحاً عالماً معروفاً بالديانة والتواضع ملازماً للخير، ومات سنة ٨٣٤هـ.

قيل: إنه لما احتُضر تبسَّم ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾[3].

---

(١) المصدر السابق ٢٦٢/١.
(٢) المصدر السابق ٢٠/٦.
(٣) المصدر السابق ١٣٠/١٠، شذرات الذهب ٢١١/٧.

{٣٨٤} ابن حجة الحموي

إمام أهل الأدب في عصره أبو بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ)، من أهل حماة، كان حسن الأخلاق والمروءة، فيه شيء من الزهو والإعجاب، زار القاهرة والتقى بعلمائها واتصل بملوكها، صاحب مصنفات شهيرة، منها «خزانة الأدب وغاية الأرب».

أوصى أن يكتب على قبره بجانب المسجد:

يا غافر الزلّات يا من عفوهُ ينهلُّ بالرحمةِ من فوق السُّحبْ
بيتك قد جاورته بحفرةٍ وأنت قد أوصيتَ بالجار الجنبْ

وكان قد قال وقد اجتمعت الباردة والحمى في مرضه:

بردية برَّدتْ عظمي وطابقها سخونةٌ ألَّفتها قدرة الباري
فامننْ بتفرقةِ الضدين من جسدي يا ذا المؤلِّفُ بين الثلج والنارِ[(١)]

* * *

{٣٨٥} عابد مقدسي

أبو بكر بن محمد المقدسي الشافعي الصوفي الطولوني كان خيِّراً كثير العبادة والورع، معروفاً بذلك، سمع من ابن كثير وغيره، وكان له اشتغال بالفقه والحديث، ثم أقبل على العبادة وجاور بيت المقدس حتى مات سنة ٨٤٣هـ.

قال السخاوي رحمه الله: وعند رأسه نُصبية مكتوب بخارجها من نظمه ما كان له مدة في حياته عند رأسه بالطيلونية ينظرها:

رحم الله فقيراً زار قبري وقرا لي
سورة السبع المثاني بخشوع ودعا لي

(١) الأعلام ٦٧/٢، ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً/ محمود الربداوي، ص٥١، الضوء اللامع ٥٥/١١.

وبداخلها من نظمه أيضاً:

مـن زار قـبـري فـلـيـكـن عـالـمـاً أن الـــذي لاقـيـــتُ يـــلـــقـــاهُ
ويـــرحـــم الله فـــتـــى زارنـــي وقـــال لـــي يـــرحـــمـــك الله[1]

* * *

{٣٨٦} أجل الله لا يؤخر

كان الشيخ محمد بن عمر الدنجاوي قد جاور بالجامع الأزهر، وكان كثير التلاوة، ذا تهجد تام لا يقطعه. مات سنة ٨٤٥هـ بعد توعُّك يسير بمرض صعب، وكان ذكر لأصحابه أنه رأى في المنام أنه يؤم بناس كثيرين، وأنه قرأ بسورة نوح ووصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾. فاستيقظ وهو وَجِل، فقصَّهُ على بعض أصحابه وقال: هذا دليلٌ على أني أموتُ في هذا المرض؛ فكان كذلك[2]!.

* * *

{٣٨٧} الطاعون.. والموت

محمد البدر أبو الإخلاص عالم من الإسكندرية وانتقل مع أبيه إلى القاهرة، تصدَّى للإفتاء والقضاء والتدريس، وكان إماماً رئيساً عالماً فصيحاً طلقاً مفرط الذكاء، شهماً محباً في إسداء المعروف للطلبة... مات سنة ٨٥٣هـ.

قال الحافظ السخاوي: ومما كتبته عنه ما ذكر أنه نظمه في منامه أيام الطاعون سنة (٨٤٧هـ) وأوصى بدفنه معه فقال:

---

(١) الضوء اللامع ٨٠/١١.

(٢) المصدر السابق ٢٤٨/٨ باختصار.

إلـه الـخـلـق قـد عـظـمـت ذنـوبـي فـسـامـخ، مـا لـعـفـوك مـن مـشـارك
أغـث يـا سـيـدي عـبـداً فـقـيـراً أنـاخَ بـبـابـك الـعـالـي ودارك[1]

* * *

{٣٨٨} مقرىء لغوي

عُرف الشيخ محمد بن محمد الراعي المالكي، الغرناطي ثم القاهري، عُرف بالإقراء وانتفع به الناس طبقة بعد طبقة، واشتهر بجودته في ذلك مع العربية، لكنه كان حادَّ اللسان والخلق، مات سنة ٨٥٣هـ وصُلِّي عليه بالأزهر، بعد أن أنشد قُبيل موته بشهر في حال صحته بعضَ أصحابه من نظمه:

أفكرُ في موتي وبعد فضيحتي فيحزنُ قلبي من عظيم خطيئتي
وتبكي دماً عيني وحُقَّ لها البكا على سوء أفعالي وقلة حيلتي
وقد ذابت أكبادي عناءً وحسرة على بُعد أوطاني وفقدِ أحبَّتي
فما لي إلا الله أرجوهُ دائماً ولا سيما عند اقتراب منيتي
فنسأل ربي في وفاتي مؤمناً بجاه رسول الله خير البريَّةِ[2]

* * *

{٣٨٩} شعر مدفون مع صاحبه!

كان محمد بن أحمد بن عطاء الله عالماً فصيحاً مفرط الذكاء، سخياً في إسداء المعروف للطلبة، كثير المداراة، مهيباً، مات سنة ٨٥٣هـ.

(١) المصدر السابق ٩٢/٧ باختصار. قلت: وهو نفسه الآتي في الرقم (٣٨٩).
(٢) المصدر السابق ٢٠٣/٩ ـ ٢٠٤.

ومن نظمه ما ذكر أنه نظمه في منامه أيام طاعون سنة ٨٤٧هـ وأوصى أن يُدفن معه:

إلـه الـخـلـق قـد عـظـمـتْ ذنـوبـي ... فـسـامـحْ مـا لـعـفـوكَ مـن مـشـارك
أغـثْ يـا سـيـدي عـبـداً فـقـيـراً ... أنـاخ بـبـابـك الـعـالـي ودارك(١)

* * *

{٣٩٠} البرهان البقاعي

ذكر تلميذ البقاعي خليل الذهبي أنه اجتمع بشيخه المؤرخ الأديب برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ) قبل وفاته بثلاثة أيام وهو راكبٌ صحيحُ الجسم، فأنشده أبياتاً ذيَّلها على ثلاثة أبياتٍ من نظمِ ابن دقيق العيد، والأبيات هي:

كـم لـيـلـةٍ فـيـكَ وصـلـنـا الـسُّـرى ... لا نـعـرفُ الـغـمـضَ ولا نـسـتـريـحْ(٢)
واخـتـلـفَ الأصـحـابُ مـا ذا الـذي ... يـربـحُ مـن شـكـرهـمُ أو يُـريـحْ
فـقـيـل تـعـريـسـهـم سـاعـةً ... وقـيـل بـل ذكـراكَ وهـو الـصـحـيـحْ(٣)

وأبيات البرهان البقاعي هي:

فـإنَّ ذكـراك لـنـعـمَ الـشِّـفـا ... مـن كـلِّ دَا وهـو الـصـديـقُ الـمـريـحْ
يجلو صدى القلبِ ويُعطي المنى ... ويـثـبـتُ الـعـلـم الـلَّـدُنِّـيْ الـمـلـيـحْ
مـا أسـعـدَ الـخـلـق إذا أقـبـلـوا ... عـلـيـه حـتـى أُنـزلـوا فـي الـضـريـحْ
يـا ربِّ أسـعـدهـم وألـحـقـنـي بـهـم ... لـلـفـوزِ بـالـوزنِ الـثـقـيـلِ الـرجـيـحْ(٤)

* * *

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص٥٢٩. وقد سبق في الرقم (٣٨٧).
(٢) السُّرى: السير عامة الليل.
(٣) أعرس المسافرون وعرَّسوا: نزلوا آخر الليل للراحة.
(٤) سفينة الفرج للقاسمي رقم ١١٧٠.

{٣٩١} الكوراني الشهرزوري

الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني عالم ومفسّر شهير، كردي الأصل، من أهل شهرزور، تعلم بمصر، وعهد إليه السلطان مراد بتعليم ولي عهده محمد الفاتح، وولي القضاء في ذلك العهد، وتوفي بالقسطنطينية عام ٨٩٣هـ، وصلى عليه السلطان بايزيد.

عندما اقترب أجله صلى الفجر واضطجع على جنبه الأيمن مستقبل القبلة وقال: أخبروا من في البلد من الذين قرأوا عليّ القرآن، فأخبروهم. فحضر الكل، فقال المولى: لي عليكم حق، واليوم يوم قضائه، فاقرأوا عليّ القرآن العظيم إلى وقت العصر. فأخبر الوزراء بذلك، فجاؤوا إليه لعيادته، فبكى الوزير داود باشا لما بينهما من المحبة الزائدة، فقال المولى: لماذا تبكي يا داود؟ قال: فهمت فيكم ضعفاً. فقال: ابكِ على نفسك يا داود، فإني عشت في الدنيا بسلامة، وأختم إن شاء الله تعالى بسلامة. ثم قال للوزراء: سلموا منا على بايزيد، يريد السلطان بايزيد خان، وأوصيه أن يحضر صلاتي بنفسه، وأن يقضي ديوني من بيت المال قبل دفني، ثم قال: أوصيكم إذا وضعتموني عند القبر أن تأخذوا برجلي وتسحبوني إلى شفير القبر، ثم تضعوني فيه، ثم إنه صلى صلاة الظهر مومئاً، ثم أخذ يسأل عن أذان العصر، فلما قرب وقته أخذ يستمع صوت المؤذن، فلما قال المؤذن: الله أكبر، قال المولى: لا إله إلا الله، فخرجت روحه في تلك الساعة، روّح الله تعالى روحه ونوّر ضريحه(١).

* * *

{٣٩٢} العالم المقرىء الخاشع

كبير علماء تلمسان الشيخ العلامة المتفنن محمد بن يوسف السنوسي،

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية/ طاش كبري زاده، ص٥٥.

كان صالحاً زاهداً عابداً، محققاً مقرئاً خاشعاً، توفي يوم الأحد ١٨ جمادى الآخرة سنة ٨٩٥هـ.

لمّا أحسَّ بمرض موته انقطع عن المسجد ولازم فراشه حتى مات، ومرض عشرة أيام، ولمّا احتُضر لقِّنه ابن أخيه مرة بعد مرة، فالتفت إليه وقال له: هل ثَمَّ غيرها؟.

وقالت له ابنته: تمشي وتتركنا؟.

فقال لها: الجنة مجمعنا عن قرب إن شاء الله تعالى.

وكان يقول عند موته: نسأله سبحانه أن يجعلنا وأحبَّتنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالمين بها[١].

* * *

{٣٩٣} عبدالرحيم...

عبدالرحيم بن محمد القاهري الشافعي يعرف كأبيه بابن الأوجاقي، قرأ وأُجيز من طائفة من كبار العلماء، وله نظم كثير، وحجَّ غير مرَّة وجاور.

قال الإمام السخاوي: وكان مما كتبه لي من نظمه ليُكتب على قبره:

تقولُ نفسي أتخشى ... من هول ذنبٍ عظيم؟
لا تختشي من عقابٍ ... فأنت عبدُالرحيم[٢]!

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص٥٦٩.

(٢) الضوء اللامع ١٨٩/٤. ولم يذكر وفاته، بل ولادته سنة ٨٢٥هـ.

القرن العاشر

{٣٩٤} عالم مصنّف

عالم مصنف عُرف بابن العبري، درّس في أماسيه، وبقيت مصنفاته في المسوَّدة لاخترامه المنيّة، حيث قصد القسطنطينية (إستانبول) ومات في الطريق متردياً من سطح، وقد طالع التفسير، فلمّا حان وقت المغرب وأراد النزول وقع على ظهره، والكتاب مفتوح على صدره، فنظروا فيه فإذا موضع نظره تفسير سورة يس. رحمه الله[١].

***

{٣٩٥} الشيخ الناسك

شيخ عالم ناسك عارف، هو محمد بن حسن الشهير بابن عنان الشافعي، كانت أوقاته مضبوطة لا يُصغي لكلام أحد... لمّا احتُضر بسطحِ جامع باب البحر، مات بنصفه الأسفل، فصلى وهو قاعد، فأضجعوه لما فرغ، فما زال يهمهم بشفتيه والسبحة في يده حتى صعدت روحه، في سنة ٩٢٢هـ عن نحو ١٢٠ سنة[٢].

***

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ص٩٤.

(٢) شذرات الذهب ١١٧/٨.

{٣٩٦} الشيخ المجاهد المهموم

كان هناك شيخ صالح متصوف مجاهد، هو أبو عبدالله محمد بن يحيى البهلولي، من المغرب، لازم باب الجهاد وفُتح له فيه، وله في ذلك أشعار وقصائد زجليات وغيرها، وكان معاصراً للسلطان أبي عبدالله محمد بن محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي، وكان يحضُه على الغزو، ولما مات ودالت الدولة لولده السلطان أحمد، عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له، فبلغ ذلك الشيخ البهلولي، فآلى على نفسه أن لا يلقى ذلك السلطان ولا يمشي إليه ولا يقبل منه ما كان عيَّنه له والده من جزية أهل الذمة بفاس. . . فمكث على ذلك إلى أن حضرته الوفاة، وكان في النزع، وأصحابه دائرون به، فقال له بعضهم: يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو ونادى به وحضّ الناس عليه والمسلمون في فرح. وفرح لذلك، ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحاً، وحمد الله وأثنى عليه، ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك[(١)].

* * *

{٣٩٧} اشتياق

الشيخ العارف خليفة الأماسي كان عابداً زاهداً تقياً نقياً ورعاً، صاحب هيبة ووقار وسكون، وكان صائماً بالنهار وقائماً بالليل، وكان من المجاهدين في الله.

قال طاش كبري زاده: حكى لي من حضر موته أنه رأى مقامه في الجنة، واشتاق إليه وحنّ حنيناً عظيماً، وتضرّع إلى الله تعالى أن يوصله إليه سريعاً ولا يؤخر عمره.

قال: وقال رحمه الله تعالى: ما أحسن هذه المراتب، وما ألطف الحور العين.

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١١٣/٤. ووفاة الوطاسي سنة ٩٣٢هـ.

قال: ويدعونني إلى الجنة. اللّهم اقبضني سريعاً وأوصلني إلى هذه المقامات.

وتوفي رحمه الله محباً للقاء الله تعالى ومشتاقاً إلى الوصول إليه[1].

* * *

{٣٩٨} وصية شيخ عارف

شيخ عارف اسمه جمال الدين إسحاق القرماني، المعروف بجمال خليفة، كان ماهراً في التفسير، يعظ الناس فيتأثرون ويتوبون.. أسكنه الوزير يري باشا زاوية في القسطنطينية.

ذكر طاش كبري زاده أنه عاده في مرض موته، وطلب منه وصية، فكان مما أوصاه به: إن غلبَ على خاطرك الميلُ إلى التصوف فاختر من المشايخ من كان ثابت القدم في الشريعة، وإن رأيت فيه شيئاً يخالف الشرع ـ وإن كان قليلاً ـ فاحترز منه، فإن مبنى الطريقة رعاية الأحكام الشرعية وآدابها كلها[2].

* * *

{٣٩٩} نفسه رهينة..

عالم مالكي له يد طولى في العربية، اسمه زين بن أحمد الجيزي، نسبة إلى الجيزة بمصر. كان يلحُّ في الدعاء أن يختم عمره بحجَّة، فتوفي منصرفه من الحجِّ والزيارة سنة ٩٧٧هـ.

(١) الشقائق النعمانية ص٢٦٣.

(٢) الشقائق النعمانية ص٢٢٢.

قال التنبكتي: وأخبرني بعض من سمعه أنه كان ينشد بعد هذه الحجة كثيراً:

أصـبـحـت نـفـسـي رهـيـنـه بـيـن مـكـه والـمـديـنـه[1]

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي ص١٨٢ (طبعة كلية الدعوة في طرابلس الغرب).

القرن الحادي عشر

{٤٠٠} يحبُّ ربَّه

شيخ صالح من دمشق اسمه علي بن عمر العقيبي، ذكر المؤرخ المعروف نجم الدين الغزي أنه لقيه وصحبه برهة من الزمان، وأنه دخل عليه في مرض موته، فسمعه وهو يقول وهو في سكرات الموت: يا سيدي يا حبيبي يا ربي والله إنك لتعلم أني أحبك. ثم مات عشية ذلك اليوم، سنة ١٠٠١هـ وقد أوفى على المائة سنة[(١)].

* * *

{٤٠١} البوريني العالم

الحسن بن محمد البوريني مؤرخ من العلماء بالأدب والحديث والفقه والرياضيات والمنطق، وكان عذب المفاكهة، وله شعر، مات سنة ١٠٢٤هـ.

ذكر المحبي أنه قبل موته بلحظة أمر بعض من حضر عنده بقراءة سورة يس، فقرأوها، وكان هو في حالة النزع يحرِّك شفته معهم، إلى أن وصلوا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن

(١) لطف السمر وقطف الثمر لنجم الدين الغزي ٥٦١/٢ (تحقيق محمود الشيخ).

فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فمدَّ السبابة إشارة إلى الشهادة، وخرجت روحه[1].

* * *

{٤٠٢} ودِّعوا من دنا رحيله

أبو العباس أحمد بن الفضل باكثير، عارف بالفلك وله شعر، شافعي من أهل حضرموت، سكن مكة المكرمة ومات سنة ١٠٤٧هـ.

اتفق أنه سمع وهو محتضر رجلاً ينادي على فاكهة: ودِّعوا من دنا رحيله، فقال بديهاً:

يا صاحِ داعي المنونِ وافى ... وحلَّ في حيِّنا نزولهْ
وها أنا قد رحلتُ عنكم ... فودِّعوا من دنا رحيلهْ

فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات. رحمه الله[2].

* * *

{٤٠٣} نجم الدين الغزي

المؤرخ الجليل نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت١٠٦١هـ) صاحب «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» وغيره، روى المحبِّي أنه قبل موته بيومين طلع إلى بساتينه ـ أوقاف جده ـ واستبرأ الذمة من الفلاحين وطلب منهم المسامحة، وفي اليوم الثاني دار على أهل ابنته وبنتها وغيرهم وزارهم، وأتى إلى منزله بيت زوجته أم القاضي يحيى بن حميد، وصلى المغرب، ثم جلس لقراءة الأوراد، وأخذ يسأل عن أذان العشاء، وأخذ في

(١) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ٢/٦٠.
(٢) المصدر السابق ١/٢٧٣.

ذكر لا إله إلا الله وهو مستقبل القبلة، ثم سُمع منه وهو يقول: بالذي أرسلك ارفق بي. فدخلوا عليه فرأوه قد قضى نحبه ولقي ربه. رحمه الله تعالى[1].

* * *

{٤٠٤} سلام عليكم

عالم مِفنٌّ في العلوم وجامع لها ومقدَّمٌ في المعارف كلها، هو الشيخ علي بن إبراهيم الخياط الرشيدي الشافعي، تصدَّر للتدريس وأخذ عنه خلقٌ كثيرون، مات سنة ١٠٩٤هـ.

وكان قد أقبل على قراءة القرآن قبل موته بسنة، فصار لا يتركها صباحاً ومساء وكل وقت، حتى ترك التدريس، إلى أن توفي. وأخبر ولده أنه لما احتضر قرأ بعض الحاضرين سورة يس والرعد، فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ خرجت روحه[2].

* * *

{٤٠٥} مفتي مكة

الشيخ إبراهيم بن حسين بن بيري مفتي مكة المكرمة، أحد أكابر فقهاء الحنفية وعلمائهم المشهورين ومن تبحر بالعلم. له أكثر من (٧٠) رسالة.

كان قلقاً من الموت، فرأى النبيَّ ﷺ قبل وفاته بليلة في المنام وهو يقول له: يا إبراهيم متْ فإن لك بي أسوة حسنة. فقال: يا رسول الله،

(١) المصدر السابق ٤/٢٠٠.

(٢) المصدر السابق ٣/١٢٨.

على شرط أن يُكتب لي ثواب الحج في كلّ سنة. فقال ﷺ: لك ذلك، أو كلاماً معناه[1].

(١) المصدر السابق ١/٢٠. ووفاته سنة ١٠٩٩هـ.

القرن الثاني عشر

{٤٠٦} قارىء عاق

قارىء من دمشق اسمه عمر بن إبراهيم بن كاسوحة، كان والده عبداً صالحاً محباً للعلماء، فاجتهد على تعليم ابنه، وأشغله على عدة مشايخ، ودخل به إلى القاهرة غير مرة، وأحضره عند مشايخ الإسلام، فبرع في القراءات حتى صار أمثل جماعته، ثم تصدَّر للإقراء، قال المؤرخ نجم الدين الغزي: فما سمعتُ بعد الشيخ أحمد الضرير أحسن قراءة منه، ولا أتقن تجويداً منه.

قال: كان قليل الحظ من الدنيا، ومعيشته أكثر ما كانت من كسب أبيه، إلا أنه لم يوفِهِ حقَّه، وكان يتكبَّر على أبيه ويؤذيه، وعُوتب في ذلك فقال: ما ينبغي للعالم أن يتواضع للجاهل!!.

قال: وكنت أرى تأخيره وعدم استيفاء حظِّه من دنياه عقوبةً لعقوقه، فإني عدتُ أباهُ في مرض موته فشكا منه كثيراً، وقال: تشهَّد أني غير راض منه. فقلت له: سامحه، فلم يفعل، ولعله فعل بعد ذلك، ولم أذكر ذلك لولده، لأني لم أتفرَّس فيه المطاوعة لما أشير إليه من طلب مرضاة أبيه. وعسى أن يكون استوفى عقوبته في حياته، فإنه لم يستقرّ له صحة في بدنه، ولا هناء في عيشته بعد موت أبيه، إلى أن مات بعلة الاستسقاء سنة ١١١٧هـ، ودفن عند قبر أبيه. رحمه الله تعالى[١].

---

(١) لطف السمر ٥٨٦/٢ ـ ٥٨٧.

{٤٠٧} شهد الله...

الشيخ أحمد بن عبداللطيف التونسي كان عالماً متفوقاً بارعاً محققاً، نزل دمشق. . . وبها مات سنة ١١٢٦هـ، وعند احتضاره أشهد على نفسه لولده الأديب محمد وللشيخ عبداللطيف العمري أنه تارك الدنيا مقبل على الأخرى، يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن ما جاء به رسول الله حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. . .

ثم ابتدأ في قراءة ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى آخر الآية، وسلَّم الروح إلى بارئها[١].

* * *

{٤٠٨} زُرْ والديك...

وكان إبراهيم بن محمد الدكدكجي شاباً ذكياً من دمشق، أجيز من علماء عديدين، وكانت تميله نفحات الهوى، فيجيد الغزل والتشبيب. . مات بالطاعون وهو شاب سنة ١١٣٢هـ.

ولوالده وصية كتبها إليه، وهي:

زر والديك وقف على قبريهما ... فكأنني بك قد نُقلتَ إليهما

لو كنت حيث هما وكانا بالبقا ... زاراك حبواً لا على قدميهما

ما كان ذنبهما إليك فطالما ... منحاك نفس الودِّ من نفسيهما

كانا إذا ما أبصرا بك علَّةً ... جزعا لما تشكو وشقَّ عليهما

كانا إذا سمعا أنينك أسبلا ... دمعيهما أسفاً على خدَّيهما

وتمنَّيا لو صارَ ما بك[٢] راحة ... بجميع ما يحويه ملك يديهما

(١) ينظر هذا في سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي ١/١٣١.

(٢) في الأصل «لوصاد فابك».

فنسيتَ حقهما عشية أُسكنا ... دار البقا وسكنت في داريهما
فلتلحقنهما غداً أو بعده ... حتماً كما لحقا هما أبويهما
ولتندمن على فعالك مثل ما ... ندما هما ندماً على فعليهما
بشراك لو قدَّمتَ فعلاً صالحاً ... وقضيتَ بعض الحقِّ من حقَّيهما
وقرأت من آي الكتاب بقدر ما ... تسطيعه وبعثت ذاك إليهما
فاحفظ ـ حُفظت ـ وصيتي واعمل بها ... فعسى تنال الفوز من برِّيهما[1]

* * *

{٤٠٩} الطبيب الذي خرّف

أحمد بن يعقوب الهاشمي الهندي، ثم اليمني، الحكيم الماهر المتطبِّب، كان لا يكاد يخطىء في الدواء، ولا جسِّ النبض، بعثه المهدي إلى المرضى وأهل العلل. اشتغل آخر أيامه بجمع الكتب الطبية والدينية وغيرها وتوسع في شراء الأموال حتى حُسد، ومات في سنة ١١٩٥هـ.

يروى أنه لما حضرته الوفاة لم يهتدِ إلى إدراك نبضه، وصار إذ ذاك أجهل الناس بمعرفته، وكانت تأتيه الأرملة والضعيف فيذهبان به أين أرادوا، وربما جاءه رسول الخليفة فلا يجيب حتى يقضي لهما وطراً[2]!.

* * *

{٤١٠} الميرزا جان جانان

شيخ نقشبندي كبير، اسمه شمس الدين حبيب الله جان جانان مظهر، مات شهيداً سنة ١١٩٥هـ، وكان قد غلب عليه الشوق إلى الرفيق الأعلى قبل أيام من وفاته، وزاد في العبادة على وظائفه المعتادة في تلك الأيام،

(١) المصدر السابق ١/٢٠.
(٢) البدر الطالع ٢/٥٢.

وازدحم السالكون على بابه، وكان يقول: الموت موجب للقاء الله تعالى، الموت سبب لزيارة فخر العالم ﷺ، الموت يوصل إلى مشاهدة الأولياء، الموت يوجب السرور بملاقاة الأعزاء، وإني لمشتاق لزيارة أرواح كبراء الدين الطيبة...

وفي ليلة السابع من شهر المحرم أخبره الخادم بأن نفراً أتوا لزيارته، فسمح لهم بالدخول، فكانوا ثلاثة أشخاص من المغل ـ أي المجوس ـ [هكذا]، فقام من مضجعه ووقف معهم، فقالوا له: أنت مرزا جان جانان؟ قال: نعم، فأخرج أحدهم خنجراً وطعنه به، فأصابت خاصرته قريباً من قلبه، ونظراً لكبر سنه وعجزه لم يتحمل ذلك، فوقع على الأرض... وبعد قصة مع الحاكم عفا عن الجاني وطلب منه العفو عنه أيضاً، وبقي ثلاثة أيام يزداد ضعفاً، وقال وهو في يوم الجمعة: إنه قد فاتني إحدى عشرة صلاة وجسدي كله مضرَّج بالدم، ولا أقدر أن أرفع رأسي، وقد قالوا: إذا عجز المريض عن أن يرفع رأسه لا يكلف لأداء الصلاة بالإيماء بطرفه وحاجبه، ويجوز له تأخيرها، فماذا تعلمون في هذه المسألة؟

فقالوا له: الحكم كما ذكرتم.

فلما انتصف النهار رفع يديه، وهو يقرأ الفاتحة.. ومات في المغرب(١).

---

(١) الكواكب الدرية على الحدائق الوردية في أجلاء السادة النقشبندية للخاني/ محمد خالد الخرسة، ص٦٠٧ ـ ٦٠٩.

القرن الثالث عشر

{٤١١} عالم مسموم

عالم من مدينة صبياء بالسعودية، برع في علوم الشريعة واللغة، وكان قاضياً، وله مؤلفات.

في آخر حياته أضافه من كان يظنه صديقاً له، وجعل له سُمّاً في مشروب قدَّمه له، فحصل معه الضعف ثم توقفت حركته منذ ذلك اليوم، إلى أن توفاه الله يوم الأربعاء ١٨ شعبان سنة ١٢٤٨هـ، وقال في ذلك مورِّياً:

سألتُ الناس هل سمًّى طبيبي لعلَّتي التي أضنته[١] ممّا
وما النوع الذي أضنى عظامي وقد وهنت فقال الناسُ سُمّا[٢]

***

{٤١٢} كرسي الموت

بشير بن شبير بن مبارك الهاشمي الحسني عالم من مدينة أبي عريش بالسعودية، تردَّد إلى مكة المكرمة نحو (٢٠) سنة بقصد الحج، وكان

(١) في الأصل: أظنته.

(٢) لآلىء الدرر في تراجم رجال القرن الثالث عشر/ أحمد بن محمد الشعفي، ص١٥٤.

محافظاً على الصلوات جمعة وجماعة، مع القيام بوظائف العبادات من صوم وذكر وتلاوة، اشتغل آخر مدّته بالتدريس. وفي آخر حجة له عاد إلى بلده ليلازمه المرض، وقال لصاحب له: ما أظنك تلقاني بعد اليوم، إني رأيت النبيَّ ﷺ في النوم في موضع فيه كراسي كثيرة، ووالدك على كرسي منها، وبجنبه كرسي خال، فقال لي: هذا الكرسي لك، ولكن بقي لك أيام معدودة وستقدم علينا. ثم كانت وفاته يوم الخميس ٣ رجب ١٢٥١هـ(١).

* * *

{٤١٣} سلّم إلى العفو

الشيخ عمر المجتهد بن أحمد المجتهد الدمشقي الحنفي كان حسن الأخلاق والشمائل، دائم الأذكار في الليل والنهار، كثير العبادة. طُلب لأمانة الفتوى في دمشق مرتين فلم يقبل، ويقول: دعوني مما أُحاسب عليه وأُسأل. مات سنة ١٢٥٤هـ، وكان قد أوصى قبل موته أن يُكتب على ضريحه البيتان المنسوبان للإمام الشافعي، وهما:

ولما دنا عمري وضاقت مذاهبي جعلتُ رجائي نحو عفوك سلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنتهُ بعفوِكَ ربّي كان عفوكَ أعظما(٢)

---

(١) المصدر السابق ص٩٠.

(٢) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر/ عبدالرزاق البيطار، ١٣١/٢.

القرن الرابع عشر

{٤١٤} كيف دخلت؟

نابغة الشام وفقيهها الشيخ الجليل محمود حمزة، وفاته ١٣٠٥هـ.

لما مرض مرض الموت رأى النبي ﷺ، فقال له: «كيف دخلت يا محمود، وكيف خرجت»؟ فأجابه: دخلتُ على أنك رسول الله، وخرجت على أنك رسول الله.

ورفض بعد هذه الرؤيا التداوي وتناول الدواء، ووقع في قلبه أن أجله قد دنا.

وله رحمه الله ديوان شعر جمع فيه أنواع البديع، ومن شعره قوله:

النـاسُ للخير ما أحلى ظواهرهم ... وفي بواطنهم للشرّ إخراجُ
مثل المنارة تلقى العدلَ ظاهرها ... وفي بواطنها عَوَجٌ وأدراجُ(١)

* * *

{٤١٥} دعوة.. قبل الإعدام!

ذكر توماس .و.آرنولد عن زعيم عربي مسلم أنه في إفريقية حكم

(١) تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري ٥٦/١ ـ ٥٧.

البلجيكيون على زعيم عربي بالإعدام. فقضى ساعاته الأخيرة وهو يحاول أن يُدخل في الإسلام ذلك المبشر[1] المسيحي، الذي كان قد أرسل إليه ليزجي إليه التعزيات الدينية[2].

* * *

{٤١٦} الدعوة.. حتى آخر لحظة!

كان الشيخ حسن علي من الدعاة الهنود المتحمسين جداً لنشر الإسلام، فلما آن وقت رحيله إلى الدار الآخرة بدأ يردّد كلمات دعوية طالما قالها وهو يدعو الناس إلى الإسلام.

وعنه يقول توماس .و.آرنولد: وتجلّت حماسته في نشر الدعوة حتى في آخر لحظة من حياته حين سمعه بعض الناس خلسة وهو يقول على فراش الموت: «اترك دينك وصر مسلماً».

فلما سئل عن ذلك، قال: «إنه يتحدّث إلى المسيحيين»[3].

* * *

{٤١٧} عجوز يأكل دنانيره!

يقول الأستاذ صالح الزمام:

تحدثنا في مجلس أخينا في الله الأستاذ سليمان بن عبدالله العجاجي عن فتنة ابن آدم في المال وشدة حبه له مع علمه بمحدودية عمره على هذا الكوكب. وثابت في الكتاب الكريم أن المال خير، ولكنه قد يكون بلوى

(١) يعني المنصِّر، الذي كان حريصاً على تلقين ذلك الزعيم المسلم بالعقيدة النصرانية... قبل أن يُعدم.

(٢) الحرص على هداية الناس/ فضل إلهي، ص٨٢، نقلاً من كتاب «الدعوة إلى الإسلام» ص٤٥٣.

(٣) المصدر السابق ص٨٣.

وفتنة لبعض العباد، حيث يقول جل شأنه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ قال الأخ العجاجي: إن الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز السليم رحمه الله حدثه: أنه رأى رجلاً عجوزاً يعمل بخياطة البشوت الرجالية في الأحساء، ولاحظ عليه أنه كلما غرس الإبرة ورفعها وضع أنامله في فمه ونفث عليها كأنه يبردها، يقول: ثم إني دنوت من الرجل وسألته على استحياء عن السر في هذا العمل فقال: يا بني إني أجد في أصابعي حرارة شديدة منذ عشرات السنين، فدهشت قائلاً: حساسية؟ قال: لا نار، قلت بعجب شديد: نار منذ سنين؟ قال: يا بني منذ كذا وكذا من السنين حضرت شيخاً من أقاربي عند موته، وكان الوقت وقت شدة وجوع، وقال لي في إحدى إفاقاته وهو في السياق: أحضر لي تمراً فقلت: وهل بك قدرة على الأكل؟ قال: نعم، وأصر.

ففرحت وأحضرت له قليلاً من التمر فقال لي: أرجوك انصرف عني قليلاً ودعني لوحدي، فتواريت عنه خلف الباب لأنظر ما يصنع، فأخذ يتقلب ويتحامل على نفسه، وإذا هو يحل هيماناً بوسطه ويخرج منه عدة جنيهات ذهبية، ويخرج النوى من التمر ويضع مكانه الجنيه، فيمضغه ويبلعه وذلك بجهد شديد، ومات قبل استكمال الجنيهات، وأخذت الجنيهات الباقية القليلة وفكرت في إخراج ما ابتلعه، وذلك لشدة الحاجة إليها، وأخذت سكيناً وقددت بها بطنه ورأيت الجنيهات ومددت أصابعي لإخراجها، وإذا بحرارة تلفح يدي وأصابعي أشد حرارة من نار الدنيا بسبعين ضعفاً، وأصابني الهلع والخوف وكففت يدي، وإن الحرارة لم تفارق أصابعي يا بني حتى هذا اليوم. سجلناها وبها عبرة ومحدثنا ثقة ونقلها عن ثقة مثله.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ ...﴾ الآيتين[1].

***

---

(١) نوادر من التاريخ/ صالح الزمام ٣/١٠.

{٤١٨} الزاهد التقي

العلامة المحقق، الفقيه الزاهد عبدالحكيم بن محمد نور الأفغاني، نزيل دمشق. عرف بالتقوى والزهد حتى ضرب به المثل، يكتفي بالضروري من القوت، يشتغل يوماً واحداً في الأسبوع مع الطيانين ليأكل من كسب يده، وكان إذا اشتهر أمره وظهر فضله لمن يشتغل لديهم تركهم ليعمل في قرية أخرى.. كان قليل الطعام والكلام والنوم، أوقاته بين تعليم ومطالعة وكتابة وعبادة وتلاوة قرآن.

في الليلة التي توفي بها (٨ شوال ١٣٢٦هـ) بات عنده أحد طلابه، فكان يكثر السؤال عن أذان الصبح بقوله: هل أذّن؟ فيجيبه: لا. فيقول: هات الوضوء: فيتوضأ ويصلي.

وأعاد ذلك مراراً، ثم أسلم روحه(١).

***

{٤١٩} أحمد عُرابي

أحمد عُرابي زعيم مصري، ممن تركت الحوادث ذكراً له في تاريخ مصر الحديث.

ومن أكثر ما نشر في هذا الصدد، كدليل على وفاة هذا الزعيم فقيراً ومذموماً من بني وطنه.. أنه في يوم موته ووفق ما جاء في شهادة عبدالعزيز عرابي: «أنهم لم يجدوا في بيته نفقات تجهيزه وجنازته، فكتموا نبأ الوفاة إلى اليوم التالي، حيث كان مقرراً أن يصرفوا المعاشات قبل موعدها بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك، يومئذ كما جرت العادة».

وفي صمت رحل جثمان الزعيم محمولاً على الأعناق. في طريقه إلى

(١) تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري ٢٤٥/١.

مدافن الإمام الشافعي بحي القلعة.. حيث دفن هناك بالقرب من مدافن أسرة محمد علي.. ويؤكد الشهود كذلك أن أولاده لم يجدوا مكاناً لكي يدفنوا فيه والدهم عرابي باشا سوى قبر زوجته التي رفضت الذهاب معه في منفاه إلى سيلان!!.

وقال شاهد آخر من الذين كانوا يعرفون بعض أولاد عرابي، إنه عندما أحس عرابي باقتراب أجله تكلم مع أولاده في مسائل كثيرة، منها مشكلة المقبرة التي سيدفن فيها، وعندما بدأ يتحدث عن هذه المسألة كانت نبرات صوته تحمل الكثير من الحزن والأسى.. وقد قال لهم: «تعلمون يا أولادي أنه لا توجد أمامي الآن إلا مقبرة زوجتي في الإمام.. أنتم تعرفون علاقتي بهذه الزوجة.. وتعرفون ما فعلته بي في أزمتي.. وليس هذا المهم.. فإنه لا يضرُّ[1] الشاة سلخها بعد ذبحها.. ولكن مما يثير الكمد في نفسي أن هذه المقبرة لا تبعد خطوات عن مقبرة أسرة محمد علي.. الأسرة التي خانت بلادي، وكانت سبباً في دخول الإنكليز مصر.. وإنني أوصيكم، وألح في وصيتي هذه أن تنقلوني ورفاتي بعد مماتي في أول فرصة تتاح لكم، في ضريح مناسب حتى ولو كان هذا على حسابي الخاص».

ولكن للأسف لم تتحقق وصية عرابي حتى هذه اللحظة. بل أكثر من ذلك ضاعت معالم مقبرته الموجودة حالياً في مقبرة الإمام الشافعي. فلا يستطيع أحد أن يصل إليها بمفرده.. إلا من دليل من المقيمين بمدافن الإمام[2]!.

* * *

(١) في الأصل: لا يفيد.

(٢) الأيام الأخيرة في حياة عظماء السياسة/ حنفي المحلاوي، ص٤٢ بتصرف قليل. وكانت وفاته سنة ١٣٢٩هـ.
ومن المؤسف أن هذا الزعيم كان ماسونياً، وقد عُقد أكبر مؤتمر للتنصير بمنزله قبل موته بأربع سنوات (١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م).

{٤٢٠} بافضل

شيخ حضرمي عارف، عوض بن محمد بن سالم بافضل، لم تفته صلاة في مرض موته، ولم يترك الرواتب واستعمال السواك، وما زال لسانه ذاكراً شاكراً وجبينه يتصبَّب عرقاً، وكان يقرأ آيات من القرآن الكريم في مواضع متفرقة منه، وتارة يناجي ربَّه، وقد ثقل لسانه، ثم رفع صوته قائلاً: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله.

وفاضت نفسه ليلة الاثنين لثماني عشرة خلت من ربيع الآخر سنة **١٣٣٢هـ**. رحمه الله(١).

* * *

{٤٢١} ..قبل الإعدام

سلم بن راغب عابدين صحفي وطني، تخرج على الشيخ أبي الخير عابدين مفتي الشام، ثم اشتغل بالصحافة وأصدر جريدة «دمشق». وشى به بعضهم إلى جمال باشا السفاح فاعتقله في بيروت شهوراً ثم أفرج عنه، وما لبث أن اعتقله مرة أخرى وحكم عليه بالإعدام لأنه كان صديقاً حميماً لحقي العظم. ونفذ فيه الحكم يوم (١١) شوال **١٣٣٣هـ**، وكان آخر كلامه حين اعتلى منصة الإعدام، أن أخرج مصحفاً صغيراً من جيبه وقال: وحق كلام الله القديم أني لم أخن الدولة والوطن، ولكن أستودع الله ابنتي المسكينة إلى عمي. ثم تلفظ بكلمتي الشهادة(٢).

* * *

---

(١) ينظر: صلة الأهل بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل/ محمد بن عوض بافضل، ص٣٢١.

(٢) تاريخ علماء دمشق ٣٢٠/١.

{٤٢٢} مرحباً بلقاء الله

وطالب علم جاد اسمه محمد بن محمد نجيب الأسطواني (ت١٣٣٦هـ) كان عفيفاً ورعاً، خلّف مكتبة هي أقرب إلى مكتبات العلماء منها إلى مكتبات طلاب العلم. توفي وهو ابن سبعة وعشرين عاماً، وكانت آخر عبارة قالها وهو في أتم الوعي: لقد دنت المنية، فيا مرحباً بلقاء الله، وإن الدنيا لم تدم لمحمد ﷺ، فأين هو من محمد سيد البشر[1]؟.

* * *

{٤٢٣} اذكروا من ينفعكم

طاهر الجزائري من أعلام دمشق، مؤسس دار الكتب الوطنية الظاهرية، مفتش عام للمعارف (ت١٣٣٨هـ). كان يردد خلال مرضه الأخير: اذكروا من عندكم من الرجال الذين ينفعونكم في الشدائد، ودونوا أسماءهم في جريدة لئلا تنسوهم، ونوهوا بهم عند كل سانحة، واحرصوا عليهم حرصكم على أعز عزيز[2].

* * *

{٤٢٤} شيخ مالكي

الشيخ الجليل سالم بن عمر بوحاجب عالم مالكي من المستنير بتونس. بزَّ أقرانه في علوم العربية والأصول خاصة. لمّا قرب أجله المحتوم قال مخاطباً أبناءه، موصياً إياهم بالاتحاد والتآسي:

---

(١) أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري/ محمد عبداللطيف الفرفور، ص٣١٨.

(٢) المصدر السابق ١/٣٨٠.

أبـنـيَّ لا تـأسـوا لـفـقـد أبـيـكـم ... فرضاه يكفل بالمنى المستقبلهْ
مـا مـات مـن أبـقى رجـالاً مـثـلـكـم ... فـحـيـاتـكـم لـحـيـاتـه كـالـتـكـملـهْ
أوصـيـكـم بـالإتـحـاد وأن تـروا ... إخوانكم في البرّ مني موصلهْ

وأوصى بكتب بيتين على قبره وهما:

إلهي لا تقطع عن العبد ما به ... تعوَّدَ من إحسانك المتجدد
بإرشاده في خدمة العلم يرتجي ... لدى الحتف في تاريخه مرشد

وكانت وفاته سنة **١٣٤٢هـ**(١).

***

{٤٢٥} شيخ خطباء الحرم

الشيخ يحيى بن محمد سعيد دفتردار عالم وقاض حنفي جليل، نال مناصب عالية في الدولة العثمانية، وتولى مشيخة الأئمة والخطباء في المسجد النبوي الشريف حتى وفاته سنة **١٣٤٥هـ**.

وفي آخر حياته مرض، فجيء إليه بالطبيب، وأخذ يسأله عن أعراض مرضه، فقابله بمقطع شعري فيه شعور بدنو أجله، وتوفي بعد إلقائها على مسامعه بيومين، حيث عقد لسانه بعدها عن الكلام. ومما جاء فيها:

الموتُ هبَّ بأوصالي فعطّلها ... لم يبق إلا لساني ضمن إحساسي
آباؤنا خلفونا بعدما رحلوا ... ونحن إثر سراهم غيرُ جلاّسِ
تضلعوا من كؤوس الموت فاخترموا ... وإنني شارب من ذلك الكاسِ
تفرّقوا بدداً شتى قبورهم ... طواهم التربُ بعد الجود والباسِ

(١) شجرة النور الزكية ٤٢٧/١، عنوان الأريب بما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب/ علي النيفر ١١٧١/٢ (طبعة دار الغرب الإسلامي).

أستغفر الله مما قد جنيتُ بها آتيك يا رب في فقري وإفلاسي
ما خالط الشركُ قلبي أنت مالكه مذ عُذتُ باسمك من جهلي ووسواسي[1]

* * *

{٤٣٦} سعد زغلول

صوّر الصحفي مصطفى أمين اللحظات الأخيرة قبيل وفاة الزعيم المصري المعروف سعد زغلول[2]، وكان يجلس بجواره وهو يحتضر:

«في مثل هذا اليوم (٢٣ أغسطس عام ١٩٢٧م) (١٣٤٧هـ) دخلت غرفة نوم سعد زغلول في الطابق الثاني في بيت الأمة، وكشفت صفية زغلول أم المصريين ملاءة بيضاء عن وجهه ودعتني أنا وأخي لنقبل يده. كان على فراش الموت، مطبق العينين، في بيجاما بيضاء، وعلى رأسه طاقية بيضاء.. كان وجهه متجهماً مهيباً.

كانت هذه أول مرة في حياتي أرى رجلاً ميتاً.. وارتعشت أطرافي وأنا أمسك يده الباردة.. كانت المرة الأولى التي أراه فيها صامتاً لا يتكلم.. كنت دائماً أراه يتحدث والناس صامتون، ويخطب والناس مصغون ويحرك الشعب بصوته الذي يبدأ دائماً ضعيفاً خافتاً ثم يدوي كالرعد»[3].

* * *

---

(١) أعلام من أرض النبوة/ أنس كتبي ٢٢٢/١.

(٢) صاحب الشيخ محمد عبده وغيره من العلماء، وألف في شبابه كتاباً في فقه الشافعية، لكنه تغير من بعد، فكانت له جرأة على المجاهرة بالمنكرات، وتخطي الحدود التي شرعها الله عز وجل، وله في ذلك مواقف سيئة، كما كان له دور بارز في سفور المرأة، وكان مقامراً عنيداً، بدأ حياته السياسية صديقاً للإنجليز وختمها كذلك، وفي خطبته الأخيرة لم يمدح اللورد كرومر سواه!.

(٣) الأيام الأخيرة في حياة عظماء السياسة/ حنفي المحلاوي، ص٥٢.

{٤٢٧} عالم من المدينة

أحد علماء المدينة المنورة المبرزين، اسمه محمد هاشم بن أحمد الفوتي، المشهور بألفا هاشم، وكلمة ألفا بمعنى الشيخ أو العالم باللغة الفوتية. كان غزير العلم، تخرج على يديه العديد من طلبة العلم في المسجد النبوي الشريف، وعرف بقوة ذاكرته، فيعرف موضع المسألة الفقهية أو الفتوى بالجزء والصفحة! وكانت وفاته رحمه الله سنة ١٣٤٩هـ.

وفي آخر حياته دبَّ فيه المرض فأصبح لا يستطيع الخروج من البيت، وحينما يأتي إليه الأطباء يقول:

ماذا يبغي الحكماءُ مني وقد دنا من السبعين سنِّي

وفي يوم وفاته جاء رجلان من ينبع إلى داره يسألانه عن فتاوى، فسمعها منهم وقال لخادمه: افتح الكتاب كذا صفحة كذا وأفتِ لهم. فحدث وأفتاهم، وخرج الرجلان من عنده مسرورين، وبعد خروجهما بدقائق خرج الخادم يقول: إن الشيخ فارق الحياة[١].

* * *

{٤٢٨} أمير الشعراء

في يوم (١٣) جمادى الآخرة من عام ١٣٥١هـ أحسَّ الشاعر الكبير أحمد شوقي بنشاط غير عادي، وضحك كما لم يضحك من قبل. إنه سعيد اليوم يحس أن أوصابه وآلامه قد انتهت، فأنهى هذه البشرى إلى كاتبه وخرجا مساء ذلك اليوم لتناول العشاء وزيارة الأصدقاء، ثم أخذ يفكر في وفد من الشباب «أعضاء جمعية القرش» سألوه أن ينظم قصيدة في أول نتاج المشروع، ويستعد للقائهم في الغد، فيحلم بالغد، وأحسَّ بسعال ينتابه من

(١) أعلام من أرض النبوة/ أنس كتبي ٢١١/١.

أثر برد الليل، فعاد إلى مسكنه وأخلد إلى النوم، فلمّا كانت الساعة الثانية صباحاً أتاه داعي الموت، فاستدعى خادمه وقال بكلمات متقطعة « . . .إنها النهاية. . . استدع السيدة والأبناء لأودعهم». . . وجاء أهله، فأغمض عينيه، وأسلم الروح.

وما انتصفت الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي، حتى غصّ السرادق الفسيح الذي أقيم في ناحية من ميدان التحرير أمام قصر النيل بفحول الأدب ورجال الصحافة يشيّعون أمير الشعراء إلى مثواه الأخير[١].

* * *

{٤٢٩} علامَ الأسف؟

الشيخ عبدالعزيز بن حمد المبارك عالم وشاعر من الهفوف بالسعودية، صاحب وعظ ورحلات وقضاء وتلاميذ.

عندما مرض مرضه الأخير نادى ابنه أحمد، وذكر أنه يحسُّ بدنوّ أجله، ووصّاه، وتنهّد قائلاً: لم آسف على شيء من هذه الدنيا أسفي على علمٍ بين جوانحي لم أورثه لكم يا أبنائي.

ثم أجهش بالبكاء وقال: إني أخشى أن يُقال لي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾. فكم أمرت ونهيت، وخوّفتُ وأرشدتُ على المنابر وغيرها، فأخشى أن أكون فرّطتُ في بعض ما ذكرت، ولكني أرجو رحمته.

قال ابنه: ثم أمرني بقراءة سورة الأنعام، وتوفي في الليلة نفسها. طيّب الله ثراه[٢].

* * *

(١) موسوعة الشعراء العرب المعاصرين/ نجيب البعيني، ص٤٤ ـ ٤٥.

(٢) ينظر: شخصيات رائدة من الأحساء/ معاذ المبارك ٤٧/٢ (فاتني توثيق سنة وفاته).

{٤٣٠} عز الدين القسام

البطل المسلم عز الدين القسام بعد أن حكم عليه الفرنسيون بالإعدام، غادر دمشق قاصداً فلسطين ليبدأ في تأسيس حركته الجهادية ضد البريطانيين والصهيونيين.

وقبل استشهاده، وقف للمرة الأخيرة خطيباً في جامع الاستقلال في حيفا، وخطب في جمع من المصلين، وفسّر لهم الآية الكريمة ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

وكان في صوته تهدُّج وحماسة، وفي نبراته رنين ألم ممضّ، وفي عينيه بريق من بأس وقوة، وقال: يا أيها الناس، لقد علمتكّم أمور دينكم حتى صار كلُّ واحد منكم عالماً بها، وعلمتكم أمور وطنكم حتى وجب عليكم الجهاد، ألا هل بلغت؟ اللّهم فاشهد. فإلى الجهاد أيها المسلمون، إلى الجهاد أيها المسلمون.

وما أن أنهى خطابه حتى كان الحاضرون قد أجهشوا بالبكاء، وأقبلوا على يديه يقبلونهما، وعاهدوه على القتال في سبيل الله.

وبعد ساعة من إلقاء الخطبة أخذت السلطة البريطانية تفتش عنه... وتابعته حتى قتلته عام ١٣٥٤هـ[٢].

* * *

{٤٣١} مات في الدرس

عالم حضرمي جليل، اسمه محمد بن محمد باكثير، كان دائرة

(١) سورة التوبة، الآية: ١٣.

(٢) أبطال فوق الخيال: قصص شهداء الانتفاضة/ آمال صالح؛ تقديم عبدالعزيز الرنتيسي. ـ بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ، ص٢٨.

معارف، متخصصاً في النحو والصرف، كثير الإكباب عليهما، له مؤلفات عديدة وأشعار كثيرة. وفاته في (١٣) محرم من سنة ١٣٥٥هـ بسيؤون.

وقصة وفاته أنه كان جالساً في مجلس الدرس، يقرأ عليه القارىء في «الجامع الصغير» للسيوطي، فلما بلغ حديث **«لقّنوا موتاكم لا إله إلا الله»** نطق بها ومات لتوّه[1]!.

***

{٤٣٢} ذنوبي..

الشيخ عبدالله البخاري من أعلام وعلماء طرابلس الشام، أصله من بخارى، وكان وزيراً هناك، وعندما حلّ الحكم الشيوعي هاجر، توفي عن (٨٥) عاماً سنة ١٣٥٦هـ.

وعندما كان يحتضر سمعه تلميذه الحاج منير يقول ويردد:

ذنوبي مثل أعداد الرمال   فهب لي توبة يا ذا الجلالِ
وعمري ناقص في كل يوم   وذنبي زائد كيف احتمالي[2]

***

{٤٣٣} الرافعي الأديب

الأديب البلاغي الكبير مصطفى صادق الرافعي، أجري معه لقاء قبل وفاته بقليل (١٣٥٦هـ)، وسئل:

هل تكره الموت؟

فقال: لا، بل أكره ذنوبي، أما الموت فهو اكتشاف العالم الأكبر، نسأل الله حسن الخاتمة.

---

(١) إدام القوت/ عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف، ص٦٨٢.

(٢) مجلة التقوى ع٧٠ ص٤٥.

وقيل له: ما هي وصيتك إذا حضرتك الوفاة؟

فقال: هي تكرار المبدأ الذي وضعتهُ لأولادي: النجاح لا ينفعنا، بل ينفعنا الامتياز في النجاح(1).

* * *

{٤٣٤} شاعر يرثي نفسه

التجاني يوسف بشير شاعر من السودان، صدر ديوان شعره بعد وفاته، رأيت منه الطبعة السابعة لعام ١٤٠٠هـ عاش سبعة وعشرين عاماً فقط، وكانت وفاته عام ١٣٥٦هـ بعد أن تدهورت صحته لإصابته بداء الصدر، وأثر فيه أثراً بالغاً، حتى شوى عظامه وامتص دماءه، فضعف عوده، وأصبح هيكلاً عظمياً، لا يستطيع حراكاً وغارت عيناه، ورجفت أوصاله، واستبدَّ به الهم، حتى صرخ قائلاً، وكأنه يرثي نفسه، قبل وفاته، في قصيدته «فاحتفظها ذكرى»:

يا «أنيس» الحياة يقطر منك الـ ... ـطيب نبلاً وتعبق الأخلاقُ
يا أخا الروح عادني منكم الغيـ ... ـث كثير وليس فيه ابتراق
غمرتني نُعمى يديك على حين ... تجنت على هواي الرفاق
ما على القلب منهم ويحسبي ... صاحبٌ ملءُ روحهِ إشفاق
أيها الشاعر المجيد ومجد الشـ ... ـعرِ مما تدوَىٰ به الآفاق
أرأيت الصديق يأكله الدا ... ء ويشوي عظامه المحراق(2)
ما ردَّ هذه السقام ولكن ... صبره الجمُّ للضنىٰ دقّاق
جفَّ من عوده الندى فتعرَّى ... وتنفَّت من حوله الأوراق
وذوى قلبه النضير وقد كان ... له في زمانه تخفاق

(1) الرسالة ع٢٠٣ (١٤ ربيع الأول ١٣٥٦هـ) ص٨٦٢.

(2) في الأصل: ... يأكل ... عظمه...

رحـم الله عـهـده فـلـئـن عـا | د فـعـنـدي لـدهـرنـا مـيـثـاقُ
وأنـا الـيـوم لا حـراك كـأن قـد | شُـدَّ فـي مـكـمـن الـقـوى أوثـاق
بـتُّ أسـتـنـشـقُ الـهـواء اقـتـساراً | نَـفَـسٌ ضـيِّـقٌ وصـدرٌ طـاق
وحـنـايـا مـعـروقـة وعـيـون | غـائـرات ورجـفـة ومُـحـاق
مـا لـنـا دون ذا احـتـيـال فـإن الـلّـ | ـه فـي عـلـمـه الـشـؤونُ الـدِّقـاق
لـي رجـاء فـي رحـمـة الله لـمـا | وسـعـت فـي الـحـيـاة مـا لا يُـطـاق
فـالـشـفـاء الـشـفـاء يـا رب والـعـفـو | وزدهـا قـوى أذاهـا الـوثـاق
كـيـف أجـزيـك يـا أنـيـسُ ومـا لـي | مـن يـد بـالـجـزاء مـثـلـي تُـسـاق
فـالـقـريـض الـذي تـقـدر لا أعـ | ـلـمُ إن كـان فـي الـجـزا يـشـتـاق
فـاحـتـفـظـهـا ذكـرى فـإن مـتُّ فـاقـرأ | بـيـنـهـا الـحـب مـا عـلـيـه مـذاق
أو حـيـيـنـا فـسـوف نـقـرأ فـيـهـا | فـتـرةً لا أعـادهـا الـخـلاّق[1]

* * *

{٤٣٥} شاعر.. محام

أمين تقي الدين من أسرة درزية كبيرة في لبنان، كان محامياً وشاعراً وصحفياً ناشراً، ساهم في تأسيس بعض الأحزاب المحلية، وحُكم عليه بالإعدام في عهد الخلافة العثمانية، وكانت وفاته سنة ١٣٥٦هـ.

يذكر عنه أنه نظم قبل وفاته بيتين من الشعر لينقشا على مدفن خاص بآل تقي الدين، هما:

إلى هنا تنتهي الدنيا بصاحبها | فـلا خـلـود لـه إلا بـذكـراهُ
فـارقـت دنـيـاي لـم أجـزع لآخـرة | فـالـمـرء دنـيـاه مـرآةٌ لأخـراهُ

* * *

(١) التجاني يوسف بشير شاعراً وناثراً/ هنري رياض. - بيروت: دار الثقافة، د.ت، ص٣٦، ٣٧.

{٤٣٦} سلام عليكم

العالم الجليل صالح بن أسعد الحمصي كان حجة في الفرائض والفقه الحنفي، برع في الأصول والمصطلح والتفسير، وعرف عنه زهده وعفته، وكان حسن المعاملة للناس، يتحمّل أذاهم، ويعطف على صغيرهم، غيور على حرمات الدين. توفي بدمشق سنة ١٣٦٢هـ، وكان في آخر عمره يردد الآية الكريمة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [سورة الرعد: ٢٤] ولم يتركها إلا قبل بضع دقائق من وفاته حين صار يردد لفظ: «الله، الله»(١).

* * *

{٤٣٧} صلاة.. ووفاة

الشيخ الجليل رشيد بن محمد شميس عالم من دمشق، برع في علم الفرائض، وكان إماماً وخطيباً في جامع الحيواطية، لا يأكل إلا من كسب يده... توفي في ربيع الأول سنة ١٣٦٢هـ بعد أن صلى إماماً، وتلا في صلاته: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥]. ولما رجع إلى منزله وافته المنية(٢).

* * *

{٤٣٨} محمد إلياس الكاندهلوي

في الليلة التي توفي فيها العالم المحدّث محمد إلياس الكاندهلوي، سأل الحاضرين: هل هذا يوم الخميس؟ قالوا: نعم. قال: انظروا في ملابسي لئلا تكون نجسة، فقالوا: إنها طاهرة. نزل من السرير وتوضأ

---

(١) تاريخ علماء دمشق ٢/٥٧١.

(٢) المصدر السابق ٢/٥٦٨.

وصلى العشاء مع الجماعة داخل الحجرة، وأوصى الناس أن يكثروا الليلة من الدعاء والنفث عليه، وقال: ليكونن اليوم عندي أناس يميزون بين فعل الشيطان وفعل ملائكة الرحمن.

وفي منتصف الليل غشيته إغفاءة من الإغماء.. وظل يردِّد طوال الليل: الله أكبر، الله أكبر.

وفي السَّحَر طلب ابنه محمد يوسف وقال له: تعالى نلتقي يا يوسف، فلا بقاء بعد هذه الليلة، فإني مرتحل.

وانتقل إلى رحمة الله قبل أذان الفجر، ٢١ رجب ١٣٦٣هـ[١].

* * *

{٤٣٩} أمير البيان

الأديب العلامة شكيب أرسلان المتوفى سنة ١٣٦٦هـ كان مجاهداً عالماً مؤمناً، سئل عن مذهبه فقال: نحن مسلمون سنيون ولنا الإمارة على الموحدين الدروز. قال في آخر ما نشر عنه:

يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوروبي إلا سينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه، حتى في علم أو صناعة، أو كسب أو تجارة أو زراعة، أو حرب أو سلم، أو أي منحى من مناحي العمران، وكأنه كُتب في اللوح المحفوظ وجفَّ به القلم ولم يبق أمام المسلمين إلا أن يعلموا كونهم طبقة منحطَّة ويعملوا بمقتضى هذه العقيدة، لقد صدق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٢][٣].

(١) من مقدمة كتاب «الأبواب المنتخبة من مشكاة المصابيح» للمترجم له، بتحقيق محمد إلياس الباره بنكوي.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

(٣) مجلة التقوى ع (١١٧) شعبان ١٤٢٣هـ ص٢٠.

وكان آخر ما أوصى به قبل موته قوله: لا تنسوا فلسطين[1].

* * *

{٤٤٠} لعنة!

إسعاف، أو محمد إسعاف النشاشيبي أديب من فلسطين، توفي سنة ١٣٦٧هـ بالقاهرة. وكان قد حضر إليها ليشرف على طبع كتبه، فمات قبل أن يراها، ولم يعرف مصيرها من بعد. يذكر أكرم زعيتر أن عواده سمعوه يصرخ ليلة وفاته: لعنة الله عليك يا ترومان.

وترومان رئيس أمريكا، وكان له الدور الكبير في إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين المسلمة[2].

* * *

{٤٤١} أجل.. وشعر

عبدالرحيم محمود شاعر من فلسطين. في أثناء معارك ١٩٤٨م أصيب بقذيفة أقعدته جريحاً، وانطلقت به إحدى السيارات مسرعة للوصول إلى مستشفى مدينة الناصرة، ولكنها وقعت في واد سحيق، ولفظ الشاعر أنفاسه الأخيرة وهو يردد:

سأحمل روحي على راحتي   وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسرُّ الصديق   وإما ممات يغيظ العِدا[3]

* * *

(١) عجائب وغرائب الوصايا في التاريخ/ سيد صديق عبدالفتاح ص١١٢.
(٢) موسوعة أعلام فلسطين ٢٧٣/١.
(٣) مجلة الفيصل ع٢٦٠ ص١٠٣.
وهو من شعره، وثالث الأبيات هو:
ونفسُ الشريف لها غايتان   ورودُ المنايا ونيلُ المنى

{٤٤٢} العالم المتواضع

عالم عارف زاهد اسمه عارف بن رشيد الدوه جي، من دمشق. كان متواضعاً جمَّ الأدب، لا يحب الظهور والشهرة، يتحرَّى في عباداته الدقة والورع. له مجلس علمي. في سويعات حياته الأخيرة قام فتوضأ وأسبغ الوضوء، ثم صلى صلاة تامة خاشعة، أعقبها بالدعاء الخافت المنيب، ونهض إلى فراشه فوضع يده تحت خدِّه، ومال على جنبه الأيمن، وأسلم روحه في ٢١ رمضان سنة ١٣٧٠هـ[١].

* * *

{٤٤٣} مات من جنس عمله!

إبراهيم ناجي أديب طبيب من مصر، كانت فيه نزعة روحية صوفية، نشأ في نعمة زالت في أعوامه الأخيرة. عانى مرض الرئة، وتعلق بشابَّةٍ فعانى المرض والحبّ!.

قال صالح جودت: وبينما هو يُدني أذنه من قلب مريض في عيادته يتسمَّع دقاته، إذا به يهوي.

وبهذا انتهت حياته[٢]!.

* * *

{٤٤٤} عبدالقادر عودة

الشهيد عبدالقادر عودة من زعماء الدعوة الإسلامية في مصر، محام، متخصص في الشريعة والقانون. لما أمر الرئيس جمال عبدالناصر بتنظيم

---

(١) تاريخ علماء دمشق ٢/٦٢٦.

(٢) الأعلام ١/٧٦. وكانت وفاته سنة ١٣٧٢هـ.

«محكمة الشعب» كتب الشهيد نقداً لتلك المحكمة، وفي جملة ما ذكر أن رئيسها جمال سالم طلب من بعض المتهمين أن يقرأوا له آيات من القرآن بالمقلوب! واتهم بالمشاركة في حادث إطلاق الرصاص على جمال عبدالناصر سنة ١٣٧٤هـ وأعدم شنقاً مع بضعة متهمين آخرين سنة ١٣٧٤هـ، وله مؤلفات عديدة.

وكانت آخر كلمة قالها قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام وتصعد روحه إلى بارئها: إن دمي سيكون لعنة على رجال الثورة!.

وقد استجاب الله دعاءه.. فكان دمه لعنة عليهم، فلم يفلت أحد من الظالمين من انتقام الله في الدنيا...(١).

***

{٤٤٥} سعيد النورسي

العالم الجليل والمصلح الكبير سعيد النورسي، المتوفى سنة ١٣٧٩هـ رحمه الله، كان مما قاله في درسه الأخير في مرض وفاته:

إخواني! إن مرضي قد اشتد كثيراً. ولعلي أتوفى قريباً، أو أُمنع من المكالمة كلياً - كما كنت أُمنع أحياناً منها - لذا فعلى إخوتي في الآخرة أن يتجاوزوا عن الهجوم على أخطاء بعض المخطئين المساكين، وليعدّوها من قبيل «أهون الشرين». وليقوموا بالعمل الإيجابي دائماً. لأن العمل السلبي ليس من وظيفتنا. ولأن العمل السلبي في الداخل لا يُغتفر. وما دام قسم من السياسيين لا يلحقون الضرر برسائل النور، بل مسامحون قليلاً، لذا انظروا إليهم كـ «أهون الشرين». ومن أجل التخلص من أعظم الشر فلا تمسوهم بضرر بل حاولوا أن تنفعوهم.

إخواني! ربما أموت قريباً، إن لهذا العصر مرضاً داهماً، وهو الأنانية

(١) من أعلام الحركة الإسلامية/ عبدالله العقيل ص٢٥٢، الأعلام ٤٢/٤.

وحبُّ النفس، واشتهاءُ قضاء حياة جميلة في ظل مباهج وزخارف المدنية الجذابة، وأمثالها من الأمراض المزمنة. إن أول درس من دروس رسائل النور الذي تلقيته من القرآن الكريم، هو التخلي عن الأنانية وحبِّ النفس، حتى يتم إنقاذ الإيمان بالتقلد بالإخلاص الحقيقي[1].

* * *

{٤٤٦} الوداع.. مصطفى السباعي

العلامة مصطفى السباعي الذي توفاه الله تعالى في السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى ١٣٨٤هـ كان أحد أعلام الدنيا ذكاء وعلماً، وأحد أبرز دعاة الإسلام في هذا العصر.

في ساعة من ساعات اشتداد الألم، وبعد أن صارحه الأطباء باليأس من شفائه، فاضت نفسه المؤمنة الراضية بهذه الأبيات التي يودِّع فيها أهله وأحباءه وذويه:

أهاجك الوجد أم شاقتك آثارُ ... كانت مغاني نعم الأهل والدارُ
وما لعينك تبكي حرقة وأسىً ... وما لقلبك ما ضجّت به النارُ
على الأحبة تبكي أم على طلل ... لم يبق فيه أحباء وسمّارُ
هيهات يا صاحبي آسى على زمن ... ساد العبيد به واقتيد أحرارُ
أو أذرف الدمع في حب يفارقني ... أو في اللذائذ، والآمال تنهارُ
فما سبتنيَ قبل اليوم غانية ... ولا دعاني إلى الفحشاء فجّارُ
أَمَتُّ في الله نفساً لا تطاوعني ... في المكرمات لها في الشر إصرارُ
وبعت في الله دنيا لا يسود بها ... حق ولا قادها في الحكم أبرارُ
وإنما حَزَني في صبية درجوا ... غُفْل عن الشر لم توقد لهم نارُ

(١) سيرة ذاتية/ سعيد النورسي، ص٤٧٣، ٤٧٤ (بترجمة إحسان قاسم الصالحي).

قد كنت أرجو زماناً أن أقودهمُ ... للمكرمات فلا ظلم ولا عارُ
والآن قد سارعتْ خطوي إلى كفن ... يوماً سيلبسه بَرٌّ وجبارُ
بالله يا صبيتي لا تهلكوا جزعاً ... على أبيكم طريق الموت أقدارُ
تركتم في حمى الرحمن يكلؤكم ... من يهده الله لا توبقْه أوزارُ
وأنتمُ يا أهيل الحي صبيتكم ... أمانة عندكم هل يهمل الجارُ؟
أفدي بنفسيَ أماً لا يفارقها ... هَمٌّ وتنهار حزناً حين أنهارُ
فكيف تسكن بعد اليوم من شجن ... يا لوعة الشكل ما في الدار ديارُ
وزوجة منحتني كل ما ملكت ... من صادق الود تحنان وإيثارُ
عشنا زماناً هنيئاً من تواصلنا ... فكم يؤرق بعد العز إدبارُ
وإخوة جعلوني بعد فقد أبي ... أباً لآمالهم روض وأزهارُ
أستودع الله صحباً كنت أذخرهم ... للنائبات لنا أنس وأسمارُ
الملتقى في جنان الخلد إن قبلت ... منا صلاة وطاعات وأذكارُ(١)

* * *

{٤٤٧} عباس محمود العقاد

الأديب والمفكر المعروف عباس محمود العقاد، المتوفى سنة ١٣٨٤هـ، أوصى أن تنقش على قبره هذه الأبيات، وهي من نظمه:

إذا شيَّعوني يوم أقضي منيَّتي ... وقالوا أراح الله ذاك المعذَّبا
فلا تحملوني صامتين إلى الثرى ... فإني أخاف اللحدَ أن يتهيَّبا
وغنُّوا لي فالموتُ كأسٌ شهيَّةٌ ... وما زال يحلو أن يُغنَّى ويشربا
وما المهدُ إلا اللحدُ لحدُ بني الورى ... فلا تحزنوا فيه الوليدَ المغيَّبا(٢)

* * *

(١) مجلة الأسرة (ربيع الآخر ١٤١٨هـ) ص٢٧.
(٢) عجائب وغرائب الوصايا ص١١٢.

{٤٤٨} سيد قطب

وكان آخر ما خطه الشهيد سيد قطب رحمه الله قبل إعدامه:

«إن الإسلام لا يقوم ولا يوجد في بلد ليس فيه حركة تربية، ثم قيام نظام إسلامي يحكم بشريعة الله في النهاية. هذه في النهاية كلمات رجل يستقبل وجه الله، يخلص بها ضميره، ويبلغ بها دعوته إلى آخر لحظة. والسلام على من اتبع الهوى.

السجن الحربي في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٦٥. سيد قطب»(١).

* * *

{٤٤٩} مصطفى الشهابي

الأمير مصطفى بن محمد الشهابي من أمراء الأسرة الشهابية بلبنان، وزير، ورئيس لمجمع اللغة العربية بدمشق، صاحب «المعجم الزراعي الكبير». وفاته سنة ١٣٨٨هـ. أوصى بأن يُنقشَ على ضريحه بيت من تأليفه، هو:

أمَّ اللغات، قضيتُ العمرَ أخدمها   فهي الشفيعةُ في غفرانِ زلاّتي(٢)

* * *

{٤٥٠} داعية شهيد

مروان حديد أحد الدعاة المشهورين من سورية، استشهد تحت التعذيب يوم ٢٢ رجب ١٣٩٦هـ.

---

(١) لماذا أعدموني/ سيد قطب. ـ ط٤. ـ جدة: الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، د.ت. ص٩٨.

(٢) مجلة الضاد (نيسان ٢٠٠٣م) ص١٨.

وجدت وصيته على قطعة صابون حفرها بظفره داخل السجن، جاء فيها: أوصي أهلي بتقوى الله تعالى والتمسك بالإسلام، أو تحملها عني [هكذا] قبل أن أوضع في قبري. أوصي إخواني بالوفاء بعهد الله تعالى، وأوصيهم بمعاملة الخصوم كما أمرهم الله، وأرجو من الجميع الدعاء بالمغفرة والرحمة.

كم مات قبلي من أمم ... منها الرسول المحترم

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]. أسوتكم رسول الله، جاهدَ في سبيل الله، فتأسّوا برسولكم. غداً نلقى الأحبّة، محمداً وصحبه. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2]. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. مروان[3].

* * *

{٤٥١} مستشرق

المستشرق الألماني أروين جراف متخصص في الفقه الإسلامي. شغل كثيراً بمشكلة «الموت» في الإسلام. ألقى محاضرة في جامعة توبنجن بعنوان: «تصورات الموت في إطار الأنثروبولوجيا الإسلامية» وعلى إثرها توفي في ٣ شباط (فبراير) ١٩٧٦م (١٣٩٦هـ)[4].

* * *

{٤٥٢} لقد كنت في غفلة من هذا

حكى شيخ كبير من باكستان حكاية لزميله الشاعر فقال: كان لي

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٣) دعاة لا بغاة/ علي جريشة. ـ الكويت: دار البحوث العلمية، ١٣٩٩هـ، ص٦٥.
(٤) طبقات المستشرقين/ عبدالحميد حمدان، ص١١٤.

صديق، ما رأيته قط صلى صلاة أو عمل عملاً صالحاً، وأحياناً يعترف أمامي بهذا الكسل والغفلة والبعد عن الأعمال الصالحة. فلما حضره الموت أنشد بيتين، فقال في البيت الأول، وقد تعرّق جبينه من شدّة السكرات، ويخاطب أهله باللغة الأردية، وترجمته:

عرق الموت قد طلع على الجبين وناصيتي، فأحضروا لي المرآة يا أهل بيتي، كي أنظر إلى صورة الحياة الأخيرة بعيني.

ولمّا رأى ما رأى أمام عينيه وتذكر حوادث الحياة، تأوّه وأنشد ما ترجمته:

آه، ويا أسفي على حياتي، والله ما سجّلتُ في صحيفةِ أعمالي شيئاً من الأعمال الصالحة في حياتي هذه، فالآن والله انتبهت من النوم والغفلة، وقد فتحت عين قلبي إذ تفارق الروح الجسد...

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

* * *

{٤٥٣} شباب.. وحوادث سيارات

شاب في مقتبل عمره وريعان شبابه، كان معرضاً عن الله، غافلاً عن خالقه ومولاه، وقع له حادث سيارة، وكان مضرجاً بدمائه في حالة سيئة يرثى لها، فاقترب منه أحد الناس فوجده في حالة النزع يعاني من سكرات الموت، فأراد أن يذكره بالشهادة فلعله أن يختم له بخاتمة السعادة كما ندب إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله: **«لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله»**[2] وقوله ﷺ: **«من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة»**[3]. فقال الرجل:

(١) رسالة من المدينة المنورة إلى بنت الخليج ص٣٧ ـ ٣٨، والآية في سورة ق: ٢٢.

(٢) رواه مسلم وغيره. صحيح الجامع الصغير (٥١٤٨).

(٣) حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود والحاكم. المصدر السابق (٦٤٧٩).

قل لا إله إلا الله. فرفع ذلك الشاب المصاب رأسه وكان دمه يثعب وقال بلهجة عامية: [ما صليت ولا باصلي... روح يلعن...]!!! ثم قضى نحبه وهلك.

وذاك شاب آخر حصل له حادث، فجاء أحد المسلمين فوجده يعاني من شدة الموت والنزع، وأحسَّ به وكأنه يتمزق من شدة الألم وعذاب الندم، وذكَّره بالشهادة، فأجابه بعد إلحاح: أنا في سَقَر... أنا في سَقَر... ومات عليها.

فسأل الرجل عن أهل الميت حتى دُلَّ عليهم فسألهم عن خبره فقالوا: إنه كان لا يصلي، وصدق الله حين أخبر عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾[(١)][(٢)].

***

{٤٥٤} فاضل حنبلي

الشيخ إبراهيم بن محمد السبعي من إحدى قرى منطقة جازان بالسعودية، كان عالماً تقياً زاهداً ورعاً، نُصب قاضياً على جهة الاحتساب، كان من شدة حرصه على أكل الحلال إذا نزلت دابته في زرع الجيران لا يشرب لبنها مدة ثلاثة أيام.

عاد من الحجّ مرة واشتدَّ به المرض، حتى كان يفقد وعيه أحياناً، وهو مع ذلك إذا حان وقت الصلاة لم يشعر أصحابه إلا وهو يصلي بينهم!.

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٢ ـ ٤٣.
(٢) انتبه قبل الرحيل والوداع/ فايز بن سالم السهلي. ـ جدة: دار المحمدي، ١٤١٨هـ، ص١٣ ـ ١٤.

سأله أحد الحاضرين وهو في سكرات الموت: أين نحن اليوم يا شيخ إبراهيم؟.

فقال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝﴾[1]. ثم توفي رحمه الله[2].

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥.

(٢) فرجة النظر في تراجم رجال من بعد القرن الثالث عشر بمنطقة جيزان/ أحمد بن محمد المعافا ٥٧/١. والمترجم له من رجال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري.

القرن الخامس عشر

{٤٥٥} وأخيراً.. مات

أديب وشاعر من تونس اسمه محمد الحفناوي الصديق، واكب جهاد الشيخ عبدالعزيز الثعالبي وتعاقبت عليه المحاكمات والاعتقالات وسجن بتونس والجزائر، توفي بمسقط رأسه توزر عام ١٤٠٠هـ وأوصى بأن يحفر على قبره هذه الأبيات من ديوانه:

رمسي يذكُر بعد موتي أمةً ... تبني العهود وتكرم الأبطالا
فاحفظ مقالي فهو سِفْرٌ خالدٌ ... يهدي الجموع وينشرُ الأجيالا[1]

* * *

{٤٥٦} وصية صحفي ساخر

محمد حسين العفيفي كاتب صحفي ساخر، من أدباء الفكاهة بمصر. ترك وراءه كمًّا هائلاً من النكت والأقوال في كتابه «معركة السخرية». مات سنة ١٤٠٢هـ.

كتب وصيته فجر رحيله بجريدة الأخبار، يقول: عزيزي القارىء،

(١) تتمة الأعلام ١٤٧/٢ (ط٢).

يؤسفني أن أخطر لك بشيء قد يحزنك بعض الشيء، وذلك بأنني قد توفيت، وأنا لا أكتب لك هذه الكلمة بعد الوفاة ـ دي صعبة شوية ـ وإنما أكتبها قبل ذلك، وأوصيت بأن تنشر بعد وفاتي[1].

* * *

{٤٥٧} أستودعكم الله

حزام بن علي البهلول داعية وقارىء ومجاهد من اليمن، درس في مكة المكرمة، وتخرَّج في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عاد إلى صنعاء ليعيَّن مديراً لمدرسة تحفيظ القرآن الكريم، بالإضافة إلى إمامته وخطابته بجامع الدعوة. خاض معارك عديدة ضد قوى الشر والإلحاد والشيوعية، وبينما كان عائداً من إحدى العمليات الجهادية (معركة شمير) أصابته رصاصة استقرَّت في قلبه الطيب بذكر الله، وكان آخر ما نطق به لسانه مخاطباً إخوانه:

أستودعكم الله.. أستودعكم الله..

ولم يكمل العبارة الثالثة حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها (١٤٠٢هـ)[2].

* * *

{٤٥٨} حديث بين الوالد وولده

في حديث بين الوالد وولده، تحدث العالم المغربي عبدالله بن العباس الجراري لولده «عباس» عن الموت قبل يوم أو يومين من وفاته (١٤٠٣هـ).

(١) المصدر السابق ٨٨/٣.

(٢) المجتمع ع٥٦٣ (٢٧/٥/١٤٠٢هـ)، تتمة الأعلام ١٢٧/١.

فبحث في أوراق كانت أمامه، وأخرج بطاقة سجل فيها اسم صاحب أبيات مشهورة، هو أبو الحسن علي الصنهاجي، المعروف بالدوار، وهي:

الـمـوت أفـنـىٰ مـن مـضـىٰ ... والـمـوتُ يُـفـنـي مـن بـقـي
والـمـوتُ يـجـمـع فـي الـثـرى ... بـيـن الـمـنـعَّـم والـشـقـي
يـا مـن أسـا فـيـمـا مـضـى ... كـن مـحـسـنـاً فـيـمـا بـقـي

قال: وقد أسلمه موضوع هذه الأبيات إلى إنشاد العديد من الأشعار والأقوال المتعلقة بالموت، سجلتها كلها تحت تأثير إحساس غامض انتابني، على الرغم من أني كنت أحفظ معظمها. منها ما قيل في المؤرخ ابن يونس المصري:

مـازلـت تـلـهـج بـالـتـاريـخ تـذكـره ... حتَّى رأينـاك فـي الـتـاريـخ مـكـتـوبـا

ومنها ما قاله البخاري حين بلغه نعي الدارمي:

إن تـبـق تـفـجـع بـالأحـبـة كـلـهـم ... وفـنـاء نـفـسـك لا أبـا لـك أفـجـع

ومنها:

الـمـوت لا يـبـقـي أحـد ... لا والـداً ولا ولـد
مـات لـبـيـد ولـبـد ... وبـقـي الـفـرد الـصـمـد

ومنها:

وبينا الفتَى يبكي ويندب شجوه ... ومـألـوفـه إذ صـار يُـبـكـى ويُـنـدب

وهذا البيت:

نـمـوت ونـحـيـا كـل يـوم ولـيـلـة ... ولا بـد يـومـاً أن نـمـوت ولا نـحـيـا

والبيت الآخر:

يـا مـوت زر إن الـحـيـاة ذمـيـمـة ... يـا نـفـس جـدي إن دهـرك هـازل

ومما أنشده كذلك قول الواعظ:

يـاذا الـذي ولـدتـك أمـك بـاكـيـا ... والـنـاس حـولـك يـضـحـكـون سـرورا
احـرص عـلـى عـمـل تـكـون بـه مـتَى ... يـبـكـون حـولـك ضـاحـكـاً مـسـرورا

وقول الآخر:

إذا عـلـم الإنـسـان أخـبـار مـن مـضَـى ... تـوهـمـتـه قـد عـاش فـي أول الـدهـر
وتـحـسـبـه قـد عـاش آخـر عـمـره ... إذا هـو قـد أبقَى الجميل من الذكر
فقد عاش كل الدهر من كان عالماً ... كريماً حليماً فاغتنم أطول العمر

وزاد على هذه الأبيات قول سقراط: «استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه».

وقول أحدهم وقد سمع صراخاً على ميت: «عجباً لقوم مسافرين يبكون مسافراً بلغ منزله».

ثم أشار إلى مجموعة من الكتب الجديدة كانت تملأ المائدة أمامه، بعضها اقتناه في الأيام الأخيرة وبعضها أهدي إليه، وقال في تأسف واستسلام: «إن أشياء كثيرة فاتتنا وتفوتنا في الثقافة ولا مجال للحصر والإحاطة»[1].

* * *

{٤٥٩} ممَّ تخوفونني؟

سمعت أن واحداً من بلدتنا كان يذكَّر عند احتضاره بالتوبة ويُبَشَّر بسعة رحمة الله وألاّ يخاف.. فكان يقول: وممَّ تخوفونني، هل تظنون أنني ذاهب إلى الرئيس الفلاني والرئيس الفلاني؟ وذكر اسمي رئيسين عُرفا بظلمهما وسطوتهما، ثم هلك أحدهما، والآخر في الطريق، وكان معاصراً

(١) من كتاب: العالم المجاهد عبدالله بن العباس الجراري/ بقلم ابنه عباس الجراري، ص١٤٠ ـ ١٤٢.

لهما. ولم تكن تعرف له عبادة ولا فضل في دينه. وكانت وفاته في أوائل هذا القرن الهجري. رحمه الله.

* * *

{٤٦٠} مطلق الذيابي

أحد أبرز الإعلاميين في بلده السعودية، تاب إلى الله تعالى ونظم قصائد رائعة جُمعت بعد وفاته في ديوان «اللجوء الأكرم إلى الإله الأعظم»، وكان قد مرض، فكتب خاطرة وهو في مرضه الأخير، جاء في بعض فقراتها:

«مرض الإنسان في هذه الحياة بشير خير، أو نذير بالرحيل.. هو بشير خير لأنه يوقظنا من غفلة عن الآتي من الأقدار، ويذكرنا بالمصير، ويشعرنا كذلك بأن العافية، وليس غيرها، هي أثمن ما منح الله في الوجود، لا تعدلها كنوز الأرض جميعاً، ولا أرفع المقامات، وأسمى الجاهات.. وقدر المرض ينذرنا بما هو حق مكتوب على العباد، فيجعلنا نتجه إلى الله بالرجاء في العفو، والزلفى إليه بحسن المآب.

ولكننا ننسى ونمعن في الحياة أخذاً وإيغالاً في الأماني واجتهاداً في التحصيل، لأن الحرص مركب في طباعنا، ومغروس في أعماقنا، وساعة ينذر النذير في أعماق النفس ويوحي بساعة الرحيل عن انتهاء الأجل، يحس الكائن البشرى عندئذ بعدم جدوى هذه الدنيا إذا ما كانت النفس جادة في طلابها.. ويلوح السراب الذي لا يجد عنده الظامىء قطرة من الري، وحينئذٍ يؤمن ببطلان ما هو فيه من آمال قد ازدهرت في خياله، وتكون الصحوة المفجعة على خسران الحياة ومضنية حتى الرمق الأخير.. وعندئذٍ يذهب ذهاب الخاسرين الذين لهوا عن زراعة الخير في تربة الحياة الصالحة..

ولكن الإيمان بالله تعالى سلاح ماضٍ في مواجهة الكروب، يحفظ النفس من زلزلة اللحظة القاتمة التي تغشاه فيها قارعة المنية، لأن المنية في نظره تشكل بدء رحلة الروح إلى عالم رحب ليس له حدود.. وتنقله من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.. وهو بالإيمان وما يفرض هذا الإيمان من عمل صالح ينتقل إلى عالم الخلود الذي لا يفلح فيه إلا من سار على طريق الهدى والرشاد..

هذه خاطرة أوحت بها لحظة من لحظات المرض الذي زارني منذ أيام، ولا أعتقد أنني جزعت لهذا الوافد الكريم، لأنه من أقدار الله تعالى، وهو ضيف إنذار وإشعار واختيار لما يتبقى من أجل إذا ما كان في الأجل بقية.

فالعبرة التي استقطرتها من هذه اللحظات التي كانت تعصف بقلبي جعلتني أوقن بأن الحياة التي نحياها هي الهدية المثلى والفرصة الفضلى لموالاة كل عمل صالح مقترن بالإِيمان الكامل الذي لا يتزعزع.. وخاسر جد خاسر من تشغله توافه الحياة ومظاهرها عن آخرته، وتحجب عنه نور اليقين ببريقها الخلب الذي يسدل في النهاية حجب الظلام أمام البصائر التي لم تتزود بزاد اليقين، ليبقى نور الحق موصولاً لبلوغ النفس مأمنها يوم الروع الأكبر، يوم لا سكينة إلا لمن سعى إلى بلوغها بقلب سليم.

ولذلك عندما مر عليه الطبيب المعالج وهو يرقد على فراشه يصارع مرض القلب بالقلب، وطلب منه أن يكف عن التفكير، كان رده عليه رحمه الله: ما دام هذا القلب ينبض فسوف أفكر، فإذا توقف، أعدك بأني لن أفكر بعد ذلك..

وعندما توقف قلبه فعلاً رحمه الله تذكر الشاعر محمود عارف إيمان الرجل وصفاء قلبه، وبيانه وإحسانه، فنظم تلك الأبيات في ختام رائعته في وداع شاعر «الأطياف»:

رحم الله منك قلباً عطوفاً سكن القبر ما علا استكبارا

مؤمن قد رجعت للأرض تبغي عفو رب لتمحو الأوزارا
سوف تلقى الجزاء رفرف خلد فيه تلتقي الرحيم الغفّارا[1]

* * *

{٤٦١} الشيخ الأبيض

شيخ فاضل كان يلقب بالشيخ الأبيض الشافعي، اسمه محيي الدين خالد أبو يحيى، توفي سنة ١٤٠٤هـ، أقام في جامع الشلاح بالزبداني (دمشق) خطيباً فيه وإماماً، وبقي فيه إلى آخر حياته، تاركاً هموم الدنيا زاهداً فيها. وكان يقول: إذا رأيتم عندي شيئاً من المال فأنفقوه قبل دفني[2].

* * *

{٤٦٢} جعفر الخليلي

جعفر بن أسد الخليلي كاتب شيعي موسوعي، وأديب صحفي ناشر، كتب في فنون عديدة، منها كتابه «موسوعة العتبات المقدسة» (١٣ مج)، كما عُرف بسلسلة كتبه «هكذا عرفتهم». وكان يكتب بصفة مستمرة في الدوريات. مات سنة ١٤٠٥هـ.

أوصى بأن توضع على قبره لوحة نصها «هنا يرقد جعفر الخليلي الذي لا يعرف لمَ جاء إلى هذه الدنيا ولمَ غادرها».

ولما توفي في دبي فجأة أثناء زيارته لكريمته هناك، أعدت الأسرة اللوحة الموصى بها، ولكن السلطات هناك منعت وضعها على المقبرة[3].

* * *

(١) من مقدمة كتاب: ذخائر الذيابي في الفكر الإسلامي والثقافة والأدب/ تحقيق وتقديم منصور بن سلطان، جـ١ ص٨ ـ ٩. ووفاته سنة ١٤٠٣هـ رحمه الله.

(٢) تتمة الأعلام ٢/٢٥٣ (ط٢).

(٣) مجلة الضاد (نيسان ٢٠٠٣م) ص١٩.

{٤٦٣} رجاء..

عالم أزهري جليل اسمه «محمد خليل الخطيب» درّس بكلية الدعوة الإسلامية في طنطا، وصنّف أكثر من (٦٠) كتاباً إسلامياً وأدبياً، وله نظم رائق. قال راجياً حسن المنتهى:

وما بلغوا الذي بلغوه إلا ... بطاعة أحمد الزاكي السجايا
فَصَلِّ مسلماً - ربي - عليه ... وبارك في الغدايا والعشايا
كذلك آلِهِ وصحابِ صدقٍ ... وأتباعٍ له حَسُنُوا طوايا
وفي مرضاته بذلوا نفيساً ... وأنفاساً، وأنفُسَهم ضحايا
وصِلْ حبلَ الخطيبِ به ليهدىٰ ... ويهدي واستجبْ ربي دعايا
وبلِّغني وأحبابي المرجّى ... وأعدائي وحَسِّنْ منتهايا[1]

* * *

{٤٦٤} مخرج سينمائي

خبير في مجال السينما اسمه «محمد عثمان»، مات عام ١٤٠٧هـ بعد (٣٠) عاماً من العمل كسينارست ومخرج، قدم خلالها أكثر من (٨٠) فيلماً.

وقبل رحيله بأيام سئل عن أمانيه فقال: أتمنى أن يقلع كتّاب السينما عن ركوب موجات الجنس والعنف والمخدّرات والشذوذ، لأن مجتمعنا ليس بهذا الشكل، وما تتناوله السينما مجرّد شواذ المجتمع فقط[2].

* * *

(١) ص٩١١ من مجلة الأزهر (فاتني توثيقها). ووفاته سنة ١٤٠٦هـ.

(٢) مجلة المصور ع٣٢٦٣ (١٤٠٧/٨/٢٦هـ).

{٤٦٥} شاعر غنائي

شاعر غنائي من مكة المكرمة اسمه طاهر زمخشري، مات سنة ١٤٠٧هـ عمل في الصحافة فترة طويلة، وأصدر أكثر من ١٧ ديواناً شعرياً، عشق الفن منذ بداية حياته، واكتشف العديد من الفنانين، وله عدد كبير من الأغنيات يغنيها فنانون عرب.

كان آخر كلماته على فراش الموت: سأبقى أغني وأغني!.

وكان يعول أيتاماً، ولم يعرف ذلك عنه إلا بعد وفاته[١]!.

* * *

{٤٦٦} الحبال الصوتية!

شيخ القراء المقرىء الجليل عامر السيد عثمان (ت١٤٠٨هـ) فقد حباله الصوتية في السنوات السبع الأخيرة من حياته، وكان يدرِّس تلاميذه القراء فلا يفصح لهم إلا بشهيق وإيماء. ثم مرض مرض الوفاة، وكان طريح السرير الأبيض بالمستشفى، ففوجىء أهل المستشفى بالرجل المريض، فاقد الحبال الصوتية، يقعد ويدندن بكلام الله بصوت جهوري جذاب مدة ثلاثة أيام، ختم فيهن القرآن من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ثم أسلم الروح إلى بارئها[٢]!.

* * *

{٤٦٧} مترجمة

ومترجمة من الموصل اسمها «أزهار عبدالغني الملاح» (ت١٤٠٩هـ)،

(١) تتمة الأعلام ٢٥٥/١.

(٢) قيد الصيد/ محمد بن عبدالله العوشن. ـ الرياض: المؤلف، ١٤١٩هـ، ص٣٦.

ترجمت لحساب المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت حوالي عشر روايات، وكان آخر عمل لها ترجمة رواية «أيما» وكان آخر كلمة قالتها وهي تحتضر بين يدي والدها: لا تنس يا أبي نشر رواية «أيما»[1].

***

{٤٦٨} المهندس الشهيد

أبو عبدالحق تخصَّص في الهندسة الكهربائية والإلكترونية في أمريكا، انطلق إلى أرض الجهاد بأفغانستان، فكان يقوم بواجبه، ويتشوَّق إلى الشهادة كثيراً. ثم إنه مرض، وفي هذا المرض رأى أبو عبدالحق رسول الله ﷺ وناولَه ورقةً وإذا بها (الشهادة مع اسمه الصريح) فنادى صاحبه، وكان إلى جواره معظم أيام مرضه، وقال: «اكتب وصيتي، جاءت الشهادة يا أخي». فبدأ صاحبه يحاوره إبعاداً لهواجس الموت وشبحه عن ناظريه وفكره. فقال: أين الشهادة؟ الشهادة في المعركة وأنت في المستشفى، قال المهندس: «أنا هنا مرابط رغم أنفي مع أنَّ قلبي معلق في المعركة، ألَمْ تسمع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ [الحج: ٥٨، ٥٩].

وأذعن صاحبه لطلب أبي عبدالحق، وسطَّر الوصيّة ومما جاء فيها «..وقد نذرتُ روحِي ومعرفتي وجسمِي لله حتّى كلّفني ذلك ترك فلذة كبدي وزوجتي الودودَ لمدة سنة كاملة كانت سنة تمحيص.. بعدها أُمرت بالرّباط الطويل في نفس المكان، كنّا نعمل ليل نهار، فكنت أركب وأجمع وأدرس وأتعلم، ولا أُعطي لأهلي إلا القليلَ من وقتي، ذلك لقلّة المهندسين المسلمين في أفغانستان، ولم يمنعني هذا أن أجدَ لذّة إنفاق بدني في سبيل الله، وكانت الأخبارُ تمسح عنّا التعب إذا هبّت ريح مسكٍ لشهيدٍ

(١) موسوعة أعلام العراق ٢/٢٢.

قرآنيّ فكانوا غذاءنا وشرابنا وعطرنا، وكلنا يلهج إلى الله ليأخذَهُ معهم.. وإذا توفيتُ أخبروا الشيخ عبدالله عزام ليخبر زوجتي. واختتم الوصية بالآية: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

وفاضت الروح إلى بارئها[1].

* * *

{٤٦٩} الإسلام يحمينا

وشيخي علوان حقي رحمه الله، الذي ترجمتُ له في «تتمة الأعلام» وقد توفي سنة ١٤١٢هـ، كان آخر ما حدَّث به قبيل وفاته بأيام قليلة بعد أن كان قد سمع حواراً من إحدى الإذاعات بين مذيعة وطبيب متخصص بالإيدز حين سألته المذيعة: كم هو عدد المصابين بهذا المرض في أوروبا؟ فأجابها: عدد المصابين غير معروف بالضبط لكنه مخيف، إذ يتجاوز مئات الألوف، وهو في ارتفاع، وفي بلاد الشرق الأوسط لا يتجاوز المئات.

فلما استفسرت منه عن سبب هذا التفاوت بين النسبتين أجابها: ذلك يعود في نظري إلى ثلاثة عوامل: **الأول**: أن القوم يختتنون، **والثاني**: أنهم يتنظفون ولاسيما من الجنابة، **والثالث**: وهو الأهم أنّ الواحد منهم يقتصر على زوجته، ولأن لديهم أخلاقاً تمنعهم من الانحرافات والوقوع في الرذائل اهـ. والصحيح أن الإسلام هو العامل الأول والأخير لا الأخلاق المجردة من الدين.

ثم يعقب الشيخ على ذلك ويقول: الإسلام يحمينا ولسنا نحن الذين نحميه، ثم ينفجر باكياً، وتنهمر الدموع من عينيه غزيرة.

وقد وُجدت وريقةٌ بخطه تحت وسادته بعد وفاته كُتب فيها: «اللّهم امننْ علينا بصفاء المعرفة، وهبْ لنا تصحيح المعاملة فيما بيننا وبينك على

---

(١) من قصص الشهداء العرب في أفغانستان/ جمع عادل بن علي الشدي ١/١٠٨ ـ ١٠٩، نقلاً من مجلة الجهاد ع٦٣ (جمادى الآخرة ١٤١٠هـ).

السُّنة، وارزقنا صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك، وامنن علينا بكلِّ ما يقرِّبنا إليك، مقروناً بعوافي الدارين، برحمتك يا أرحم الراحمين[1].

* * *

{٤٧٠} رحلت...

عالم صوفي قدير اسمه محمد كامل بدر الدين الحسيني (ت١٤١٢هـ) من حلب، درَّس العلوم الشرعية، وعمل إماماً وخطيباً في مسجد الشيخ الولي (عقيل المنبجي). له نظم جيد، من ذلك أبيات أعدَّها لتكتب على ضريحه، وهي:

رحلتُ عن الدنيا وما لي بضاعةٌ ... سوى عشق طه وانتسابي لعترته
وجئتك يا مولاي مستشفعاً به ... لغفران أوزاري وحشري بزمرته
فأسعد رجائي وارضَ عني ورضِّني ... ببشرى فأغدو كاملاً بشفاعته[2]

* * *

{٤٧١} وصية أم لأولادها

«عائشة» أم من باكستان.. توفيت في مكة المكرمة سنة ١٤١٢هـ، ودفنت في مقبرة المعلاة بالقرب من قبر والدتها، وذلك بعد ستة أشهر من مرضها بالكلى.. وطلب ابنها «محمد إسحاق» أن توصيهم.. فقالت بصوت رفيع، وقد ساءت حالتها..

أوصيكم بقول لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ، وفهمها، والعمل بمقتضاها، فهي أكبر ملك وثروة في الدنيا والآخرة، أدُّوا حقَّها، واقدروها

(١) تتمة الأعلام/ محمد خير يوسف ٢/٥٣ (ط٢).
(٢) معجم الأدباء الإسلاميين ٢/٩٨٢.

حقَّ قدرها ما دمتم أحياء، احيوا عليها وموتوا عليها، واختاروا الأولياء والأصدقاء الصالحين من المصلّين فإنهم يساعدونكم في الحسنات[1].

* * *

{٤٧٢} على لسان محتضر

قال الشاعر محمد عبدالرحمن صان الدين على لسان محتضر:

نظرت إلى دنياي نظرة عاشق ... أهيم بها وجداً، وينبض خافقي[2]
فلست أراها غير حسنٍ، ورونَقٍ ... ونبعِ صفاء بالمسرة دافقِ
ومرتعِ مجْدُودٍ، يدير بكفه ... مقاليدَ عيش قد خلا من بوائق[3]
وغايةَ آمال، ومُنْيَةِ طامح ... كأني ضمنت الخلد، غير مفارق
ومرت (سنين) العمر، والقلب غافل ... أغضُّ جفوني عن بَهِيرِ الحقائق
على الأرض أغدوُ كيف شئت مُجنّحا ... وليس أمامي فوقها من عوائق
ولما انقضى عمري، ولاحت منِيَّتي ... تُتَابِعُ أنفاسي، بأعين وامِقِ[4]
وأيقنت أني - لا محالة - راحل ... إلى حيث تلقاني جميع سوابقي
تَلَفتُّ من حولي أروم عشيرتي ... وصفوة أخداني، وظل منافق[5]
فلم أُلفِ من هذا وذلك دانيا ... يكون لَدَى حين الوداع مرافقي
وحدَّقْت في حِرزي، لأصحب ما به ... فلم أحظَ مِمّا قد حَوَيْتُ بِدَانِق[6]
فصدتْ عن الدنيا جميع جوارحي ... وودعت ما فيها بوجدان حانق[7]

---

(١) رسالة من المدينة المنورة إلى بنت الخليج/ أبو طلحة يوسف بن عبدالستار (وهو ابنها). - المدينة: المؤلف، ١٤١٥هـ، ص١٩٤.
(٢) خافقي: قلبي.
(٣) مجدود: محظوظ، البوائق: الدواهي.
(٤) وامق: محب.
(٥) أروم: أريد، أخداني: أصدقائي.
(٦) دانق: ربع درهم.
(٧) حانق: غاضب.

وهـا أنـذا أمـضـي وحـيـداً مـجـرداً بعقلٍ شريد، في الهواجس غارق
وحسٌ كضوء الشمس طَيِّ سحابة وطرفٍ كليل بالمُحَجَّب عالق
ولَمَّا وَنَى نبضي، وأصبح هيكلي بغير لسان، بالمشاهد ناطق
تكشَّفَ لي ما كان عنِّي محجباً وقد صار مني دانياً كلُّ شاهق
وطَوَّفْتُ في طول الوجود وعرضه فلم أرَ شيئاً غير أنوار خالقي(١)

***

{٤٧٣} زعيم معذّب

أحمد مفتي زاده زعيم إسلامي وعالم وداعية سنِّي من إيران، كان متبحراً في العلوم الشرعية، ووالده من أكابر علماء كردستان إيران، اشتهر أحمد بمنحاه السلفي، سجن وتعرّض لأقصى أنواع التعذيب النفسي والبدني، ما كان يقدر أن يحرّك يديه ليتيمّم للصلاة! أفرجت عنه «الحكومة الإسلامية» بعد عشر سنوات، وكان قد اشتدَّ عليه المرض، وأصيب بالعمى، حتى توفاه الله عام ١٤١٣هـ.

وكانت آخر وصاياه: أوصيكم ألا تخافوا إلا الله(٢).

***

{٤٧٤} الأديب المكي

الكاتب والأديب المكي حسين سرحان، المتوفى سنة ١٤١٣هـ، كان آخر مقالة نشرت له بعنوان «ريش متناثر من جناح طائر»، نشرت في (٥) ذي القعدة، أي قبل وفاته بيوم، وفيها ما يشبه رثاء النفس، حيث يقول فيها شعراً:

(١) مجلة الأزهر (صفر ١٤١٢هـ) ص١٨٥.

(٢) تتمة الأعلام ٦٤/١.

متى يخلو المكان من المكين ويـنـداحُ التـرابُ ويحتويني
وألجأ يومذاك إلى إلهِ كريمِ العفو في البلدِ الأمينِ

ويتساءل: هل يكون الختام مسكاً[1]؟.

***

{٤٧٥} توبةُ مُهَرِّبٍ... ولكنْ

هذه قصة لأَحد الخمسة الذين تَمَّ إعدامُهمْ في منطقة تبوك عام ١٤١٣هـ، حيث قبض عليهم بجريمة «تهريب المخدرات».

وهذه القصيدة قالها أحدُهم تأسُّفاً وندامةً وحَسرةً على ما حصل منه، ونصيحة لأصحاب العقول، يصف لهم قصَّتَهُ وأسبابَها ونهايتَها، وخوفه على والِدَتِهِ عندما يَصِلُها الخبر، كما يخشى على والِده من العار الذي سيُصيبُه بسببه، ويصِفُ نهايةَ هذه الحياة، ويَطلب من الناس أن يُسامحوه، وكيف أنه خائف من السَّياف وسيفه المخيف!.

سمعت قصَّةْ واحدٍ بالسّجُونيْ يقول: ذَبْحَ السيفْ يا ناس هايْبَهْ
يقول: أَفْضَلْ بالرّصاص اْقتلُونيْ العين مَلْفُوفٍ عليها عصايْبَهْ[2]
لعلّ بَعْضِ الناس ما يعرفُونيْ ودّيْ لَو التَّنْفِيذْ والشمس غايْبَهْ
أنتمْ عَرَفتمْ قصتيْ، وارحمونيْ أَخْشىْ آنْ تلحقْ على أَبُويْ عايبَهْ
لو يعرف آنّيْ مْرَوِّجٍ لِلفيُوني ولو يدريْ أَنيْ في المسلمينْ جايبَهْ[3]
ومدمنْ حشيشٍ مثقلٍ بالدّيُوني يذعيْ عليّ، ودَعْوة العود صايبَهْ[4]

---

(١) آثار حسين سرحان النثرية/ عبدالله الحيدري (رسالة دكتوراه من جامعة الملك سعود) ٧٤/١.

(٢) عصايبة: جمع عصابة.

(٣) للفيوني: للأفيون.

(٤) العود: الرجل العجوز.

ولا تخْبُرون اللّيْ بطَبْعَهْ حَنُونيْ: الوالدَهْ؛ تكثرْ عليها مصايبَهْ
أخاف لا درَيَتْ يصِيْبَهْ جنُونيْ وتصبخ عليلة عالْها على شايبَهْ
منْ ضاعِ عقْدَهْ: ما تفيد العُيونيْ والعقل منْ مدّ الكريم ووهايبَهْ
واللّيْ جرحْ قلبيْ وزوّدْ طعُونيْ روحيْ عليه من العام ذايبَهْ
وجماعتيْ منْ سجنتيْ قاطعونيْ وكيف الفتىٰ ينسىٰ من أقربْ قرايبَهْ؟
كلّهْ سبايبْ شِلّةٍ دَهورُونيْ وصار الثمنْ راسيْ وفوقهْ نصايبَهْ
حَسْبِيْ عليهمْ شلّةٍ ضَيّعونيْ الموت حان، وقَرّبوا ليْ ركايبَهْ
ومْشيت فيْ دَرْبِ الشّرابِ مغْبُونيْ وعقول البهايمْ بين الأكواخ سايبَهْ
الله يرميهم مثل ما [هُمْ] رمونيْ موت المهونَهْ شلّتيْ هُمْ جلايبَهْ[1]
ما طعت يوم الطّيّبين أنصحونيْ ولا ينْصَح الإنسانْ إلاّ حَبَايبَهْ
يا اللّهْ، وأمرك بين «كافِ ونُوني» خَلقتنيْ ما بين صُلْب وْتَرايبَهْ
عوّضْ عَلَيّ دِنيايْ، واحسنْ ظنونيْ واغفرْ لمنْ نَفْسهْ عن الشينْ تايبَهْ[2]
يااللّيْ حَضَرْتُمْ مقتليْ، سامحونيْ. . . وهٰذيْ نهايةْ قِصّتيْ، مع سبايْبَهْ[3]

{٤٧٦} شاعر؟

نديم محمد شاعر من الساحل السوري، لم يكن يضبطه عمل، فكان قلقاً، لا يكاد يعمل في مكان حتى يتركه إلى آخر، عاد بعد عمر إلى قريته منصرفاً إلى الشراب والصيد والشعر. . وكان آخر ما نظمه وهو يحتضر هذان البيتان:

سيذكرني غداً أهلي كثيراً ويسأل بعضهم عني طويلا
فلن يجدوا وإن راحوا وجاؤوا ولن يهدوا إلى عندي سبيلا[4]

* * *

(١) جلايبه: جالبوه.
(٢) الشين: ضد الزين.
(٣) سبايبه: أسبابها.
(٤) أعلام مبدعون ص٢٩٨، ووفاته عام ١٤١٤هـ.

{٤٧٧} دفاع عن الإسلام

الكاتب والمفكر الصحفي القدير محمد جلال كشك عاش حياة عامرة بالإثارة والتناقضات، ورحلته من الشيوعية إلى الإسلام جديرة بالعناية، وقد سخَّر قلمه في خدمة العقيدة الإسلامية من خلال مقالاته وكتبه التي تجاوزت الأربعين، أشهرها وأجلها «ودخلت الخيل الأزهر». وقد توفي في الولايات المتحدة الأمريكية بينما كان يخوض مناظرة تلفزيونية مع نصر حامد أبو زيد حول أفكار تتعارض مع الرؤية الإسلامية، حيث فاجأته أزمة قلبية توفي على إثرها، وكان الأخير قد أثار لغطاً شديداً في الأوساط الثقافية والعلمية في مصر وحكم العلماء بردَّته وتفريق زوجته منه فخلَّصته الحكومة منهم وسفَّرته إلى أمريكا(١).

* * *

{٤٧٨} الشهادة.. الشهادة

مصطفى شاهين عالم وداعية ومفكر من مصر، مات سنة ١٤١٥هـ، كان مشهوداً له بالطيبة والروح المرحة التي لا تعرف الحقد والكراهية والعداء، قضى عشر سنوات في الجامعة الإسلامية بإسلام آباد يدرِّس أبناءها، إلى أن وُجد مقتولاً في بيته صباح الخميس (٢٩) رمضان. وكان حديثه في آخر محاضرة له عن قصة استشهاد عبدالله عزام ـ أمير المجاهدين العرب ـ الذي كانت تربطه به علاقة وطيدة، وكان آخر كلماته في المحاضرة دعاؤه بأن يلقى الله شهيداً(٢).

* * *

(١) تتمة الأعلام ١٣٩/٢ مع إضافات. وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٤١٤هـ.

(٢) جريدة «المسلمون» ع٥٠٧ (١٤١٥/٥/١٦هـ)، تتمة الأعلام ٢٥٩/٢ (ط٢).

{٤٧٩} نطق بدعاء جليل

الشيخ الجليل عبدالله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية بقطر، لزم الفراش سنة ١٤١٧هـ قبل وفاته نتيجة ارتفاع السكر عنده، وفي ضحى الثامن والعشرين من شهر رمضان المبارك صحا من نومه فجراً ونطق بالشهادتين، ودعا الله أن يجعله من التوابين والمتطهرين ومن عباده الصالحين، وذهب في نوم عميق، وتوفي في ذلك اليوم رحمه الله[١].

* * *

{٤٨٠} عبدالحميد كشك

خطيب الأمة في هذا العصر، الشيخ الجليل والعالم العارف عبدالحميد كشك، الذي ألهبت خطبه الحماسية الصادقة وجدان المسلم في أصقاع الدنيا... قال لابنته الصغرى: لن أحضر معكم رمضان هذا العام! ومات في (٢٥) رجب عام ١٤١٧هـ..

عاش زاهداً ومات عابداً.. عندما وافته المنيَّة كان ساجداً لله، فلما طالت السجدة أراد ابنه أن يطمئن عليه، ولكن روحه كانت قد صعدت إلى بارئها، واختاره الله إلى جواره[٢].

* * *

{٤٨١} أبو غدّة

الشيخ والعالم الجليل المحدِّث عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله كان معروفاً بعلمه، ذا مكانة عند أهل العلم خاصَّة، وهو من مدينة حلب، ووفاته بمدينة الرياض يوم ٩ شوال ١٤١٧هـ، قال ابنه سلمان في ترجمته:

---

(١) المجتمع ع١٢٤١ ص٥١.

(٢) حوار ساخن مع الشيخ كشك قبل رحيله/ محمود فوزي، ص١٤ ـ ١٥.

دخل الوالد رحمه الله في شبه غيبوبة قبل وفاته بأربعة أيام، لعِلَّة في بطنه سبَّبت وفاته، وقد جاء في الحديث الصحيح **«المبطون شهيد»**، وكان قبل دخوله أجريت له عملية غسيل كلوي، ولمَّا دخلتُ عليه بعد عملية الغسيل كان لسانه يلهج بالشهادة كثيراً دون فتور.

ثم إنه عندما فاضت روحه الشريفة إلى بارئها نطق بكلمة التوحيد مختتماً بها عمراً قضاه في خدمة الإسلام والمسلمين، و **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**.

وكانت أصبُعُه السبابة مرتكزة على الوسطى، كحال المرء لما يتشهّد، وبقيت على ذلك إلى حين تغسيله ودفنه.

قال: وكانت إحدى إخواتي وفقهن الله بجانب سرير الوالد رحمه الله، وهو في مرضه الأخير الشديد، فأرادت أن تشرب، وأمسكت الكأس بيدها اليسرى من ذهولها بحاله ومرضه، فأشار إليها الوالد فلم تفهم مراده لذهولها وحزنها عليه، فأمسك بيدها وهزَّها لكونه لا يستطيع الكلام، ففهمت مراده، وأمسكت الكأس بيدها اليمنى! فللّه درّه كم أتعب من بعده!.

قال: ومن أواخر ما قرأتُه عليه ترجمة الإمام القدوة الفذّ عبدالله بن المبارك رحمه الله من كتاب «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي رحمه الله، وهو على فراش المرض في مستشفى العيون، فلما شرعتُ في أولها، ورأى طولها، أحالني على آخرها وطلب مني قراءة أبيات قالها بعضهم في رثاء ابن المبارك وتوقف عندها رحمه الله وقدّس روحه، وفي هذه الأبيات موعظة لأولي الألباب، وهي:

مررتُ بقبرِ ابنِ المبارك غُدْوَةً ... فأوسعني وَعْظاً وليسَ بناطقِ
وقدْ كنتُ بالعلمِ الذي في جوانحي ... غَنيّاً وبالشَّيْبِ الذي في مَفَارقي
ولكنْ أرى الذِكرى تُنبِّه غافلاً ... إذا هي جاءت من رجالِ الحقائقِ(١)

* * *

(١) من مقدمة كتاب «لسان الميزان» لابن حجر العسقلاني، الذي حققه المترجم له رحمه الله، وكتب مقدمته ابنه سلمان، ص٦٣ ـ ٦٤.

{٤٨٢} المهتدي الجديد

المهتدي الصيني «قتيبة» كان اسمه قبل الإسلام «باي سيجا» من مقاطعة إينانصو الصينية، حضر إلى مقر لجنة التعريف بالإسلام بالكويت مساء يوم الجمعة ١٩٩٧/١٠/٣م، حيث جلس مع أحد دعاة اللجنة لتلقينه الفاتحة، وظل يرددها حتى حفظها، وأبدى رغبته في تعلم اللغة العربية ونطق بعض الكلمات، وسأل عن معناها، ثم قام وتوضأ وصلى العشاء.

يقول قتيبة: إنني سعيد بدخولي في الإسلام، وعندما أعود إلى الصين سوف أقنع جميع أفراد أسرتي وكل من أعرفهم بالدخول في هذا الدين العظيم، وتحدث عن الدنيا وقال: إنها لا تساوي شيئاً، وأفضل ما فيها أن يفعل الإنسان الخير حتى يلقى الله به في الآخرة، قال هذه الكلمات المؤثرة الصادرة من القلب وهو يغادر اللجنة. وبعد أقل من ساعة ترجل من الحافلة متجهاً إلى مسكنه فعاجلته المنية في حادث مروري مروع!.

وسمحت السفارة الصينية في الكويت للداعية الصيني الشيخ سعيد حسن باستلام الجثمان وتم دفنه حسب الشريعة الإسلامية، وأرسل رسالة إلى أسرة قتيبة ضمنها كلماته الأخيرة التي قال فيها إنه عندما يعود سوف يقنع أهله ومعارفه بهذا الدين العظيم، وأرسل مع الرسالة كتباً تعريفية بالإسلام.

لقد قضى قتيبة نحبه بعد شهر واحد من إسلامه.

وقد كان خلال هذا الشهر لصيقاً بدعاة اللجنة، ومواظباً على الدروس، ومجتهداً في التلقي، رحمه الله رحمةً واسعة وأسكنه فسيح جناته[١].

* * *

{٤٨٣} محمود شيت خطاب

عالم العسكرية الإسلامية اللواء الركن محمود شيت خطاب، المتوفى سنة ١٤١٨هـ رحمه الله، طلب من ابنته ألا تذهب إلى الكلية وتبقى بجانبه

(١) المجتمع ع١٢٧٦ (١٨ رجب ١٤١٨هـ) ص٥٧.

لتقرأ له ومعه سورة يس، وبعد أن فرغ من قراءتها ومن سماعها بصوت ابنته قال لزوجته: أعطيني كوب شراب فقد جفَّ حلقي. فأسرعت الزوجة وأحضرت له ما أراد، وإذا به يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وما زال يكررها، فأحصت عليه الزوجة الشهادة خمس مرات، وأغمض عينيه كمن يريد أن ينام، وإذا به يرقد الرقدة الأخيرة، وتفيض روحه الطاهرة إلى بارئها دون أن تشرب كوب الشراب، وكأنه على موعد من الرحيق المختوم في الملأ الأعلى مع ملائكة الرحمة المقربين عند مليك مقتدر...[1].

* * *

{٤٨٤} وداعاً بني الدنيا

الشيخ الجليل علي محمد العماري أحد علماء الأزهر، تخصصه في البلاغة، والنقد، كان قوّالاً بالحق، ذو غيرة على شريعة الإسلام ومقدساته. ودَّع الدنيا في آخر لحظاته بقصيدة باكية عام ١٤١٩هـ قال فيها:

ثمانون مرت مسرعات وأربع ... وليس لغير الله في القلب موضعُ
فإن كنت في سمت الطريق فرحمة ... وإن جارت الأهواء فالعفو أوسع
وداعاً بني الدنيا وداع مفارقٍ ... إلى الأبد الأسنى الذي لا يودع[2]

* * *

{٤٨٥} الشعراوي

العالم الرباني الجليل محمد متولي الشعراوي، المتوفى سنة ١٤١٩هـ،

(١) عالم فقدناه/ آمنة محمود شيت خطاب، ص٧١.
(٢) مجلة الأزهر (شوال ١٤١٩هـ) ص١٥٧٢.

كان آخر كلمات تلفَّظ بها قبل وفاته: الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله[1].

* * *

{٤٨٦} الحمد لله

الأستاذ عبدالرحمن الصوفي عالم داعية ومهندس زراعي وشاعر إسلامي، من اللاذقية، توفي بجدَّة عام ١٤١٩هـ، وكان مما قاله لجلسائه ليلة وفاته:

«إني أشعر ولله الحمد والمنة أني قد أديت الأمانة على أحسن وجه، وقد أكرمني الله بأولاد وأحفاد نشأوا في طاعة الله سبحانه.. فماذا أريد بعد ذلك؟ ثم أخرج ورقة وأعطاها لأحدهم وقال له: اقرأ هذه الأبيات التي كتبتها قبل قليل، فقرأ:

يا مرحباً بلقاء ربي ... به منتهى أشواق صَبّ
به ملتقى الأحباب ألقى ... أنداء رحمانٍ يلبي
كل المرام فلا لُغوب ... نحيا الخلود بظل حبّ
يا ربِّ فاقبلني نزيلاً ... في ودك الحاني المحبّ
أنت الكريم جليل فضل ... فاغفر إلٰهي كلَّ ذنبي
قد كنتُ دوماً فيك أسعى ... فاجعل عطاك حميمَ قرب

لقد أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه[2].

* * *

(١) مجلة الفيصل ع٢٦٢ ص١١٢.

(٢) المجتمع ع١٣٣٢ ص٥٩.

{٤٨٧} لم يكمل البيت الأخير

الأستاذ جهاد الأيوبي أحد أعلام الأدب الإسلامي في طرابلس الشام.

كان نجم العديد من المهرجانات الإسلامية الكبرى حيث للشعر مكانة بارزة وصدى حماسة في المناسبات الدينية والسياسية، كلما عصفت بالأمة أزمة، أو كللها انتصار أو تذكرت ماضياً تليداً.

لقد رثى نفسه في قصيدة قبيل دخوله للمرة الأخيرة مستشفى الهيكلية قبيل وفاته بعنوان

لن أترك الداء يستقوي ويؤذيني

جالت عليَّ عوادي الدّهر تَفْريني ... وتستبدُّ بأحشائي وتكويني
فقلتُ: لن تستطيعي قتلَ إحساسي ... فالشّعر صاحِبُ نفسي منذ تكويني
لقد نشأتُ بحضن الأمّ مكتسباً ... منها المحبّة، والنيرانُ تُصليني
ورعرعتني وصايا والدي رجلاً ... موقّعَ الخطو بين البأس واللّينِ
في تربةٍ عبقتْ بالطهرِ يانعةٍ ... نديّةِ الطّلع من تينٍ وزيتونِ
درجتُ أنظم أشعاري وأنشرها ... بين الرّفاق أُهاجيهم ويهجوني
فأستثير بهم أنواءَ عاصفة ... ولا أهادنُهم حتّى يُثيروني
وكان ينمو مع الشعر الهوى نَسَقاً ... وتستبدُّ بأوراقي شرايينـي
حتى كبرتُ فَقَسّمتُ الفؤادَ على ... أتراب نفسي...

كانت هذه آخر كلماته الشعرية، ولم يتسنَّ له أن يكمل هذه القصيدة بسبب اشتداد المرض عليه.

رحمه الله(١).

* * *

(١) مجلة التقوى ع٨١ (ذو الحجة ١٤١٩هـ) ص١١. وكانت وفاته عام ١٤١٩هـ.

{٤٨٨} حوار.. على فراش الموت

الدكتور حسن ظاظا أستاذ أكاديمي موسوعي، موطنه مصر، وزوجته فرنسية، وأصله كردي. مات في الرياض عام ١٤٢٠هـ، أجري معه «حوار على فراش الموت» وكان موعد المحاور أن يكمل معه الحوار في الغد فذهب إليه فإذا هو ميت، وكان آخر ما قاله في حواره الذي لم يتم:

ماذا عليّ لو عاتبتُ نفسي؟ فقال المحاور: هات، فقال:

يا نفس ما هذا الأسى والكدر ... قد وقع الإثمُ وضاعَ الحذر

هل ذاق حلو العفو إلا الذي ... أذنبَ، والله عفا واغتفر؟

فقال له المحاور: أحسنت الآن، زدني من هذه النفحة الربانية، فقال:

يا من يحارُ الفهمُ في قدرتك ... وتطلب النفس حِمى طاعتك

أسكرني الإثمُ ولكنني ... صحوت بالآمالِ في رحمتك

وإنما يشفع لي أنني ... قد عشتُ لا أشرك في وحدتك

وتمتم الرجلُ برباعيته بصوت يزداد خفوتاً بعد كل كلمة وهو يقول:

يا عالم الأسرار علم اليقين ... يا كاشف الضر عن البائسين

يا قابل الأعذار فِئنا إلى ... ظلِّك فاقبل توبة التائبين

قال المحاور: نظرت إلى الرجل الذي أخذ صوته يتلاشى، فلم أتبين أهو من شدة المرض أم من غلبة النعاس عليه؟ واستغربت هذه المسحة المأساوية في كلامه، فقلت في نفسي: لا أريد أن أثقل عليه. فودَّعته وقلت له: سأعود غداً فنتمُّ حوارنا الشعري، وعسى أن تكون بصحة أحسن. فأشار بيده المتثاقلة أن إلى الغد.

وجئت في الغد، فوجدتُ سريره خالياً، فسألت الممرِّضة التي كانت

تُعنىٰ به: هل انتقل إلى غرفة مجاورة؟ فصمتت قليلاً ثم قالت: كلا، لقد انتقل إلى جوار ربه[1].

* * *

{٤٨٩} فقيه مفت

الشيخ مصطفى الزرقاء فقيه علامة، ظل طوال عمره المديد معطاء، لم يتوقف عن العمل، ولم تخب شعلته، أو تنطفىء شمعته، حتى توفاه الله، وما كان يشكو إلا من وجع المفاصل، وضعف السمع، الذي استعان عليه بسمّاعة يضعها في أذنيه، أما ذهنه فقد كان حاضراً لم يغب، وأما ذاكرته فظلت قوية لم تضعف، وأما عزيمته فلم تزل صلبة لم تهن.

وقبيل وفاته بقليل، عرضت عليه فتوى، فنظر فيها ونقحها وراجعها وصاغها الصياغة التي يرضى عنها، وبقي بعدها ينتظر صلاة العصر، ويسأل عن دخول الوقت، حتى وافاه الأجل، وانتقل إلى رحمة ربه عز وجل[2].

* * *

{٤٩٠} الحمد لله

الشيخ الجليل مناع القطان عالم داعية معروف، من مصر، استقر في السعودية، أصيب بسرطان الكبد بعد حياة حافلة بالدعوة والنشاط الإسلامي.

يقول الطبيب الذي كان يقف بجواره في اللحظات الأخيرة عند سكرات الموت: «لقد أصيب فضيلة الشيخ بإغماءة ثم أفاق وفتح عينيه وحملق عن يمينه بشدة، وكان آخر ما نطق به: الحمد لله.. الحمد لله»، ثم أسلم الروح إلى بارئها[3].

---

(١) مجلة الفيصل ع٢٧٣، ص٨٨.

(٢) المجتمع ع٣٥٩ (٧/٤/١٤٢٠هـ) ص٤٤. ووفاته ١٤٢٠هـ.

(٣) المجتمع ع١٣٦١ (٢١/٤/١٤٢٠هـ) ص٧٥. ووفاته عام ١٤٢٠هـ.

{٤٩١} ابن باز

ذكر أحد أبناء الشيخ عبدالعزيز بن باز (ت١٤٢٠هـ) مفتي السعودية رحمه الله عن اللحظات الأخيرة التي عاشها أبوه فقال:

عندما نقلناه إلى المستشفى في الطائف كان هناك ممرِّض نصراني بجوار والدي رحمه الله، وكنا أنا وإخواني... نحيط به، فكان أكثر ما يحثُّ وينصح ذلك الممرض النصراني باعتناق الإسلام، ودعاه بشدة على أن لا يموت على النصرانية.. هذا الحديث من والدي للممرض كان قبل ساعتين من وفاته رحمه الله.

وحول الكلمات الأخيرة التي كان يرددها قبل وفاته قال ابنه أحمد:

سمعته يردد ما نصه: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله» ثم تبسَّم لنا رحمه الله، ثم أغمضت عيناه قبل ساعة من وفاته[1].

***

{٤٩٢} وصية شهيد

أبو فهد الله أستاذ للتربية العسكرية، عرفته معسكرات المجاهدين في كشمير المسلمة، تخرج على يديه المئات من المتدربين، وكانت له مشاركة كبيرة في المعارك، مسؤولاً عن مجموعة ابن تيمية، التي كانت مهتمة بالعمليات العسكرية على الحدود الهندية، وألحق بالجيش الهندي خسائر كبيرة، إلى أن استشهد عام ١٤٢٠هـ رحمه الله، وكانت وصيته لأهله وذويه: عندما تصلكم رسالتي هذه أكون قد التحقت بالرفيق الأعلى، وادعوا لي أن يتقبل الله شهادتي ويغفر لي ويدخلني جنة نعيم.

إن ميزان أعمالنا وأقوالنا هو كتاب الله وسنة المصطفى ﷺ، ومن وافق قوله الكتاب والسنة فهو على الحق.

---

(١) مجلة الداعي (الهند) ع٣ ـ ٥ (١٤٢٠هـ) ص٢٦ ـ ٢٧.

أحيوا شعائر الإسلام في بيوتكم، وأبعدوا التلفزيون منها، وحافظوا على الحجاب الشرعي، وربُّوا أولادكم التربية الصالحة، وزنوا أعمالكم بميزان الدين، وهذا هو طريق الفلاح، وغيره هو طريق الذلة والانحطاط.

والدي المحترم: أرسل إخواني بعد استشهادي إلى ميادين الجهاد في كشمير، ثم ليأتي دور أبنائنا لتكون أسرتنا أسرة الشهداء، لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وموت الشهادة من أفضل الموت.

أيها الإخوة: استمروا في طريق الجهاد واجعلوه نصب أعينكم، وربُّوا نساءكم على التعاون مع الجهاد والمجاهدين.

زوجتي الكريمة: عليك أن تفرحي بأنك زوجة شهيد، وليس لدي أي اعتراض أن تتزوجي بعدي، وحافظي على تربية الأود تربية حسنة ليكونوا مسلمين ومجاهدين، ولا تغفلي عن ذلك فقد يضرهم، ولا تبالي بكلام الناس، وفكري في الفوز يوم القيامة. الدين الحقيقي هو الذي جاء به نبينا محمد ﷺ. وأما ما أضيف إليه من البدع والخرافات فهو مردود. والتربية الصحيحة للأولاد سيبقى أجرها حتى بعد الموت.

ابنتي: لقد ألحقتك بالمدرسة الدينية لأن إصلاح البنت إصلاح الأسرة، وعليك أن تربي إخوانك وأولادك على الإسلام، ولا يكون همك الدنيا ومتاعها، وإن عملت بوصيتي ستفوزين، وسأفرح على أنني وفقت في تربيتك.

ابني فهد الله: أسأل الله لك الصحة والسلامة والعافية والتوفيق لما يحبه ويرضاه، لم أتمكن من إعطائك الكثير من وقتي، لأنك كنت صغيراً، وأمنيتي أن تكون مجاهداً ومسلماً عاملاً، وتعمل في ميادين الدعوة والجهاد في نفس الوقت.

ابنتي الصغيرة: ألحقتك بالمدرسة الابتدائية وعليك بالالتحاق بالمدرسة الدينية بعدها كما فعلت أختك الكبيرة. والسلام[١].

***

(١) مجلة «الرباط» (شهرية تصدر في باكستان) ع٥٠ (ذو الحجة ١٤٢١هـ) ص٢٢.

{٤٩٣} الخوف من الموت

في واحد من آخر الحوارات الثقافية التي أجريت مع المؤرخ الجغرافي السعودي حمد الجاسر (ت١٤٢١هـ)، وكأنه يستشرف دنو أجله، سئل عن مدى خوفه من الموت فأجاب في فلسفة:

الناس يخافون من الموت، ولكن خوفهم من الموت هو الموت؛ لأن الموت لا ألم له، الموت ارتياح، الموت حالة سلبية، وإنما يتجسم الخوف في الخوف من الموت، لماذا؟ لأنني أحسُّ أنني قطعت مرحلة من حياتي أشبعتُ فيها جميع رغباتي النفسية، وأصبحت مرتاح الضمير. انتهت قوتي، وأوشكت حياتي أن تنتهي، إذن أنا لا أتطلع لشيء، لماذا إذن أخاف من الموت؟ حقاً كل إنسان لا يريد أن يخرج من هذه الحياة، ولو عُمِّر ما عُمِّر، ولو بلغ من العمر ما بلغ، لأن هذه هي طبيعة الإنسان، ولكن الرجل العاقل هو الذي يدرك أن هذه المرحلة لها نهاية، وأنه يجب أن يكون مستعداً لبلوغ الغاية بارتياح واطمئنان[١].

* * *

{٤٩٤} وصية العثيمين

الشيخ محمد بن صالح العثيمين فقيه حنبلي مجتهد، من عنيزة بالسعودية، توفي سنة (١٤٢١هـ). نشرت وصيته بعد وفاته، وهي:

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد: فإنني أنتهز هذه الفرصة في المقابلة مع مجلة اليمامة لأوجّه نصيحة لجميع الصحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام، أن يتقوا الله تبارك وتعالى في توجيه الأمة إلى ما فيه الخير والصلاح. ولا يخفى ما لوسائل الإعلام من التأثير

(١) مجلة الفيصل ع٢٨٩ ص١٢٢.

على الأمم، حتى إن بعض البلاد تُقْلَبُ فيها الحقائق بواسطة وسائل الإعلام، وتنطلي على كثير من الناس، فلا يميزون بين الحق والباطل والصدق والكذب، ولذلك أنصح أصحاب وسائل الإعلام بنصيحة أرجو الله عزّ وجلّ أن ينفعني وإيّاهم بها. فليعلموا أنهم لن يقولوا كلمة إلاّ حُوْسِبُوْا عليها، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨]. وقال عزّ وجل: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

فليعلموا هذه الحقائق، وليستعدّوا للجواب عنها إذا وقفوا بين يدي الله، وليعلموا أنّ مدى الدنيا قصير، وأنهم يوشكون أن يرتحلوا عن الدنيا بين لحظة وأخرى؛ فكم من إنسان مات وهو يقود سيارته، وكم من إنسان مات وهو يحرر كلمة، وكم من إنسان مات وهو على فراشه نائماً؛ إلى غير ذلك من الأمور الظاهرة التي تدلّ على أنّ الآخرة قريبة من الدنيا. فليحذر أصحابُ وسائل الإعلام من محاسبة الله تعالى لهم يوم القيامة، وليعلموا أنهم ما أضلوا قوماً إلاّ كان عليهم نصيب من إضلالهم. كما أن من وسائل الإعلام ـ والحمد لله ـ ما هو خير ومُوَجَّهٌ توجيهاً سليماً طيباً تنتفع به الأمة في دينها ودنياها. وهؤلاء لهم أجر الفاعل، أي فاعل الخير الذي اهتدى على أيديهم؛ فإنّ من دلّ على خير، فله مثل أجر فاعله.

ثم إنّ على وسائل الإعلام أن تتجنّب نشر الصور الفاتنة من نساء أو مردان؛ لأن ذلك يوجب الفتنة، ويوقع في الفحشاء، ويهون على الناظر مثل هذه الوسيلة الداعية إلى الفحشاء والمنكر.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الكلمة، وأن يهدي أصحاب وسائل الإعلام لما فيه خير الأمة في معاشها ومعادها، في دينها ودنياها. إنه على كل شيء قدير[١].

* * *

---

(١) مجلة الداعي (الهند) ص٢٥ ع١ (محرم ١٤٢٢هـ) ص٣٦.

{٤٩٥} الشوادفي

محمد صفوت الشوادفي كاتب وداعية سلفي من مصر. رئيس تحرير مجلة «التوحيد». كان آخر ما كتب فيها: وصايا نافعة، وختمها بقوله: واعلم أن الموت آت، وكلُّ آتٍ قريب. ومات ليلة الجمعة ١٧ جمادى الأولى ١٤٢١هـ[١].

* * *

{٤٩٦} شيخ القرّاء

شيخ الإقراء والمقرئين بالمغرب المكي بن عبدالسلام بن كيران، المتوفى سنة ١٤٢١هـ، كان مجتهداً في العبادة، ذاكراً لله، تالياً للقرآن.

كان مشغولاً بالذكر والتسبيح وقراءة القرآن عند أولاده، وفجأة رفع صوته بقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾، ثم خرَّ وقضى من ساعته[٢]!.

* * *

{٤٩٧} رثاء!

المؤرخ والكاتب الإسلامي مبارك راشد الخاطر من البحرين، كتب قصيدة رثاء في الشاعر القطري محمد قطبة ليلقيها في حلقة الأدب الإسلامي في اليوم الذي توفي فيه، ولكن الأجل لم يمهله[٣]، فبقيت قصيدته تلك، ورُثي هو!.

* * *

(١) مجلة التوحيد ع٦ (١٤٢١هـ) ص١١.

(٢) من كتاب: تقريب النفع وتيسير الجمع بين القراءات السبع/ نبيل بن هاشم آل باعلوي.

(٣) مجلة الأدب الإسلامي ع٢٩ ص٩٩. ووفاته في الخامس من شهر محرم ١٤٢٢هـ.

{٤٩٨} مقبل الوادعي

شيخ السلفية باليمن مقبل بن هادي الوادعي المتوفى سنة ١٤٢٢هـ كان كثيراً ما يسأل في أيام مرضه الأخيرة عن حديث أبي عزَّة يسار بن عبد مرفوعاً: **«إذا قضى الله لعبدٍ أن يموت بأرضٍ جعل له إليها حاجة»**، أو قال: **«بها حاجة»**(١).

وقبل وفاته كان يتمتم بكلام لا يفهمه من حوله، غير أنه تبسَّم بسمة عريضة ثم فاضت روحه(٢).

***

{٤٩٩} أنور الجندي

مفكر وكاتب وداعية إسلامي كبير، درس الاقتصاد وإدارة الأعمال، خاض الكثير من المعارك ضد دعاة التغريب، وكتب في أسلمة العلوم والمناهج وتأصيل الفكر الإسلامي وبناء البدائل حتى آخر لحظة من حياته. وكان خاشعاً لربه متبتلاً، دائم الوضوء.. له مئات الرسائل في الفكر الإسلامي والذب عن الإسلام. مات في ١٥ ذي القعدة ١٤٢٢هـ.

مرض مرضاً شديداً قبيل وفاته، وكان آخر ما قاله: «يا رسول الله أنا أنور الجندي، قادم إليك من أقاصي الصعيد»!.

وبشهادة طبيبه الخاص: مات وهو يصلي مضطجعاً على شقه الأيمن(٣).

***

---

(١) رواه الترمذي.
وهو في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين ٢/٣٠٦.
(٢) البدر التمام في رثاء شيخ الإسلام الإمام المجدد مقبل بن هادي الوادعي.
(٣) من موقع الشبكة الإسلامية في الإنترنت (بتاريخ ١٤٢٥/٦/٢٢هـ).

{٥٠٠} وصية مجاهد

قائد عسكري مجاهد اشتهر باسم «خطاب»، وهو سامر بن صالح السويلم، قائد المجاهدين العرب في القوقاز، استشهد عام ١٤٢٣هـ بعد أن كبد الروس أكثر من (٩) آلاف قتيل في (٤) سنوات! وقد ترك وصيته للشباب الإسلامي، كشف عنها أخواه منصور وزياد، وهي:

١ - الذي لم تكسبه صديقاً لا تكسبه عدواً.

٢ - عدم التدخل في القضايا الداخلية للناس إلا بالإصلاح.

٣ - القتال دائماً مع الكفر البواح (الصريح).

٤ - لا تقم الجهاد في مكان إلا إذا تبناه أهله.

٥ - استشارة العلماء الأفاضل وأهل الحكمة والخبرة بشكل دائم، والابتعاد عن الاجتهاد الشخصي قبل أي عمل.

٦ - اقرأ عدوك ولا تستهنْ به واختبر ردَّ فعله أولاً.

٧ - استخدم عنصر المفاجأة واستغل نقاط ضعف عدوك.

٨ - استعن بأهل الكفاءة ثم الأصدقاء، بعد الإعداد المتقن.

٩ - الابتعاد عن التحزب ونبذ الفرقة واتباع السنة والبعد عن الترف والعمل لنصرة هذا الدين[١].

* * *

{٥٠١} أبو تراب الظاهري

عالم لغوي وفقيه ظاهري من جدة، كان ملء السمع والبصر في الساحة الثقافية. انطفأ فجأة وتوفي عام ١٤٢٣هـ رحمه الله.

(١) جريدة الحياة ع١٤٢٨٦ (١٤٢٣/٢/١٨هـ).

وكان من بين آخر ما قاله شعراً قبل وفاته قصيدة مؤثرة لم تنشر، بل نشرتها له أسرته بعد وفاته، ولعلها مقتبسة، وهي هذه:

إن مسّنا الضرُّ أو ضاقت بنا الحيل ... فلن يخيبَ لنا في ربّنا أملُ
وإن أناخت بنا البلوى فإنّ لنا ... رباً يحولها عنا فتنتقلُ
الله في كلّ خَطْبٍ حَسْبُنا وكفى ... إليه نرفع شكوانا ونبتهل
مَنْ ذا نلوذُ به في كشف كُربتنا ... ومن عليه سوىٰ الرحمن نَتَّكِلُ
وكيف يُرجى سوىٰ الرحمن من أحدٍ ... وفي حياض نَداهُ النَّهْل والعَللُ
لا يُرتجى الخير إلاَّ من يديه ولا ... بغيرهِ يتوقى الحادث الجللُ
خزائن الله تُغني كلَّ مفتقرٍ ... وفي يد الله للسُّؤال ما سألوا
وسائِل الله ما زالت مسائله ... مقبولةً ما لها ردٌّ ولا مَللُ
فافزعْ إلى الله واقرع باب رحمته ... فهو الرجاء لمنْ أعيتْ به السُّبُل
وأحسن الظنّ في مولاك وارضَ بما ... أولاك ينحلُّ عنك البؤسُ والوَجَلُ
وإن أصابك عسر فانتظر فرجاً ... فالعسر باليسر مقرون ومتصلُ
وانظر إلى قوله ادعوني أستجب لكمو ... فذاك قول صحيح ما له بَدَلُ
كم أنقذ الله مضطراً برحمته ... وكم أنال ذوي الآمال ما أملوا
يا مَالك الملك فادفع ما ألمّ بنا ... فَمَا لنا بتولّي دفعه قِبلُ
فأنت أكرم من يُدعى وأرحم من ... يرجى وأمرك فيما شئت ممتثلُ
فلا ملاذَ ولا ملجا سواك ولا ... إلا إليك لحي عنك مرتحلُ
يا رب عطفاً فإن المسلمين معاً ... مما يقاسون في أكبادهم شُعلُ
وقد شكوا كلَّ ما لاقوه من ضرر ... إليك يا مالك الأملاك وابتهلوا
يا رب وانصر جنود المسلمين على ... أعدائهم وأَعِنْهم أينما نزلوا
يا رب فارحم مسيئاً مذنباً عظمتْ ... منه المآثم والعصيان والزللُ
قد أثقل الذنب والأوزار عاتقه ... وعن حميد المساعي عاقه الكسلُ
ولا تسوّد له وجهاً إذا غَشِيَتْ ... وجوه أهل المعاصي من لظى ظُلَل
يا خجلتي من عتاب الله يوم غدٍ ... إن قال خالفت أمري أيها الرجلُ

يا رب فاغفر ذنوبي كلها كرماً ... فإنني اليوم منها خائف وَجِلُ
واغفر لأهل ودادي كلَّ ما اكتسبو ... وحُطَّ عنهم من الآثام ما احتملوا
واعمم بفضلك كلَّ المؤمنين وتُبْ ... عليهمو وتقبل كلَّ ما فعلوا
وصلِّ رب على المُختار من مضر ... محمد خير من يحفى ويَنتعلُ
وآله الغرّ والأصحاب عن طرف ... فإنهم غُررُ الإسلام والحجلُ[1]

* * *

{٥٠٢} جمعية لغوية..

عبدالغني العطري أديب وصحفي معروف، من دمشق. صاحب «العبقريات الشامية».. مات ظهر يوم الأحد ٢٢ ذي الحجة من سنة ١٤٢٣هـ.

قال لزميل له قبل ساعات من الحادث الذي أودى بحياته:

ما رأيك لو نؤسس جمعية للحفاظ على سلامة لغتنا العربية الجميلة نسميها «جمعية أصدقاء اللغة العربية»؟ فقد قرأت أنه أحدث في دولة الإمارات العربية المتحدة مثل هذه الجمعية، نضم إليها كل المهتمين بالحفاظ على لغتنا، بعد أن أخذ الضعف يدب في أقلام بعض الكتاب كل مأخذ..[2].

* * *

{٥٠٣} ممثِّل!

علاء ولي الدين (ت١٤٢٤هـ) مثَّل في فيلم «عربي تعريفة» ولم يكمل

(١) جريدة الجزيرة (السعودية) فاتني توثيقها.
(٢) الضاد (نيسان ٢٠٠٣م) ص١٣.

منه سوى ١٥٪ ومات. وكانت آخر جملة نطق بها في الفيلم هي: لمّا أفتح عيني وألقى الجنة في وشي.

وما هي إلا ساعات حتى فارق الحياة[١]!.

* * *

{٥٠٤} يا شباب...

الشيخ نور الدين أحمد مرسي، رئيس فرع بلبيس لأنصار السنة في مصر. كان داعية، معلماً، يختم القرآن الكريم كل ثلاثة أيام. قبل وفاته بأيام شعر بألم شديد وضيق في التنفس، وكان إذا سري عنه يقرأ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[٢].

وقبل وفاته بيومين قال لمن حوله: أنا أريد أن أقول للشباب: اعملوا بجد لمثل هذا اليوم.

وفي أثناء ذلك كان يُغمىٰ عليه، فإذا أفاق سأل: أحان وقت الصلاة؟ فيقال له: نعم. فيكبِّر ثم يصلي، فلا يتمُّ الصلاة للإغماء، فكان آخر كلماته التي سُمعت منه: يا رب عفوك ورضاك وتجاوز عن سيئاتي.

ومات في شهر رجب ١٤٢٤هـ عن عمر يناهز (٩١) عاماً.

وهو والد الشيخ صفوت نور الدين، رئيس جماعة أنصار السنة بمصر، وقد مات قبل والده بعام، في الشهر نفسه[٣].

* * *

(١) جريدة الرياض ع ١٢٦٨٠ (١٠/١/١٤٢٤هـ).

(٢) سورة الروم، الآية ٥٤.

(٣) مجلة التوحيد (مصر) شعبان ١٤٢٤هـ.

{٥٠٥} الداعية الصالحة

ثريا محمد ياسين قرشي امرأة داعية ومثقفة إسلامية وناشطة نسوية مباركة.

قبل أن تنتهي سنة ١٤٢٤هـ بيوم أو يومين ختمت القرآن الكريم، وعندما علمت بوفاة أحد أقاربها طلبت من زوجها أن تذهب لتقوم بواجب العزاء، وبعد وصولها بنصف ساعة أحست بتعب شديد، وقالت لإحدى صديقاتها ـ كانت تقف بجوارها ـ من فضلك افتحي لي النافذة لكي أرى وجه الله! وقالت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، ثلاث مرات، ثم نطقت بالشهادتين، وأغمي عليها، وتوفيت رحمها الله، ودفنت بمدينة الرسول ﷺ بالبقيع[١].

* * *

{٥٠٦} وصية مهتد

في تشاد أسلم «برغي ملدوملم» الذي تسمَّى بـ «إدريس صالح» وحسن إسلامه، ثم وظَّف حياته لأعمال الخير، فكان يعمل متطوّعاً في لجنة مسلمي إفريقيا، وكان المسلم الوحيد في أسرة متعصبة للنصرانية، التي قاطعته بسبب إسلامه، ثم تزوَّج مسلمة وأنجب منها ولدين «محمد» و «التوم». وتوفي بعد مرض ألَمَّ به يوم ١٧ صفر ١٤٢٥هـ وترك ولديه يتيمين ما زالا في المرحلة الابتدائية.

وكانت وصيته وهو يفارق الحياة: لا تتركوني لأهلي بعد موتي، ولا تتركوا ولديَّ لهم، إنهما أمانة في أعناقكم، أحسنوا تربيتهما ليكونا صالحين.

---

(١) وقفات دعوية ودروس تربوية من حياة ثريا ياسين قرشي/ جيدة بن أحمد سمان، ص١٨٤.

وقد شهد على هذه الوصية مسؤول القبيلة، فلم يستطع أحد من أقاربه التكفل بهما[1].

* * *

{٥٠٧} أحمد ياسين

القائد والزعيم الإسلامي الشهيد أحمد ياسين مؤسس حركة حماس، الذي اغتالته اليهود في شهر صفر من عام ١٤٢٥هـ، ذكر أحد قادة الحركة التي أسسها وهو الشيخ إسماعيل هنية، أن آخر ما أوصى به هو إنجاز مشروع وثيقة التفاهم بين الفصائل الوطنية والإسلامية.

وقال هنية: «كانت وصيته: عجّلوا بإنجاز ورقة التفاهم مع الفصائل قبل أن تأخذكم التطورات وتشغلكم مهام أعمالكم»، وأضاف: «قال لنا: أنجزوا الأوراق وواصلوا الحوار وتفاهموا مع الناس والإخوة جميعاً». وأشار إلى أن الشيخ ياسين كان معتكفاً طوال الليل في مسجد المجمع الإسلامي مع مجموعة من أشبال وشباب المسجد، وقال للصبية المعتكفين معه بعد أن جمعهم حوله: «يا أولاد إنتو مدلعين.. إحنا زمان كنا نلبس البنطلون وفيه ٥٠ رقعة، إحنا بدنا صبر وثبات ورجولة». ثم صلى الفجر، وبعد غسق الليل كانت روحه بإذن الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر».

وقال نجله محمد: إنه أبلغ والده قبل نحو ثلاث ساعات من الهجوم بأن طائرة استطلاع إسرائيلية رُصدت في السماء، وقال: إن والده ردَّ عليه قائلاً: نحن نسعى إلى الشهادة، وإنا لله وإنا إليه راجعون[2].

* * *

(١) مجلة الكوثر ع٦٢ (شوال، ذو القعدة ١٢٤٥هـ) ص٢٣.

(٢) المجتمع ع١٥٩٥ (١٤٢٥/٢/١٣هـ)، و «الصحوة» ـ اليمن ـ ع٩١٦ (١٤٢٥/٢/٤هـ).

{٥٠٨} الرنتيسي

القائد والزعيم الإسلامي عبدالعزيز الرنتيسي، الذي تولى قيادة حركة حماس بفلسطين بعد مقتل مؤسسها الشيخ أحمد ياسين رحمه الله، قتلته اليهود أيضاً بعد أقلّ من شهر من استشهاد المؤسس.. وكانتْ آخر كلماته تعكس مدى ما كان يشعر ويوقن به جيداً هذا المجاهد الرباني وهو يشق طريقه نحو القمة، يقول قبل الاستشهاد: «أقول لكم لأطمئنكم: لو رحل الرنتيسي والزهّار وهنية ونزار ريّان وسعيد صيام والجميع، فوالله لن نزداد إلا لُحمة وحباً، فنحن الذين تعانقت أيادينا في هذه الحياة الدنيا على الزناد، وغدا ستتعانق أرواحنا في رحاب الله ـ إن شاء الله ـ لذلك فليغزل على غير هذا المغزل شارون والصهاينة والمتربصون، ومسيرتنا متواصلة، ودربنا صعب؛ ولكنه الدرب الوحيد الذي يصل بنا إلى ما نصبو إليه؛ ولذلك لا ضعف ولا استكانة ولا هوان على الإطلاق».

وكانت كل تصريحاته قبل الشهادة متعلقة بالوحدة الوطنية والجهاد؛ حيث قال عن الثأر للشيخ ياسين: «نحن لا ننسى دماءنا، وأعني بنحن: حركة فتح وكتائبها، حركة الجهاد وسراياها، الجبهة الشعبية وكتائبها، الجبهة الديمقراطية وكتائبها، وحماس ـ وما أدراك ما حماس ـ وكتائبها.. خندق المقاومة فيه متّسعٌ للجميع».

وذكرت زوجته أنه قبل قصف سيارته بدقائق كان سعيداً، وكان يُنشد ويكرر:

أن تــدخــلــنــي ربــي الــجــنــة هــذا أســمــى مــا أتــمــنّــى[١]

وفي آخر مقابلة له مع أحد القنوات الفضائية عندما سئل عن شعوره بعد استشهاد الشيخ أحمد ياسين.. قال رحمه الله: «ويعلم الله أني لأشعر

(١) المجتمع ع١٥٩٨ (١٤٢٥/٣/٥هـ) ص٢٧، والعدد التالي ص٣٦. وكان استشهاده رحمه الله يوم الأربعاء ٣ صفر ١٤٢٥هـ.

بالشوق لمن رحلوا أكثر ممن هم في هذه الدنيا».. «بالرغم من فرحنا لمن هم معنا من الأحياء إلا أننا والله لنتمنى أن نلحق بإخواننا الذين سبقونا بالإيمان».. «الشهادة لا تسبق الأجل، إنما يأتي الأجل مع الشهادة» ثم ابتسم وقال: «وفي كل الأحوال نحن الغالبون. إما بالشهادة وإما بالنصر والعزة. فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا».. «يظن قتلة الأنبياء أنهم باغتيالهم أعضاء حركة حماس وإخواننا في فلسطين سيقوضون الجهاد ومقاومة شعبنا، هم ساذجون ومغفلون»، يظن بنو يهود أننا حريصون على هذه الحياة مثلهم كما وصفهم تبارك وتعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] ولكننا نقول لهم مثل ما قال أتباع موسى المؤمنون لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

فكأن الله عز وجل قد حقق له ما كان يتمناه قال الرنتيسي: «ويعلم الله أنني أتمنى ألا أموت في فراشي هكذا موتةً طبيعيةً وإنما أتوقع أن تكون نهاية حياتي قصفاً بالأباتشي..».

وكان ما تمناه رحمه الله... رزقنا الله الشهادة في سبيله[1].

* * *

{٥٠٩} أدعية مناسبة

- ورد في الحديث الشريف أن الذي يأخذ مضجعه، يعني قبل أن ينام، يقول: **«اللّهم خلقتَ نفسي وأنتَ توفّاها، لك مماتها ومحياها، إنْ أحييتَها فاحفظها، وإن أمتّها فاغفرْ لها، اللّهم إني أسألكَ العافية»**[2].

- ومما كان يدعو به الشيخ العماد إبراهيم بن عبدالواحد المقدسي **(ت٦١٤هـ)** أخو الحافظ عبدالغني:

---

(١) المجتمع ع١٦٠٣ (١٠/٤/١٤٢٥هـ) ص٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٧٨/٨.

اللّهم خلصني من مظالم نفسي ومظالم كل شيء قبل الموت، ولا تمتني ولأحد عليّ مظلمة يطلبني بها بعد الموت، ولا بدّ من الموت، فاجعله على توبةٍ نصوح بعد الإخلاص من مظالم نفسي ومظالم العباد، قتلاً في سبيلك، على سنتك وسنة رسولك، شهادة يغبطني بها الأولون والآخرون، واجعل النقلة إلى روح وريحان في جنات النعيم، ولا تجعلها إلى نزل من حميم وتصلية جحيم[١].

ـ ودعتْ أعرابيةٌ فقالت: اللّهم أصلحني قبل الموت، وارحمني عند الموت، واغفر لي بعد الموت[٢].

ـ وقال أبو حاتم: أملى علينا أعرابيّ يقال له مَرْثَد:

اللّهم اغفر لي والجِلْدُ بارد، والنفسُ رَطْبة، واللسانُ منطلق، والصحفُ منشورة، والأقلامُ جارية، والتوبةُ مقبولة، والأنفسُ مِرّيحَة[٣]، والتضرّع مرجُوّ، قبل آنِ الفراق، وَحَشَكِ النفس[٤]، وَعَلَزِ الصدر[٥]، وَتزَيُّل الأوْصَال[٦]، وَنُصُولِ الشعر، واحتياف[٧] التراب، وقبل أن لا أقدر على استغفارك حِينَ يَفْنى العمل، ويحضُر الأجل، وينقطع الأمل.

أَعِنّي على الموت وكُرْبته، وعلى القبر وغَمَّتِه[٨]، وعلى الميزان وخِفّته، وعلى الصّراط وزَلّته، وعلى يوم القيامة وَرَوْعته، اغفرِ لي مغفرة عَزْماً، لا تغادِر ذنباً، ولا تَدَع كرباً، اغفر لي جميع ما افترضتَ عليّ ولم أُؤدّه إليك، اغفر لي جميع ما تُبْتُ إليك منه ثم عُدْت فيه.

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ٥/٥٨.
(٢) محاضرات الأدباء للراغب ٢/٤٩٠.
(٣) مرح ومرّيح بمعنى.
(٤) الحشك: شدّة النزع.
(٥) العلز: قلق وهلع يصيب المريض والمحتضر.
(٦) تزيلت: تفرّقت.
(٧) الاحتياف: المراد أكل تراب القبر الجثة.
(٨) أي بلائه وكرب عذابه.

يا رب تظاهرتْ[1] عليَّ منك النِّعمُ، وتداركتْ عندك مني الذنوبُ، فلك الحمد على النعم التي تظاهَرَتْ، وأستغفِرك للذنوب التي تداركَتْ، وأمسيتَ عن عذابي غنيًا، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيراً.

اللّهم إني أسألك نجاح الأمَل، عند انقطاع الأجَل، اللّهم اجعل خير عملي ما وَلي أجلي، اللّهم اجعلني من الذين إذا أعطيتَهم شكروا، وإذا ابتليتَهم صَبرُوا، وإذا أذْكرتهم ذَكَرُوا، واجعل لي قلباً تَوّاباً أوّاباً، لا فاجراً ولا مُرْتاباً، اجعلني من الذين إذا أحسنوا ازدادوا، وإذا أساؤوا استغفروا.

اللّهم لا تحقّق عليَّ العذابَ[2]، ولا تقطَعْ بي الأسباب، واحفظني في كل ما تحيط به شفقتي، وتأتي من ورائِه سَبْحَتي[3]، وتعجِزَ عنه قُوّتي، أدعوكَ دعاء ضعيفٍ عَمَلُه، متظاهِرَةٍ ذنوبُه، ضنينٍ على نفسه، دعاءَ مَنْ بَدنُه ضعيفٌ، ومُنَّتُهُ[4] عاجزة، قد انتهت عُدَّتُه، وَخَلُقَت جِدَّتُه، وتَمَّ ظِمْؤُه[5]، اللّهم لا تخيِّبني وأنا أرجوك، ولا تعذِّبني وأنا أدعوك، والحمد لله على طول النَّسِيئة[6]، وحسن التِّباعة[7]، وتشنُّج العروق، وإساغة الريق، وتأخر الشدائِد، والحمد لله على حِلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدْرته، والحمد لله الذي لا يُودَىٰ قتيله، ولا يَخيبُ سُولُه[8]، ولا يُرَدّ رسولُه، اللّهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذلّ إلا لك، وأعوذ بك أن أقول زُوراً، أو أغْشَى فُجُوراً، أو أكون بك مغروراً، وأعوذ بك من شماتة الأعداء، وَعُضال الداء، وَخَيْبة الرجاء، وزوال النِّعْمة[9].

---

(١) أي تتابعت.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾.

(٣) من السبح: وهو التقلب والانتشار في الأرض، والإبعاد في السير، والتصرف في المعاش.

(٤) المنة: القوة.

(٥) خلق الثوب: بلي، والظمء: ما بين الشربتين والوردين.

(٦) النسيئة: الإمهال والتأخير.

(٧) التباعة والتبعة سواء.

(٨) ودى القتيل: أعطى ديته، والسول: مخفف من سؤل، وهو ما سألته.

(٩) جمهرة خطب العرب/ أحمد زكي صفوت ٣/٣٣٩ ـ ٣٤١.

فهرس الأعلام المحتضرين(*)

(*) الأعداد الواردة في هذا الفهرس تخصُّ الأرقام المتسلسلة، ولا علاقة لها بأرقام الصفحات.

● (ب)

● (خ)

● (د)

● (ذ)

● (ر)

● (ز)

● (س)

● (ش)

● (ص)

● (ض)

● (غ)

● (ف)

● (ق)

● (ن)

● (هـ)

● (و)

● (ي)

● المجهولون

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

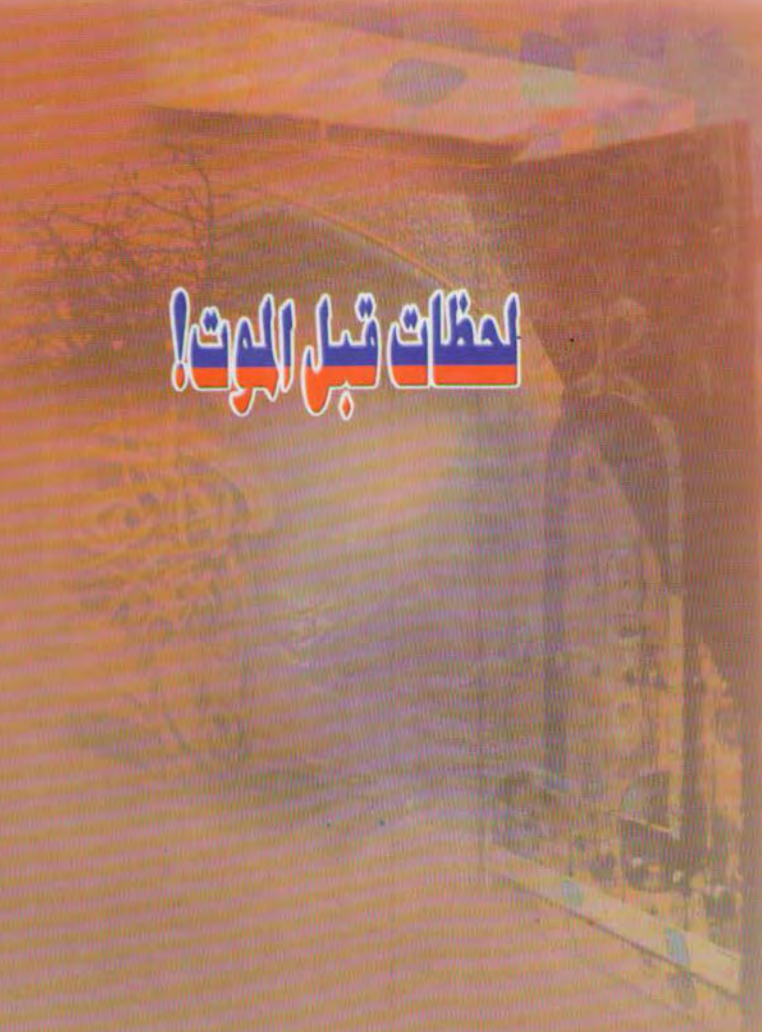
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

لحظات قبل الموت!



ISBN 9953-81-234-9

9789953812342